الجمـهوريـة الجزائـريـة الديـمقراطيـة الشعبيـة

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

التخصص: الدراسات المقارنة والتواصل الحضاري

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه (ل.م.د)

موسومة بـ:

المظاهر الحضارية في أدب الرحلات الأندلسية

- ابن جبير نموذجا -

إعداد الطالبة:
مجاهدي زوليخة

إشراف الأستاذ:
أ.د. بغداد عبد الرحمن

أعضاء لجنة المناقشة:

أ.د. عبد العالي بشير	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيسا
أ.د. بغداد عبد الرحمن	أستاذ التعليم العالي	المركز الجامعي مغنية	مشرفا
أ.د. شافع بلعيد نصيرة	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	عضوا
د. طيبي حرة	أستاذة محاضرة "أ"	جامعة تلمسان	عضوا
د. فتح الله بن عبد الله	أستاذ التعليم العالي	جامعة المسيلة	عضوا
د. بن عدي نورية	أستاذة محاضرة "أ"	المركز الجامعي مغنية	عضوا

العام الجامعي: 2022/2021

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

تتسابق الكلمات وتتزاحم العبارات لتنظم عقد الشكر الذي يستحقه

الأستاذ « **بغداد عبد الرحمن** » فقد مد يد العون من خلال

توجيهاته السديدة والقيمة في الدفع بهذا العمل إلى الأمام، كما أشكر

كل من ساندني ووقف معي من أجل إنجاز هذه الرسالة المتواضعة.

إهداء

إلى سيد الخلق خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا وحبيبنا وقدوتنا وراسم دربنا محمد عليه الصلاة والسلام.

إلى والدي سندي في الحياة.

وإلى إخوتي وزوجي وأولادي جواد ومحمد قرة عيني.

إلى كل من ساهم من قريب أو من بعيد في تكويني العلمي والمعرفي.

مقدمة

مقدمة:

تعد الرحلات مكسبا علميا وذلك من خلال ما تجود به من فوائد جليلة خدمت العلوم، كما أنها جسدت العلاقات الإنسانية، وعكست أوجه الترابط بينها، وصورت طبيعة الحياة الإنسانية بكل تفاصيلها منذ القدم. وقد تعددت أنواع الرحلات خاصة في القرون الوسطى، ومن أهمها الرحلة الحجازية. وبالرغم من صعوبة التنقل إليها في تلك الفترة إلا أنها كانت مقصدا هاما للرحالة الأندلسيين، وذلك بفضل أماكنها المقدسة كالكعبة المشرفة والمسجد الحرام وغيرها، حيث اتجه الأندلسيون نحو المشرق لأداء فريضة الحج، فتأثروا بما وجدوه هناك من حضارة وعلوم. وقد هيأت هذه الرحلات لنقل المظاهر الحضارية في المدينة المنورة ومكة المكرمة ودمشق والقاهرة والعراق وغيرها.

ومن الرحلات الأندلسية التي قد رسمت الحياة بكل تجلياتها في نهاية القرن السادس في بلاد المشرق والمغرب رحلة ابن جبير باعتبارها من أهم مؤلفات العرب والمسلمين في الرحلات. وبالرغم أن هناك رحالة عرب جابوا الآفاق ووصلوا برحلاتهم إلى أبعد ما وصل إليه، ورغم أن رحلته تعد أقصر ولم تبلغ ما بلغته رحلات غيره، إلا أن رحلته تعد من أهم المراجع التي يستند عليها الباحثون. فقد قدمت رحلته انطباعات عميقة ومشاهد متأنية للبلدان التي زارها، لأنها عكست مظاهر الحياة الاجتماعية من عادات وتقاليد ولباس واحتفالات الشعوب، ونقلت ألوانا من التبادل الفكري الديني وشتى الاختلافات في المذاهب والمعتقدات بين الأئمة والعلماء، كما اهتمت بمختلف الأنشطة الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة التي مارسوها في تلك الفترة. ومن خلالها أيضا رصدت الحياة السياسية في ظل الحروب الصليبية خاصة في بلاد المشرق وربطها بعدة مظاهر خاصة العمارة الحربية. كما أنه انتقد الأحوال والحكام وبعض العادات، ووصف المدارس والمارستانات والمشاهد والكنائس والقصور وذكر ما شاهده، وما كابده من الأهوال في أسفاره. كما أسهب في وصف الأماكن المقدسة خاصة المسجد الحرام والكعبة المشرفة وغيرها، ووقف على آثار دمشق كالجامع الأموي ومسجد الكوفة بالعراق وغيرها. كما تحدث عن جزيرة صقلية ووصف آثارها من مساجد وقصور وكنائس ومدارس وعن الحضارة التي خلفها العرب في الجزيرة وقد تمتع ابن جبير بدقة ملاحظة عالية،حيث اختزن ما كان يشاهده ويصادفه وقارن بينه وبين الحضارة التي كان ينتمي إليها، حضارة الأندلس الزاهرة. ورغبة مني في دراسة هذه المدونة الأدبية

الرّحلية، والوقوف على المعالم الحضارية التي وثقها ابن جبير في رحلته، اخترت موضوع البحث الموسوم «المظاهر الحضارية ي الرحلات الأندلسية ابن جبير نموذجا».

ومن العوامل التي دفعتني إلى اختيار هذا الموضوع:

1. الخوض في هذا النوع الأدبي الذي جمع بين مختلف الصيغ السردية من وصف وحوار وقصة وغيرها.
2. كذلك الاضطلاع بالدراسة والتحليل على أدب الرحلة خاصة رحلة ابن جبير باعتبارها أهم كتب أدب الرحلة التي يستند عليها الدارسون.
3. وأخيرا الرغبة في إحياء التراث الذي تركه الرحالة العرب والمسلمون في تلك الفترة. والكشف عن أهم المظاهر الحضارية في رحلة ابن جبير، وذلك لأنها مرجعاً لمختلف العلوم الحديثة يستند عليها الباحث في علم التاريخ والجغرافيا والاجتماع وغيرها. وانطلاقا من هذه الأسباب صُغْتُ الإشكالية في التساؤلات الآتية:

1- ما المظاهر الحضارية التي نقلتها الرحلات الأندلسية عامة، رحلة ابن جبير خاصة؟

2- إلى أي مدى ساهمت هذه الرحلة من خلال ما نقلته من مظاهر حضارية في حفظ التراث العربي؟

3- كيف رسم ابن جبير صورته في نصوصه الرحلية؟

أما المنهج المعتمد لدراسة المظاهر الحضارية ووصفها، فكان المنهج الوصفي التحليلي الذي من خلاله سأدرس نصّ الرحلة بتتبع أوصاف الرحالة ورصد مشاهداته وانطباعاته حول المظاهر العمرانية والاجتماعية والاقتصادية التي شاهدها خلال رحلته ولم تكن مألوفة لديه في المغرب فجاء وصفه يستحق العناية والدراسة.

أما الدراسات السابقة ذات العلاقة بموضوع الدراسة، نذكر منها:

- الرحلة في التراث العربي لفؤاد قنديل.
- الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر الحجاز خلال القرنين (7و8هـ) لعواطف محمد يوسف نواب.

- أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن (9هـ) لنوال عبد الرحمن شوابكة.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري.
- ومن المراجع التي استفدت منها في دراسة رحلة ابن جبير وما حوته من مظاهر حضارية مختلفة:

1/ أدب الرحلات لحسين محمد فهيم.

2/ الرحلات لشوقي ضيف

3/ جغرافية الرحلات عند العرب لنقولا زيادة.

4/ الرحل في المغرب والأندلس لعلي إبراهيم الكردي.

5/ الرحلة في الأدب العربي لناصر عبد الرزاق.

6/ المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين لصلاح الدين المنجد.

- وقد واجهتني بعض الصعوبات، من أهمها، ندرة الدراسات التي انفردت برحلة ابن جبير دراسة وتحليلا، لذا حاولت قدر الإمكان الحصول على مادة الدراسة من مراجع متفرقة.

وقد قسمت دراستي إلى مقدمة ومدخل وثلاثة فصول وخاتمة.

تطرقتُ في المدخل إلى بدايات الإنسان مع الرحلة وأسبابها، وأهمية أدب الرحلة كجنس أدبي.

أما الفصل الأول كان موسوما بمسار رحلة ابن جبير،فتعرضت فيه إلى سيرة ابن جبير والمسار المتبع (الزماني والمكاني) في طريق الذهاب والرجوع إلى الأندلس.

وجاء الفصل الثاني بعنوان "الوجود المكاني والبشري في الرحلة"، بحثتُ فيه عن أهم الأماكن التي زارها والشخصيات التي ذكرها خاصة التي كان لها تأثير على ابن جبير أو على مسار الرحلة، وهذه الدراسة تمهيدية للدراسة التطبيقية.

في حين كان الفصل الثالث أساس الدراسة (دراسة تطبيقية) قسمته إلى ستة مباحث هي:

- المبحث الأول: المظاهر الاجتماعية، درستُ فيها لعادات والتقاليد والاحتفالات وشكل اللباس والطعام بالأماكن التي زرها.
- المبحث الثاني:المظاهر الاقتصادية، تناولت فيه مختلف الأنشطة كالزراعة والصناعة والتجارة.
- المبحث الثالث: المظاهر الدينية والعلمية، وهي عبارة عن توطئة عامة وقفت فيها عند المذاهب ومختلف المعتقدات الدينية وذكر أهم الفقهاء والعلماء كذلك ذكر أهم المجالس العلمية والدينية.
- المبحث الرابع: العمارة الدينية الموصوفة في المساجد والكنائس
- المبحث الخامس: العمارة المدنية المتمثلة في المارستانات والحمامات والمدارس والقصور والدور وغيرها.
- المبحث السادس: العمارة الحربية التي تجلت في القلاع والحصون والأسوار. وختمتُ هذا البحث بخاتمة تناولتُ فيه أهم النتائج المستخلصة من هذا البحث.

وبعد، إنّ بحثي هذا، محاولة في موضوعه، لا أدعي به بلوغ درجة الكمال أو خلوه من العِلل، بل هو عمل قابل للزيادة والنقصان في ضوء ما استجد من دراسات حول ابن جبير ورحلته. والفضل الأول في توفيقي، يعود إلى الله سبحانه وتعالى، ثم إلى توجيهات أستاذي بغداد عبد الرحمن الذي أشرف عليه وبذل من وقته وجهده وسدده وصوبه.

والله من وراء القصد–

مجاهدي زوليخة

تلمسان في يوم:

محطات أدب الرحلة

- ✓ بدايات الرحلة
- ✓ بواعث الرحلة
- ✓ أهمية الرحلة
- ✓ تدوين الرحلة
- ✓ الرحلات الأندلسية
- ✓ أدب الرحلة

بدايات الرحلة:

عرف الإنسان الرحلة منذ أن خُلق، وقد تواترت رحلاته حسب الظروف ومتطلبات الحياة وحب الاكتشاف والمغامرة والاستطلاع، مما جعل الرحلة على مر الزمان تشكل حياته كلها، بل إنها: "تحقق له أغراضه، لذا فإن جميع الأمم قد عرفت الرحلات في بعض أشكالها، لكنها مرتبطة بالنشاطات الإنسانية"[1]، وقد عرف عن أمم كثيرة تعدد رحلاتهم التي نجد من أقدمها الرحلة التي قام بها الفراعنة عام 1493 ق.م وتعد من أقدم الرحلات التجارية والإثنوغرافية على الإطلاق، وقد كانت هذه الرحلة عبارة عن رحلة بحرية عبر أسطول ذلك بهدف تسويق بضائعهم من عطور وبخور[2]،وكانت لهذه الرحلات طابع تجاري لتصدير منتجاتهم.

من ثم يعد المصريون من أوائل العرب الذين مارسوا فن الرحلة لذلك سجل ملوك مصر رحلاتهم في آسيا وعلى الجدران معبد الدير البحري بمصر العليا تصاوير بديعة لسفن[3].

وقد مارست أمم أخرى الرحلة لأسباب متنوعة، ومنها: الفينيقيون الذين قاموا برحلات بحرية كبيرة خاضوا فيها عُباب المحيط الأطلسي، ثم خلفهم الإغريق الذين أقاموا مستعمرات لهم في البحر الأسود وفي بحر الروم[4]، ومن أشهر الرحالة عندهم " هيرودوت" الذي زار مصر وقبرص وفينيقيا وآشور وإيران وتوغل في الشمال البوسفور، وأودع مشاهداته، وقدم معلومات في تسعة فصول عن حوالي (50) خمسين شعبا من خلال رحلاته وقراءاته إلى جانب وصفه الدقيق للحرب التي دارت بين الفرس والإغريق إبان القرن (6ق.م)، أما في أوربا فعرف الرحالة "ماركو بولو" برحلته إلى بلاد الصين فقد وصفها وصفا دقيقا وأول من تحدث عن البلاط في بيكين وأول من كشف القناع عن غناها."[5]فماركو بولو من أوائل الأوربيين الذين نشطوا في فن الرحلة والاكتشاف.

1- إسماعيل زردومي، فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، أطروحة دكتوراه، إشراف عبد الله العشي، مكتبة الأدب بجامعة الحاج الأخضر- باتنة، 1426هـ، 2005م، ص1.

2 - ينظر حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، دط، 1990، ص 18 .19

3 - ينظر شوقي ضيف، الرحلات، دار المعارف، القاهرة، ط4، دت، ص7.

4 - ينظر المرجع نفسه، ص 8.

5- حسين فهيم، أدب الرحلات، ص19.

أما عن العرب فقد عرفوا الرحلة منذ زمن بعيد حيث أكدت العديد من الدراسات أن رحلاتهم امتدت جذورها ما قبل الإسلام بل أرجعت تاريخها إلى عهود سحيقة عند الأمم الأخرى إلا أننا نرى أنها أصبحت فنا قائما بنفسه، مستقلا بذاته...[1]وهذا ما دلت عليه الحقائق التاريخية.

كما أشارت العديد من الأساطير التي وجدت عند العرب على حضور الرحلة عندهم وذلك منذ زمن بعيد قبل ظهور الإسلام حيث: "...إن التمعن في فكرة المنطقة العربية وثقافتها قبل الإسلام يبين أن الرحلة حضرت في أساطير المنطقة العربية والمناطق المجاورة لها (مثل رحلة جلجامش، رحلتي أدبا وإيتانا) وفي قصص الأنبياء (هجرة إبراهيم وموسى عليهما السلام...) وفي الهجرات الجماعية من جزيرة العرب (مثل هجرة الأزد إثر انهيار سد مأرب)."[2]فالرحلة كانت من بين المهام التي يقوم بها الأنبياء خاصة بعد تعرضهم للأذية من قومهم وفرارا بدينهم.

وقد دعت الحاجة أحيانا العرب منذ القدم إلى الرحلة بحثا عن الماء أو الكلأ أو الاستقرار حيث غلبت عليهم البداوة، وعاش أكثرهم عيشة قبائل رحل، لا يقرون في مكان ولا يتصلون بالأرض التي يسكنونها وثيقا كما يفعل الزارع، بل هم يتربصون مواسم الغيث فيخرجون بكل مالهم من نساء، وإبل يتطلبون المرعى[3]، ولعل من أهم الرحلات التي عرفها العرب قبل الإسلام، وأشار إليها القرآن الكريم رحلة الشتاء والصيف إلى مكة المكرمة لقوله تعالى:

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ (1) إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ(2)﴾[4]

وقد ساعد الموقع الجغرافي قريشا على بلوغ هذه المنزلة، حيث أنها تقع في منتصف الطريق بين الشمال والجنوب، وعين زمزم تستقي منها القوافل وتأخذ حاجتها من الماء ولأن قريشا أيضا أهل الكعبة التي يدين العرب بعظمتها وتقديسها"[5]. وبهذا يكون العرب من أقدم الأمم التي مارست الرحلة وهذا ما أكدته أقلام الشعراء في الجاهلية من خلال رحلات الشعراء وإبداعهم الشعري المتأثر بالرحلة. " ...قد ظلت الرحلة مكونا ثقافيا لإنسان المنطقة العربية قبل الإسلام

1- ينظر محمد بن أحمد ابن شقرون، مظاهر الثقافة المغربية، (دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني)، الدار البيضاء-المغرب، سنة 1406هـ، 1985م، ص 171.
2- عمر بن عبد العزيز السين، بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية (للأسطورة والرمز) بيروت-لبنان، ط1، سنة 2009، ص54.
3- ينظر أحمد أمين، فجر الإسلام، الرغاية-الجزائر، ط2، 1994، ص10.
4- سورة قريش الآية 1-2.
5- المرجع السابق، فجر الإسلام، ص 24.

وبعده، وتبدى تأثيرها في لغته وإبداعه، ومن ذلك حضورها المتكرر في القصيدة العربية، فالرحلة حاضرة في البنية الأولى من القصيدة النسيب "[1]،فالعرب قديما لم يستقر بمكان محدد .

كما عرف عن الكثير من الشعراء حب الرحلة والتنقل "كالنابغة والأعشى حيث قام بعض الشعراء في الجاهلية بالرحلة إلى الحيرة ودمشق وبلاد الروم..."[2]، وبعد ظهور الإسلام، اهتم العرب المسلمون بالرحلة طلبا للعلم والرزق وقد دلت على ذلك العديد من السور القرآنية والأحاديث النبوية، مثل قوله تعالى:﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلاَرضَ ذَلُولا فَٱمشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزقِهِ ۖوَإِلَيهِ ٱلنُّشُورُ(15)﴾[3]

وقد قلب الإسلام حياة العرب في الجاهلية، ووسع من آفاق الرحلة عبر الفتوحات الإسلامية التي امتدت شرقا وغربا، وأعطى للرحلة قيمة عالية وارتفع شأنها، اتصل العرب بجيرانهم من الأمم الأخرى فاتصلوا بالفرس والروم والأحباش ومصر بفضل الدين واللغة العربية التي سطت سلطانها على هذه البلاد المفتوحة...[4]فكان لزاما على العرب بعد ذلك أن يعرفوا المسالك والطرق ويدرسوها للقيام بالفتوحات ونشر الدعوة الإسلامية، فازدهرت الرحلة في ظل الإسلام وأصبحت لها عدة دوافع.

كما أن للرحلة طابعها العلمي الذي تتميز به فقد أصبحت الرحلة مظهرا من مظاهر الحركة العلمية والثقافية في مختلف عصور التاريخ الإسلامي، وقدم الرحالة مساهمات واضحة في التراث العلمي والثقافي الإسلامي حيث رصدوا أحوال الناس، ووصفوا بعين البصيرة ما يزورون من بلدان ومن هنا كانت الخصوصية التي تتجسد في التواصل بين شرق العالم الإسلام وغربه مما يضفي عليه سمة الشمول[5].

فالرحلة بصفة عامة ساهمت في بناء صرح الحضارة العربية الإسلامية، كما أنها مثلت جزءا من التاريخ الإسلامي.

1- عمر بن عبد العزيز السين، بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية، ص53.
2- علي إبراهيم الكردي، الرحل في المغرب والأندلس، وزارة الثقافة-دمشق، 2013، ص9.
3-سورة الملك الآية: 15
4- ينظر أسماء أبو بكر محمد، ابن بطوطة' الرحل والرحلة)، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، دط، دت، ص10.
5- ينظر نوال عبد الرحمن الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية (حتى نهاية القرن التاسع الهجري)، المكتبة الوطنية-عمان، ط1، 1428-2008م، ص11.

1) بواعث الرحلة:

سجل التاريخ العديد من الرحلات التي نَقَلَتْ مظاهر الحياة في المجتمع بعينه في رحلة تاريخية معينة، وقد تعددت أسبابها من رحلة إلى أخرى

عرف العرب كما أسلفنا الذكر الرحلات منذ أزمنة قديمة حيث أسهموا بدور بارز في التجارة البحرية في المحيط الهندي، وارتحلوا بمنتجاتهم إلى شواطئ السند والهند وجزيرة سيلان، حتى أصبحت للفرس اليد الطولى على العرب إبان الدولة الساسانية، ونازع البطالمة والرومان العرب النفوذ على المحيط الهندي والبحر الأحمر والأبيض[1].لذلك كان النشاط التجاري من أهم بواعث وأسباب الرحلة والانتقال.

ولما جاء الإسلام نشطت حركة الرحلة وذلك من خلال الفتوحات الإسلامية من أجل إعلاء كلمة الله والجهاد في سبيل الله...وقد أذكى القرآن الكريم العزائم في مواطن مختلفة ليحملها على اقتحام القفار والبحار[2] يقول الله عز وجل داعيا إلى السير والضرب في جوانب الأرض ﴿قُل سِيرُواْ فِي ٱلأَرضِ فَٱنظُرُواْ كَيفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبلُ كَانَ أَكثَرُهُم مُّشرِكِينَ (42)﴾[3]

وقوله أيضا: ﴿..أَفَلَم يَسِيرُواْ فِي ٱلأَرضِ فَيَنظُرُواْ كَيفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبلِهِم وَلَدَارُ ٱلأَخِرَةِ خَير لِّلَّذِينَ ٱتَّقَواْ أَفَلَا تَعقِلُونَ(109)﴾[4]

وقد تضافرت العديد من الأسباب الداعية للرحلة والتنقل والتي يمكن أن نوجزها فيما يلي:

1. العامل الديني:

يمثل هذا العامل من أهم العوامل الأساسية التي كان لها تأثير كبير ودور بارز على العديد من الرحلات، "حيث لا يوجد في تاريخ الإنسانية موقع جغرافي حجَّ إليه ملايين البشر في كل جيل مثل الجزيرة العربية، ولا يوجد موطن استقطب خمس الإنسانية في طموحاتها الفكرية وتطلعاتها

1- ينظر فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، القاهرة، ط1، 2002، ص29.
2- ينظر نوال عبد الرحمن شوابكة، أدب الرحلات المغربية والأندلسية حتى نهاية القرن 9هـ، ص20.
3- سورة الروم الآية 42.
4- سورة يوسف الآية 109.

الروحية مثل الحجاز"[1]. والشاهد على هذا الدافع الديني الذي يقتضي بشَدِّ الرحال من كل حدب وصوب إلى الحجاز والأماكن المقدسة لأداء فريضة الحج الواجبة على كل مسلم نجده في قوله تعالى:﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلحَجِّ يَاتُوكَ رِجَالا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَاتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[2]. وبذلك "تعتبر الرحلات الحجازية نوعا من أنواع أدب الرحلة العربية التي اهتمت بوصف رحلات المسلمين إلى مكة المكرمة والمدينة ووصف مناسك الحج ومشاعر الحجاج"[3].

وكان غرض الناس من تلك الرحلة تأدية الواجب الديني وزيارة الأماكن المقدسة من خلالها وزيارة قبور الأنبياء والأولياء في كل من بغداد ودمشق والقاهرة وغيرها، "وتعتبر رحلات المغاربة إلى المشرق أكثر من رحلات المشارقة إلى المغرب، فمركز الحج في المشرق، ومدن العلم الأولى فيه، فكان من الطبيعي أن يزور المغاربة المشرق أكثر من زيارة المشارقة لبلادهم"[4]، وقد كان هدف معظم الرحالة الكبار من الرحلة تأدية فريضة الحجّ وزيارة الأماكن المقدسة حيث اعترف كثير من الرحالة في رحلاتهم أن السبب كان دافعها ديني لتأدية الحج. فنجد العبدري وابن رشيد وابن بطوطة كلهم غادروا أوطانهم للقيام بهذه المهمة الدينية...[5].وانتهز هؤولاء الرحالة الفرصة لزيارة أماكن أخرى مقدسة وتاريخية.

ويؤكد ابن بطوطة ذلك في فاتحة رحلته أن سبب خروجه من وطنه إلى المشرق "كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خامسة وعشرين وسبعمائة، معتمدا حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) "[6]، وذهب أيضا العبدري أن "سبب رحلته إلى المشرق أداء فريضة الحج، وزيارة الأماكن المقدسة والاتصال بالمتصوفة والصالحين، وقد صرح العبدري مرارا أنه كان ينوي الإقامة بمكة والمجاورة بها، وقد استمرت رحلته أكثر من سنتين من (688هـ/ 1289م) وعند رجوعه سنة (691هـ/

1- عبد العزيز بن عبد الله، الرحلات من المغرب وإليه عبر التاريخ، دار نشر المعرفة، الرباط- المغرب، ط1، 2001، ص45.
2- سورة الحج آية 27.
3- رضوان الأهدب، الرحلات الحجازية (رحلة أبي عبد الله الحضيكي نموذجا)، مجلة قضايا التجديد في العلوم الإنسانية والإسلامية بالكلية المتعددة الاختصاصات، العدد الرابع الناظور- المغرب، ديسمبر 2019، ص 308.
4- نقولا زيادة، جغرافية الرحلات عند العرب، بيروت، ط1، سنة1980، ص160.
5- ينظر محمد بن أحمد بن شقرون، مظاهر الثقافة المغربية (دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني)، ص171.
6- ابن بطوطة، رحلة "تحفة النظارفي غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق لجنة الأدباء، المكتبة التجارية الكبرى-مصر، 1377هـ/1958م، ص5.

1292م)"[1]. إذ كان غرض الناس الديني من تلك الرحلة هو زيارة المشرق عامة وإلى الحجاز خاصة إلا أنهم"بمجرد ما يصلون إلى بلدهم يسرعون إلى تجديد الزيارة فهذا ابن جابر الواد آشى أطلق عليه ابن خلدون صاحب الرحلتين وهذا ابن جبير قام برحلات ثلاثة وابن بطوطة قضى جزءا كبيرا من حياته في الرحلة"[2].

لذلك فالسبب الديني كان له دور كبير للقيام بالترحال والتنقل خاصة بعد ظهور الإسلام.

2. العامل الثقافي:

لعل من الأسباب التي دفعت إلى الرحلة والانتقال طلب العلم ولقاء العلماء والفقهاء ونقل العلوم المختلفة خاصة الدينية منها لجمع الأحاديث وغيرها، فنجد بعض الرحالة المغاربة والأندلسيين ينتقلون داخل بلادهم أو ينتهزون فرصة أدائهم فريضة الحج، للقاء العلماء والفقهاء، وزيارة المراكز العلمية وتسجيل مشايخهم ومروياتهم[3]، وقد أورد المقري في "نفح الطيب" أسماء أكثر من(300) ثلاثمائة شخصا من الأندلسيين الذين رحلوا إلى المشرق لطلب العلم وحده، وليس لغرض التجارة أو الحج"[4]، كما "رحل الناس أيضا من الأندلس إلى بخارى ومن بغداد إلى قرطبة"[5].

حيث أصبحت الرحلة أمرا ضروريا ومهما لطالب العلم "وطبيعي أن تكون الرحلة من أهم الوسائل لطلب العلم في أوائل العصر الإسلامي فقد كانت الكتب نادرة... كما تعددت مراكز الثقافة في ديار الإسلام فكان رجال العلم ينتقلون من إقليم إلى آخر يدرسون على يد مشاهير الأساتذة ويلتقون بأعلام من الفقهاء والمحدثين...وتروي لنا كتب الحديث، وكتب طبقات المحدثين

1-ينظرمحمد العبدري البلنسي، رحلة العبدري، حققها علي ابراهيم الكردي، دار سعد الدين للطباعة، ط2، 2007، ص 10، 11.
2- حسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، منشورات عكاظ، دط، دت، الجزء1، ص49.
3- ينظر نوال عبد الرحمن شوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية، ص32.
4- أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، ط1، سنة 1419هـ-1998م، ص5.
5- أغناطيوس يوليا نوفتش كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، جامعة الدول العربية، 1957، ص20.

قصصا كثيرة عن المحدثين الذين قاموا برحلات شاقة في سبيل جمع الأحاديث المحفوظة في صدور الرواة المتفرقين في أنحاء العالم الإسلامي ليدونوها لأول مرة"[1].

وجاءت العديد من الرحلات لطلب العلم وتأدية فريضة الحج: رحلة القاسم بن يوسف بن محمد بن علي التيجيبي "مستفاد الرحلة والاغتراب"، ورحلة ابن رشيد السبتي" ملء العيبة في ما جمع بطول الغيبة في الوجهة الواجهة إلى الحرمين مكة وطيبة" وقد صرح الرحالة في قوله: "إن كنت أودعته من الفوائد ما لعله لا يحصره ديوان ويعز وجوده على ذي البحث والتنقير والافتتان...وقد ضمنته من الأحاديث النبوية، والغرائب الأصلية والفقهية، واللطائف الأدبية، والنكت العروضية، وضبط المشكل من أسماء الرجال، والتعريف بكثير من المجاهيل والأغفال"[2]، وبذلك اعتبرت الرحلة"معلماً ممتازاً على المستويين النظري والعلمي، كما عُدّت وسيلة للإيمان أو تثبيته وتأكيده، وذلك من خلال ما يراه الرحال من عجائب وغرائب وبديع صنع."[3]إذن فللرحلة دورٌ بارزٌ في نقل المعارف والعلوم خاصة في العصور الوسطى فلا يستطيع طالب العلم الارتقاء بعلمه واكتساب الفوائد والعلوم إلا بالتنقل والترحال.

3. العامل الاقتصادي:

تعد التجارة من الأنشطة القديمة التي اعتمد عليها العرب منذ القدم. وقد كانت تقتضي القيام بالترحال، وقد مارس العرب التجارة قبل ظهور الإسلام بزمن بعيد لذلك وردت كلمة "الفلك" في عدة آيات بما يدل على أن العرب كانوا على علم بها لأنهم صنعوا السفن وأبحروا وتاجروا واصطادوا من خيرات البحر لقوله تعالى:﴿...وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ(32)﴾[4]

فبحكم موقع العالم العربي وتوسطه بين القارات القديمة، فقد جعلها تحتل موقعا تجاريا هاما في العصور الوسطى، وذلك لأنها مركزا لالتقاء الطرق التجارية بين هذه القارات، كما أن

1- ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن 9هـ، كلية الآداب-جامعة القاهرة، ط1، 1415هـ -1995م، ص15.
2- ابن رشيد الفهري السبتي، ملء العيبة بما جمع بطون الغيبة في الواجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، الدار التونسية، 1402هـ/1982م، ص29.
3- ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن 9هـ، ص15.
4- سورة إبراهيم آية 32.

انفصال الماء وتداخله في اليابسة في المنطقة العربية، جعلها تحتل موقعا تجاريا هاما في العصور الوسطى[1].

لذلك كان للعرب دورٌ كبيرٌ في العلاقات التجارية حيث جعلوا مكة قاعدة لتجارتهم، ووضعوا الطريق تحت حمايتهم وبعد مجيء الإسلام ظهرت الفتوحات الإسلامية التي طورت التجارة العربية شرقا وغربا حيث تطورت تجارتهم بازدياد الفتوحات[2]، واتسع نطاق التجارة عند المسلمين اتساعا لم يبلغه شعب آخر قبل اكتشاف أمريكا، فانتشرت قوافل التجار المسلمين في القسم الأعظم من العالم المعروف في ذلك العهد، وخاضت سفنهم عباب البحار والمحيطات، وازدهرت على أيديهم الطرق التجارية بين بحار الصين وآسيا الوسطى[3]، إذن تعد الفتوحات هي التي نشطت حركة التجارة ووسعت نطاقها.

كما شكلت التجارة أهم الأسباب التي أدت إلى تدوين الرحلات لمعرفة طرق التجارة البرية والبحرية، ولعل أول ما ارتبطت به الرحلات، علم تقويم البلدان والمسالك والممالك لوصف الطرق والمناخ،"لذلك ظهرت العديد من المؤلفات في هذا الصدد وبرز الكثير من الرحالة نذكر منهم: ابن وهب القرشي، سليمان السيرافي وياقوت الحموي صاحب "معجم البلدان" الذين كانوا ممن رحلوا للتجارة والعلم معا "...وسوف نرى عن كلام الرحالة أنفسهم عظم تجارة المسلمين في شرقي إفريقيا ووسطها وإقليم غانة في بحار الصين وجزر الهند..."[4]. وبذلك نشطت حركة الرحلة ومعها حركة التجارة.

ولعل هذا ما أكده عواطف محمد يوسف نواب "كان للتجارة دورٌ كبيرٌ وخاصة أن أساطيل المسلمين للتجارة أخذت تجوب جميع البحار، فليست رحلاتها قاصرة على المناطق الإسلامية، بل وصلت إلى مناطق شاسعة في الهند والصين والبلدان الأوربية وغدا المسلمون بفضل نشاطهم البحري ذوي شهرة كبيرة وأصحاب ثروات هائلة"[5]، فبفضل التجارة وضرورة معرفة الطرق

1- ينظر نوال عبد الرحمن شوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن 9هـ، ص46.
2- ينظر، جورج غريب، أدب الرحلة، بيروت-لبنان، دط، دت، ص26.
3- ينظر زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، بيروت-لبنان، دط، 1401هـ/1981م، ص11.
4- زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص13.
5- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين (7و8) (دراسة تحليلية مقارنة)، الرياض، دط، 1996، ص36.

والمسالك والمناخ ازدهرت الرحلة وتطورت "...وكونوا علائق تجارية في أقصى الأرض، وعلائق بالصين وبعض البقاع الروسية وبعض مجاهل إفريقية، ولم تمنعهم صعوبة المواصلات وسوء الاستعدادات من الرحلات إلى أقصى البلاد"[1].

وبهذا تعد التجارة من العوامل التي دفعت للقيام بالرحلة الاستكشافية لمعرفة المسالك والطرق لتسهيل النشاط التجاري.

4. العامل السياسي:

تعددت البواعث لطرق أبواب الرحلة ومنها الجانب السياسي لتبادل العلاقات أو من أجل الاطلاع على الأمور السياسية في البلدان لذلك تعد السفارة نوعا من الرحلات الرسمية فهي عبارة عن إرسال الوفود والسفارات التي يبعث بها الحكام والملوك لتبادل الرأي وتوطيد العلاقات أو لمناقشة شؤون الحرب أو السلم أو تمهيد للفتح أو الغزو، وقد كانت الرحلة ورجالها هي البطل الأول في التمهيد لهذه الفتوحات، وما كانت الجيوش الإسلامية قادرة على طي القفار أو صعود الجبال وعبور الأنهار لدخول الأقطار والأمصار إلا بفضل الرحالة والتجار والملاحين وهواة الأسفار[2]. لذا كان للرحلة دور سياسي كبير في زمن الفتوحات الإسلامية، "لتشكل أكبر إمبراطورية عرفها التاريخ، الأمر الذي يؤكد الخبرة البرية والبحرية والجغرافية للعرب وغيرهم من الشعوب المجاورة التي أسلمت"[3].فالرحلة دور في تشكيل الحضارة الإسلامية.

ونجد العديد من الرحلات التي كان دافعها سياسياً ومن أقدم هذه الرحلات رحلة سفارية التي قام بها شاعر الأندلسي يدعى يحي الغزال* إلى إمبراطور قسطنطينية وملك النورمان، اختلفت المصادر القديمة والدراسات الحديثة، فيما يتعلق بسفارة الغزال أكانت للقسطنطينية أم إلى بلاد المجوس، ومنهم من أوردها إلى القسطنطينية وبلاد المجوس، كما قد أرسل الخليفة الغني بالله ابن الخطيب سفيرا إلى المغرب يستنجد بأبي عنان المريني[4]. وقد تعددت أنواع السفارات الداخلية

1- قدري حافظ طوقان، علماء العرب وما أعطوه للحضارة، دار الكتاب العربي، بيروت، دط، دت، ص74.
2- ينظر فؤاد قنديل، الرحلة في التراث العربي، ص33.
3- المرجع نفسه، ص34.
*- يحيى الغزال هو يحيى بن حكم البكري، الجياني المشهور بلقب الغزال لحسن جماله الذي حافظ عليه إلى زمان متأخر من حياته كان شاعرا مثقفا ثقافة واسعة في العلوم العقلية والنقلية وذهب سفيرا إلى بلاد المجوس (نقلا عن كتاب في الأدب الأندلسي لمحمد رضوان الداية).
4- ينظر نوال شوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية، ص42.

والخارجية لدورها المهم في الحياة السياسية والتي غيرت الكثير من الأحداث في أزمنة متعددة حيث "كثرت الرحلات والسفارات الداخلية زمن أمراء الطوائف للتشاور في أمر خطير من أمور السياسة والحكم كما كثرت رحلات حكام غرناطة والمغرب لتفقد شؤون البلاد والرعية"[1].

والسفارات إلى يومنا هذا لم تنقطع بين الدول العربية وغير العربية باعتبارها الرائد في تنظيم شؤون العلاقات الدبلوماسية واستقرار البلاد.

5. **الضرورة الإنسانية:** إن الإنسان منذ القدم دائم الترحال بدافع يدفعه لهجرة أرضه، فيغادرها بحثا عن الكلأ والماء أو الاستقرار. "ونجد من الرحلات الاضطرارية رحلة الفرار بالدين من أرض الشرك إلى أرض الإسلام، ومن أشهرها هجرة المسلمين الأولى والثانية إلى الحبشة فرارا من اضطهاد وظلم قريش ثم هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) من مكة إلى المدينة فرارا بالدين وخوفا من الفتنة"[2] لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا (97)﴾[3] وذلك فضل من الله رخّصَ فيه لعباده، حيث إذا خشي المرء على نفسه أذن الله له في الخروج والفرار بنفسه ليخلص من ذلك المحذور لقوله تعالى:﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ(26)﴾[4]، وبعد تطور الإنسان في منظومته الاجتماعية والاقتصادية ازدادت الحروب والنزاعات والنكبات بكل أنواعها وتعددت دواعي الرحلة الاضطرارية بسبب ظلم الحاكم أو الفقر أو المرض.

1- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه، دار المعارف-القاهرة، دط، دت، الجزء8، ص527.
2- عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي، الرحلة في الإسلام (أنواعها وآدابها)،، مكتبة الدار العربية-القاهرة، ط1، 1416هـ -1969م، ص24.
3- سورة النساء آية 97.
4- سورة العنكبوت أية 26.

2) أهمية الرحلة:

للرحلة فوائد جمة لا يمكن حصرها، حيث صورتْ مظاهر حياة المجتمعات على حقيقتها باعتبارها باباً من أبواب المعرفة والثقافة الإنسانية وسببا في اكتشاف المجهول والوصول إلى الغاية ومعرفة الحقيقة، وإنعام في النظر في الآثار والطبيعة. وقد فطر الله سبحانه وتعالى الإنسان على البحث المستمر عن الحقيقة، واستقصاء مدارجها، والتعرف إلى هذه الدنيا ومظاهر الحياة فيها، لذلك طاف الإنسان فجاج الأرض ومغاور الصحراء وركُوب البحر والتردد بشكل كبير على البلدان وعشق الرحلات[1].

وبالتالي شكلت الرحلة أهمية كبيرة في حياة الإنسان حيث عُدَّتْ كنزا ثمينا بما تمتاز به من معلومات قيمة تخدم الإنسان في جميع مناحي حياته كما أنها "أماطت اللثام وكشفت جوانب مهمة عن واقع الكثير من الشعوب"[2]وفي ذلك يقول الإمام الشافعي:

مَا في المقامِ لِذي عقْلٍ وذي أَدبٍ مــن راحَةٍ فدَعِ الأوطـــانَ واغْترِبْ

سافِرْ تَجِد عِوضًا عمَّـــن تُفارِقهُ وانْصبْ فإن لَذيذَ العيِش في النَصبِ

إنّي رأيتُ وقوفَ المـــاءِ يُفسدُهُ إنَّ ساحَ طـابَ وإن لمْ يجَر لم يطِبِ

كما يقول أيضا:

تَغربْ عنِ الأوطانِ في طلبِ العُلَى وسافِر ففِي الأسْفارِ خمسُ فوائِدِ

تفـــرُّج هـــمٍّ، واكتسَابُ معيشةٍ وعلـــــمٍ، وصحبةَ مـــــاجدٍ[3]

1- ينظر بلال سالم الهروط، صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية، أطروحة دكتوراه، إشراف د فايز القيسي، كلية الآداب بمؤتة-الأردن، سنة 2008، ص15

2- فتيحة الحاج بن فطيمة، القيمة التاريخية لكتب الرحلة (رحلة ابن جبير والطهطاوي موذجا)، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية، العدد الأول، جامعة يحيى الفارس المدية – الجزائر، يناير 2019، ص 310.

3- أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، ديوان الإمام الشافعي، جمع وإعداد الطالب طه ناجي، دار الكتاب الحديث-القاهرة، ط9+-1، سنة 1423هـ/2002م، ص23.

أهميتها من الناحية العلمية:

إن للرحلة دورا كبيرا في التحصيل العلمي فصاحبها يلتقي ويجالس العلماء ويشاهد المناظر ويسمع الأحداث، ومن هذا القبيل تعد الرحلة وثيقة حية متنوعة بالمعلومات والمعارف على أن ثمار الرحلة لا تتوقف عند التعارف أو صقل الشخصية أو كشف المجهول من طبائع الشعوب، لكنها تجود بالمكاسب العلمية والأدبية، التي قد يتعذر حصرها[1].وهذا ما اعترف بها الرحالة من خلال كتاباتهم التي كشفت عن نقلهم للعلوم من خلال الأماكن التي زاروها.

فإن الرحلة في طلب العلم ولقاء الأساتذة مزيد كمال في التعلم، فالرحلة لا بد منها في العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ والعلماء. وهكذا فإن الرحلة تعد موسوعة علمية متعددة المعارف والثقافات تعود بالفائدة على الرحالة والبلدان، "فكان الرحالة يفيد علما كثيرا، وثقافة متنوعة تدين للقائه بأكبر العلماء الذين تنوعت مشاربهم"[2]. كما قدمت الرحلة العديد من الخدمات الكبيرة للعديد من العلوم وطورتها لما تجود به من المعلومات القيمة ولعل أبرز دور قدمته الرحلة في العالم العربي هو الخدمة الكبرى التي قدمتها لعلم الجغرافيا، فقد كان الرحالة في وصفه للمسالك والممالك معينا للجغرافي...ولعلم الاجتماع والأدبي والفلكي...[3].

ومن الرحلات الجغرافية، نجد رحلة أبي عبيد البكري الأندلسي التي قدمت معلومات جغرافية واقتصادية دقيقة وخصصت فصلا للأنهار وفصلا آخر للموانئ، كما تُعَدُّ رحلة الإدريسي مصدرا للجغرافية الطبيعية والبشرية فوصف أحوال البلاد وخلقها وبقاعها[4].كذلك وضع ياقوت الحموي معجما جغرافيا فريدا في بابه سماه "معجم البلدان" لا يزال يعتمد عليه الباحثين، وبذلك تعتبر الرحلة مرجعا أساسيا للعديد من العلوم كعلم الاجتماع والجغرافيا وغيرها وذلك بما تجود به من معلومات قيمة تمس جميع مناحي الحياة أو يكاد، إذا تتوفر فيه مادة وفيرة لجميع العلوم[5].

1- ينظر فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، ص23.
2- علي إبراهيم الكردي، الرحل في المغرب والأندلس، ص17.
3-ينظر فؤاد قنديل، (المرجع السابق)، ص23.
4- ينظر نوال شوابكة، الرحلات الأندلسية والمغربية، ص 56و57.
5- ينظر حسين حسني محمود، أدب الرحلة عند العرب، ص6

أهميتها من الناحية الأدبية: للرحلة قيمة أدبية لما تحتويه من أساليب متنوعة من سرد ووصف وحوار أما أسلوب الكتابة واللغة التي يتوسل بها كاتب الرحلة فإنه يضيف إليها قيمة أدبية، وبخاصة عندما يحتف الكاتب بالأساطير والخرافات، وبعض المحسنات البلاغية، وجمال اللفظ وحسن التعبير وارتقاء الوصف وبلوغه حدا كبيرا من الدقة علاوة على ما قد يستعين به أحيانا من أسلوب قصصي سلس ومشرف، وهذا هو الذي يجعل بعض الدارسين يدخلون أدبيات الرحلات ضمن فنون الأدب العربي عندما تصبح قراءة هذا اللون من الكتابة متعة ذهنية[1].ففن الرحلة أدب يجمع بين فنون مختلفة والإمتاع الفني.

وللرحلة أهمية أدبية وذلك من خلال عرض "نصوص الرحلات التي تقدم لنا صورا ممتعة وتستعرض الأحداث بصورة أدبية وبذلك يمكن لنا اعتبار أدب الرحلات العربي نمطا من أنماط الأدب وفنا من فنون القول الأدبي الذي تتجمع فيه أساليب القصة والمسرحية والمقالة الأدبية دون أن يخضع لمعاييرها ومقاييسها التي قررها الأدباء والنقاد"[2].فأدب الرحلة الفن الوحيد الذي يجمع بين الأسايب المختلفة في عرض أحداثه.

إذن، فالرحلة باعتبارها تصويراً لما جرى من أحداث ووصفها للأماكن فإنها من الفنون الأدبية التي تجمع بين الإمتاع الإخباري، والإبداع الفني، والجمال الأسلوبي، والإثارة التي تجمع عادة بين الحقيقة التاريخية والرؤى الأدبية"[3]. ويبقى أهم ما يميز فن الرحلة أنه كُتِبَ بأسلوب أدبي راقٍ، أكسبه قيمة أدبية وعلمية عاليتين.

1- ينظر سيد حامد النساج، مشوار الرحلة (قديما وحديثا)، مكتبة غريب، دط، دت، ص8.
2- أسماء أبو بكر محمد، ابن بطوطة (الرحل والرحلة)، ص13.
3- محمد رضوان داية، في الأدب الأندلسي، دار الفكر المعاصر، بيروت-لبنان، ط1، 2000، ص268.

3) تدوين الرحلة:

عرف المسلمون منذ القدم العديد من الرحلات التي لم يدونها أصحابها، فالمقري في كتابه "نفح الطيب" يعترف بالقصور والعجز في استيعاب لكل من كانت لهم رحلة حيث يقول: "إن حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا بحال ولا يعلم ذلك على الإحاطة إلا عالم الغيوب الشديد المحال"[1]. فهناك رحلات كتبها أصحابها أثناء رحلتهم "كما خضع الرحالة في تدوين رحلتهم إلى تتبع تسلسل الأحداث والمفاجآت التي تحصل وفق زمن حدوثها ومكانه. ومثال ذلك "العبدري الذي سلك هذه الطريقة في تدوين أحداث رحلته"[2]. أضف إلى ذلك "أن الرحلات لم تدون على هيئة كتب معروفة بل دونت على هيئة مذكرات يومية مع تفاوت في الدقة فيما يتعلق بتدوينها"[3].وكان بعض الرحالين يلجؤون إلى تقييد الأمور المهمة التي مرت معهم حتى لا ينسوها بالكتابة، وعندما كانوا يعودون إلى بلادهم ويستقرون، كان واحدهم يُخرِجُ هذه الملاحظات ويُرتبها بعد مرور مدة تطول أو تقصر[4]، "ومن ذلك رحلة التجيني "مستفاد الرحلة والاغتراب" الذي يُشير إلى أحداث تتعلق بسنة 704هـ مع أن الرحلة كانت سنة 696هـ"[5].

ومن جانب آخر، دُونت بعض الرحلات من ذاكرة الرحالة أنفسهم، إذ يقوم بإملاء رحلته من الذاكرة من دون أن يعتمد أصولا أو ملاحظات مدونة من رحلته، ومن هذا النوع رحلة ابن بطوطة التي قام بتدوينها الكاتب ابن الجزي بتكليف من أبي عنان المريني[6].

لذا تعدد منهج تدوين الرحلات فمنها من دونها أصحابها خلال رحلاتهم، ومنها من دونت من خلال الذاكرة بعد عودة الرحالة من رحلته، ومنها من لم تصلنا أخبارها لأن أصحبها لم يهتموا بتدوينها.

1 -أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ص 183.
2- علي إبراهيم الكردي، الرحل في المغرب والأندلس، ص14.
3- حسين محمود حسن، أدب الرحلة عند العرب، بيروت-لبنان، دط، 1403هـ/1984م،ص13.
4- ينظر علي إبراهيم الكردي، الرحل في المغرب والأندلس ص15.
5- حسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ص57.
6- ينظر ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن 4هـ، ص61.

4) الرحلات الأندلسية:

كان ولع الأندلسيين بالرحلات كبيرا حيث سافروا من بلد إلى آخر لحضور مجالس العلم والأدب أو الحج أو توثيق الأخبار والأحاديث، وزاروا مِصْر والحجاز والشام، كما وصلوا إيران والهند وروسيا وبلاد البلغار وأذربيجان، ووصفوا الطرق والمعالم والناس، وجابوا الأقطار والأمصار، فتركوا آثارا خالدة في التاريخ والأدب والجغرافيا الوصفية، ووصفوا ما شاهدوه ودونوا ما رأوه بكل دقة وحصافة، فكانت آثارهم معالم يُهْتَدَى بها، كما رصدوا ثقافات الأمم وحضاراتها وعلومها، وأدبها، وسجلوا كل ملاحظاتهم وتحليلاتهم، فأسهموا بذلك في خدمة العلم والفكر[1].

وكان للرحلة الأندلسية بشكل خاص تأثير كبير في إثراء العلم والأدب وهذا ما نلاحظه في العديد من الرحلات الأندلسية التي لا يقل شأنها وقدرها عن الرحلات المغربية، التي اعتبرت مصدرَ أدبٍ غزيرٍ طوال القرون، لما حملته من أخبار عن المجهول وفوائد عن الناس وأخبارهم.

نماذج من الرحلات الأندلسية:

لقد انطلق من الأندلس العديد من الرحلات التي جابت الآفاق، وقدمت خدمات جليلة للعلم والأدب نذكر منها:

1- رحلة أبي عبيد البكري الأندلسي: وقد شكلت رحلته مصدرا هاما من مصادر المعرفة، ووثيقة جغرافية واقتصادية خلال القرن الخامس الهجري. وأبو عبيد البكري أكبر جغرافي عرفته الأندلس رغم أنه لم يتركها وكان ينتقل في مدنها فقط، إذ يبدأ بوصف عادات أهل المكان ويذكر الموارد والمحاصيل والمعدات والصناعات...إلخ. وخلف لنا البكري مؤلفات مهمة في مجال الجغرافيا مثل: " المسالك والمهالك" و"معجم ما استعجم"، الذي يعتبر أول معجم جغرافي في تاريخ التأليف الجغرافي عند العرب"[2].وكانت مؤلفاته إرهاصاً من إرهاصات علم الجغرافيا، وكان

1- ينظر بلال سالم الهروط، صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية، ص15.
2- ينظر نوال شوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن 9هـ، ص56.

يتصف البكري بدقة لا يدانيه فيها إلا القليلون، "فلم يكن من الجغرافيين الرحالة الذين يكتبون عن مشاهدة ومعاناة مباشرتين، بل كان يكتب في الجغرافية معتمدا على القراءة والتصنيف والتصوير، فاق فيما وصل إليه من النتائج أهل الرحلة والمشاهدة. ونستطيع أن نؤكد أن القسم الخاص بمصر الوارد في مسالك البكري هو أحسن وأوفى ما ألف في جغرافية مصر قبل المقريزي..."[1].

أي أن هذا الرحالة كان يتسم عن غيره من الجغرافيين بعدة سمات من أبرزها الدقة في نقل المعلومة التي أكسبته مكانة عالية في علم الجغرافيا وشهرة واسعة.

2- رحلة أبي حامد الغرناطي: المسماة "تحفة الألباب ونخبة الإعجاب": وتعد نموذجا من الرحلات الأندلسية العجائبية التي انفتح بها على أمم أخرى في إفريقيا، حيث زار صقلية ومنها رحل إلى مصر وزار الشام والعراق، وتحول إلى نواحي البحر الأسود، وتوغل في بلاد الصقالبة والبلغار، على نهر القولجا، وصعد إلى أقصى الشمال في روسيا، وسجل مشاهداته في كتابه سماه "تحفة الألباب ونخبة الإعجاب" وله كتاب سماه "تحفة الكبار في أسفار البحار[2]. ولكتابه تأثير واضح في الأجيال التي جاءت بعد أبي حامد الغرناطي وذلك على مستوى الجمهور وعلى مستوى الكُتّاب من الجغرافيين والمؤرخين على حد سواء. أما الجمهور فقد جذبه إلى الكاتب أسلوبه الرفيع، ولهذا يمكن اعتباره تحفة أدبية، وما يقصه ويرويه من مشاهداته الشخصية المسلية وما ينقله عن الغير، ويزكيه ويثق بنقله من العجائب والغرائب، فرحلته جمعت بين الجانب العلمي والأدبي وذلك من خلال نصوصه المتنوعة ومثال ذلك قوله: " اعلمْ أن البحر لمحيط الذي أحاط بالدنيا والأرض في وسط البحر كالكرة في غدير ماء، وهو البحر الأسود الذي يعرف ببحر الظلمات لا تدخله السفن"[3].

3- كذلك لسان الدين ابن الخطيب ورحلته خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف"وهي عبارة عن وصف رحلة قام بها سنة 748هـ/ 1347م، يصف فيها رحلة قام بها السلطان أبو الحجاج يوسف، وزار فيها عدة من مدن مملكة غرناطة، وقد كتبت بأسلوب جزل"[4].

1- حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، جامعة مدريد، الطبعة الثانية، 1976م- 1376هـ، ص 144و146.
2- ينظر شوقي ضيف، الفن ومذاهبه، ص 528.
3- أبو حامد الأندلسي الغرناطي، تحفة الألباب وتحقيق الإعجاب، تحقيق إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر، 1989، ص10
4- ينظر لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تلمسان، دار الأمل للدراسات، دط،دت، ج2،ص 10.

ورحلة القاضي أبو البقاء البلوي المسماة "تاج المفرق في تحلية علماء إفريقيا والمشرق" تعد من الرحلات التيقد لقي فيها كثير من العلماء وروى عنهم، بدأها في 18صفر سنة 730هـ وظل يلقى العلماء سنوات ويأخذ عنهم، ونزل تونس وعينه أميرها كاتبا في ديوانه زمنا يسيرا، ثم عاد إلى بلده فعُين بها قاضيا[1].فهي من الرحلات العلمية التي لقي فيها مجموعة من العلماء وانتفع من علمهم.

4- ومن الرحلات الاستكشافية التي كان هدفها الاكتشاف والاطلاع على أحوال البلدان رحلة بنيامين بن يونة التطيلي الأندلسي ت569هـ، وهو تاجر أخذ يتجول في بلدان المشرق الإسلامي وأوربا بدافع الاطلاع الشخصي على أحوال اليهود، ورحلته مدونة بالعبرية، ومترجمة إلى العربية. قام برحلته سنة 561هـ-569هـ/1165م-1173م حيث انطلق من طليطلة مرورا برشلونة وسواحل فرنسا ثم يتجول بعدها في سوريا ولبنان ودجلة والفرات وبيت المقدس، حيث يصف وضع اليهود تحت الاحتلال الصليبي، ويقدم معلومات عن اليهود، وأعدادهم وأحوالهم وأوضاعهم ومراكزهم العلمية والاجتماعية[2].

وبهذا كانت، الرحلات الأندلسية تصويرا حيا ودقيقا لحضارات الأمم الأخرى وثقافتها وما دونته من طريف الأخبار والحكايات، وعجائب المخلوقات وعادات الأمم وأخلاقهم وما فيها من فوائد تاريخية وجغرافية وعلمية وأدبية. ومن الرحلات الأندلسية التي كشفت عن حقائق لم يكشفها التاريخ، بل عُدّت من أبلغ الرحلات الأندلسية جغرافيا وتاريخيا واجتماعيا وحضاريا، الرحلة المنسوبة إلى ابن جبير بعنوان "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" التي ستكون محور بحثنا بالدراسة والتحليل.

6. أدب الرحلة

إن ثمار الرحلة لا يتوقف فقط على التعارف أو كشف المجهول بل هو يجود بمكاسب أدبية وعلمية، فبفضلها ظهر فن أدب الرحلة الذي يعد شكلا أدبيا تتداخل فيه الكثير من الأجناس الأدبية الأخرى "لذلك يصعب تحديد تعريف دقيق لهذا الفن المتشابك الذي يجمع بين

1- ينظر شوقي ضيف، الفن ومذاهبه، ص 529.
2- ينظر نوال شوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية، ص62.

الحوار والوصف والسرد وغيرها من الأساليب الفنية إضافة إلى تنوع مادته لذلك تنوعت تعريفاته. فأدب الرحلة هو ذلك النثر الأدبي الذي يتخذ من الرحلة " موضوعا أو بمعنى آخر هو الذي يُكتب في شكل أدبي نثري مميز وفي لغة خاصة، ومن خلال تصور بناء فني له ملامح وسمات المستقلة[1].

ففنُّ الرحلة يستطيع أن يكون فنّاً من فنون الأدب العربي لكن إذا كتب بأسلوب أدبي، وهذا ما أكده شوقي ضيف في كتابه الرحلات بقوله: "لا نبالغ إذا قلنا إن الرحلات من أهم فنون الأدب العربي لسبب بسيط، وهو أنها خير رد على التهمة التي اتهم بها الأدب، ونقصد تهمة قصوره في القصة"[2]، فجاء أدب الرحلات ردا على الغرب لاتهام فن القصة العربي بالنقص، فأدب الرحلة يزخر بالقصص الممتعة التي ترتقي بالأدب. أما ناصر عبد الرزاق الموافي فيرى بأنه: "ذلك النثر الذي يصف الرحلة أو الرحلات الواقعية، قام بها رحال متميز موازنا بين الذات والموضوع، من خلال مضمون وشكل مرنين بهدف التواصل مع القارئ والتأثير فيه"[3].

في حين يذهب أبو حامد الغزالي في كتابه "إحياء علوم الدين" أن الرحلة قائمة على السفر الحقيقي والمتخيل ثم نجده يقسم السفر قسمين فيقول: "فإن السفر وسيلة إلى الخلاص عن مهروب عنه أو الوصول إلى المطلوب ومرغوب فيه والسفر سفران سفر بظاهر البدن عن المستقر والوطن إلى الصحاري والفلوات وسفر يسير القلب عن أسفل السافلين إلى ملكوت السماوات وأشرف السفرين السفر الباطن..."[4]وفنُّ الرحلة ليس بالشكل الأدبي الذي تكتب به بل بالمادة التي تحفل بها فهي تحمل سمة أدبية وقيمة فنية: "فأدب الرحلة أو الحاضرة السياحية تكتسب أهميتها ليس من خلال الشكل الفني الذي يخبره هذا الجيل الأدبي أو ذاك، بل من خلال مادتها التي تفرزها طبيعة الرحلات بما تنطوي عليه من إثارة وجمالية"[5].فأدب الرحلة بقالبه الفني الذي يحتفي به جعله فنا مميزا عن غيره من الفنون بالإضافة إلى دوره في حفظ التراث العربي الذي زخر به في العصور الوسطى.

1- ينظر سيد حامد النساج، مشوار كتب الرحلة (قديما وحديثا)، ص5.
2- شوقي ضيف، الرحلات، ص2.
3- ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن 4هـ، ص41
4- أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، جامعة القاهرة، دط،دت، ص244.
5- جعفر الدجيلي، موسوعة النجف الأشرف، دار الأضواء-بيروت، 1414هـ -1993م، الجزء الرابع، ص14.

فبطرس البستاني يَرْبطها بـ"انتقال واحد أو جماعة من مكان إلى مكان آخر، لمقاصد مختلفة وأسباب متعددة"[1] وقد وافقه عبد الحكيم عبد اللطيف الصعيدي بقوله: " أن الرحلة تعني الانتقال من مكان إلى آخر لتحقيق هدف معين، ماديا كان ذلك الهدف أو معنويا"[2]. وهناك من يربطها بالحركة وهي جوهرها ومكون أصيل من مكونات الإنسان " ففن الرحلة قديم في الأدب العربي عبر من خلاله وفي قالبه الأديب العربي عما أحس به وهو يجوب الأفاق مكتشفا أو متعلما، وتوسل إلى التعبير عن ذلك تارة بالشعر وأخرى بالنثر..."[3]، لذلك فالأسلوب أدبي الراقي الذي كتبت به الرحلة هو الذي صنع لها مكانة أدبية. فحسني محمود حسين فيقول عن أدب الرحالة "أن كتاباتهم يغلب عليها الطابع القصصي يستندون إلى الواقع أحيانا ويجنحون إلى الخيال أحيانا أخرى يحفلون فيه بالقصص للمتعة التي تسمو به إلى مرتبة الأدب الفني الصرف في أغلب الأحيان"[4]ولهذا صُنِّفَ مضمون الرحلة من الفنون الأدبية، وذلك لما تَحْفُوا به مادته من أسلوب أدبي راقٍ وما تجود به من جمال البلاغة والفصاحة.

1- بطرس البستاني، دائرة المعارف، مطبعة المعارف-بيروت، دط، 1884، ص524. نقلا عن كتاب الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن 4هـ، ص25

2- عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي، الرحلة في الإسلام أنواعها وآدابها، ص10.

3- حسن الشاهدي، أدب الرحلة في المغرب في العصر المريني، ص47

4- حسني محمود حسن، أدب الرحلة عند العرب، ص15.

الفصل الأول: مسار الرحلة

- ✓ السيرة الذاتية لابن جبير
- ✓ رحلاته
- ✓ حالة المغرب والمشرق الإسلامي
- ✓ زمن الرحلة
- ✓ مسار الرحلة

تمهيد:

شكلت الأندلس في العصر الموحدي خاصة مركز استقطاب فكري ضمَّ "نخبة من أعظم فلاسفتها ومتصوفيها وكبار شعرائها مثل رصافي البلنسي، ومحي الدين ابن عربي، وابن طفيل...ناهيك عن واحد من أكبر الرحالة المسلمين ألا وهو ابن جبير"[1]. وهو الشخصية التي ستشكل موضوع بحثنا باعتبارها شخصية الرحالة المشهور في الدوائر العلمية الأوربية منها والعربية، والملاحظ أن لحياة ابن جبير دورين متميزين: دور إقامته في بلده، ودور رحلاته وتغربه، ورغم أن الدور الثاني يغطي الدور الأول من حيث التجارب والنشاط العلمي إلا أنه لا يفوقه من حيث التأثير العميق في تكوين ابن جبير النفسي والعلمي والديني، ولولا الدور الأول وما امتاز به من إعداد وتجارب ما تمكن من مواجهة الدور الثاني وتحدياته ومصاعبه بقدر كبير من الاستعداد والقدرة.

1- حياة ابن جبير:

أ- اسمه وكنيته ولقبه:

هو أحمد بن جبير بن محمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن سعيد بن محمد بن مروان بن عبد السلام بن جبير الكناني"[2]، من ولد ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان،بلنسي الأصل."سكن شاطبة، وغرناطي الاستيطان وعاد إلى غرناطة*، أما جده الأعلى الداخل إلى الأندلس عبد السلام بن جبير في طالعة بلج بن بشير بن عياض القشيري في محرم ثلاث وعشرين ومائة وكان نزوله بكورة شذونة."[3]

1- محمد جابر الأنصاري، التفاعل الثقافي بين المغرب والمشرق في آثار ابن سعيد المغربي ورحلاته المشرقية وتحولات عصره، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1992، ص13.
2- محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصل والصلة، تحقيق محمد بن شرينة، دار الثقافة- بيروت، ج1، ص79.
*- غرناطة: هي عاصمة مقاطعة غرناطة الواقعة في منطقة الأندلس جنوب دولة إسبانيا وكانت عاصمة للدولة الإسلامية.
3- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، ص 641.

أما عن تاريخ ولادته فقد "ولد في الربيع الأول سنة أربعين وخمسمائة للهجرة (540هـ)الموافق لسبتمبر خمسة وأربعون ومائة وألف ميلادي(1145م)، وأصل قومه من شاطبة"[1]، ولكنه ولد في بلنسية".[2]

وقد اختلف المؤرخون في سنة مولده "فقد جعلها عواطف يوسف نواب في سنة تسعة وثلاثون وخمسمائة (539هـ)[3]، بينما جعلها المقري ليلة السبت عاشر ربيع الأول سنة أربعين وخمسمائة للهجرة(540هـ)[4]، وأجمع المؤرخون على أن ولادته كانت ببلنسية على مصب نهر الوادي الكبير في البحر الأبيض المتوسط.

لكن ذهب بعض المؤرخين أنه ولد بشاطبة منهم حسين مؤنس في كتابه "الجغرافية والجغرافيين في الأندلس"وأحمد رمضان أحمد في كتابه "الرحلة والرحالة المسلمون" وغيرهما من الدارسين الذين اختلفوا في مكان الولادة بين بلسنية*وشاطبة*.

وقد نزل أبوه أبو جعفر شاطبة وكان من كتابها ورؤسائها[5]، ولا تذكر المصادر عن كيفية انتقال هذه الأسرة من شذونة* إلى شاطبة في شرقي إسبانيا.

ب- علمه ومكانته:

احتل ابن جبير مكانة علمية مرموقة أهلته أن يكون كاتب أمير غرناطة في ذلك الوقت، حيث ينتمي هو وأبوه إلى طبقة الكتاب والأدباء من رجال الدواوين المثقفين، وهم تلك المجموعة التي لعبت دورا كبيرا في تطوير الأدب العربي[6]. وشخصية والده هي التي صقلت ثقافة ابن جبير، الذي نشأ في كنف أبيه وأعده لتقلد المناصب، فتلقى العلم عن أبيه وعلماء عصره بشاطبة وغذي

1- آنخل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسن مؤنس، مكتبة الثقافة-القاهرة، دط، دت، ص316.
2- م.ق.مينورسكي، الجغرافيون والرحالة المسلمون، ترجمة عبد الرحمن حميدة، دار الفكر-دمشق، دط، 1985، ص20.
3- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين 7 و8م، ص 87.
4- أحمد بن محمد التلمساني المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، الجزء الثالث، ص 12.
*بلنسة: منطقة تقع شرق إسبانا وهي منطقة مقسمة إلى مناطق.
*شاطبة: هي مدينة إسبانية تقع في مقاطعة بلنسة في حوض نهر ....شرقي إسبانيا
5- ينظر شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، نصر-القاهرة، الجزء الثالث، دط، دت، ص94.
*شذونة: هي إحدى مدن مقاطعة قادسة، التي تقع في منطقة الأندلس جنوب إسبانيا.
6- ينظر أغناطيوس يوليا نوفتش كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص299.

بالأدب فبرع فيه[1]. واهتم الوالد بابنه وأراد أن يسوغه على مثله، فكان أول أستاذ له دفع به إلى المعلمين المحترفين، كما شُغف الولد بالعلم فلما بلغ محمد السن التي تمكنه من الاستقلال بحياته والاضطلاع بأعبائها احترف مهنة الكتابة[2]، كما برع في صناعة القريض،"وكان شاعرا مكثرا على شعره وكان له أيضا مدح في صلاح الدين الأيوبي، على أن شهرته إنما هي في رحلته المشهورة"[3].

وكان فضل والده عليه كبير في تكوين شخصيته وتوجيهه للعلم النافع والأدب الرصين. ومن ثم سعى ابن جبير إلى تلقي العلم في كل مكان حط به، "وتنقل ابن جبير في مطلع حياته في عدة مدن أندلسية وافريقية، فقطن ببلسنية وشاطبة وغرناطة وسبتة وفاس وتقلد المناصب الكتابية"[4]، وقد عرف عنه أنه "كان شاعرا مجيدا عالما بليغا ذا أدب كثير وفضل شهير، له قصائد مُسمّطة، ورسائل مُدونة، وشعر فصيح، وترسل مليح، وموشحات بارعة وكتابة رائعة"[5].وقد تناقل الناس قصائده وأعجبوا بشعره وببراعة نثره، الذي يفيض بالحكمة والجمال، فذاع صيته حتى عُرف في غرناطة، وسمع به حاكمها أبو عثمان سعيد بن عبد المؤمن، فأمر بأن يَنْظَمَّ إلى كُتاب ديوانه.

فكان" أحد كتاب الدولة الموحدية لحاكم الأندلس والمغرب، فتمتع بمكانة عالية لديهم وجمع ابن جبير لسعة علمه وقدرته على نظم الشعر والنثر"[6]. بين براعته في النثر وجمال الشعر، وهذا ما مكنه أن ينال مكانة كاتب الدولة الموحدية.كما نهل العلوم من أفواه العديد من العلماء الذين التقى بهم في الأندلس، واستوسق علما وفضلا من خلال لقائه بهم في رحلاته ووسع مجال معارفه وأصبح عالما جليلا وأديبا بارعا "...فكان يرحل من الأندلس إلى المشرق يتزود بالزاد الدسم من الثقافة والعلم والأدب ويرجع إلى بلاده حاملا نفائس المؤلفات وراويا بدائع الأشعار ومسجلا ضوابط اللغة والعلوم."[7]

1- ينظر عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين 7 و8م، ص98.
2- رحاب حضر عكاوي، موسوعة عباقرة الإسلام في الطب والجغرافية والتاريخ والفلسفة، دار الفكر العربي- بيروت، ط1، 1993، الجزء الثاني، ص164.
3- عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين- بيروت، ط1، 1982، ص 608-609.
4- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين 7 و8م، ص98
5- محمد بن شريفة، تراجم مغربية من مصادر مشرقية، مطبعة النجاح-الدار البيضاء، ط1، 1982، ص112.
6- عواطف يوسف نواب، المرجع السابق، ص98.
7- محمد رجب البيومي، الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثر، د.ط، سنة 1980، ص28.

ومن العلوم التي اهتم ابن جبير بدراستها العلوم الأدبية "فأخذ العربية عن ابن يسعون وسمع شاطبة عن أبيه- أبي جعفر- وأبي عبد الله الأصيل وأبي الحسن بن أبي العيش وأجاز له أبو الوليد ابن الدباغ وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى التميمي والسبتي".[1]

أما في رحلاته اهتم بنقل وسماع العلوم من العلماء الذين التقى بهم "ومن أشياخه في الرحلتين إسحاق بن إبراهيم الغساني التونسي سمع عليه كثيرا بمكة شرفها الله تعالى وضياء الدين أبو أحمد عبد الوهاب بن علي المعروف بابن سكينة"[2]، كما تنقل إلى مكة وسمع من علمائها منهم "أبي الحفص الميانشي ولقي بدمشق أبا الطاهر الخشوعي، فأخذ عنه مقامات الحريري بين قراءة وسماع، وأجاز له أبو محمد عبد اللطيف الخجندي رئيس الشافعية بأصبهان وأبو أحمد عبد الوهاب ابن علي الصوفي وأبو محمد بن عساكر وأبو إبراهيم إسحاق ابن إبراهيم التونسي المجاور بمكة وأبو جعفر بن علي القرطبي"[3].

وعُرِفَتْ بغداد بالعلم والمجالس العلمية فتنقل ابن جبير إليها وتأثر بعلمائها ومنهم "العالم الحافظ أبو الفرج وكناه أبو الفضل ابن الجوزي وغيرهم من العلماء"[4]، وجالس ابن جبير الكثير من العلماء، وارتقى بعلمه وأدبه ودينه حيث بلغ مكانة عالية لمجالسة علماء المشرق وغيرهم بالإضافة إلى كونه كاتبا أمير غرناطة المرموق، بفضل ما تمتع به من جمال النظم سواء كان شعرا أو نثرا، وإن كانت شهرته النثرية أغلب عليه وتدل عليها رحلته المدونة والشاهدة على دقته وبراعته[5].

فابن جبير اغتنم فرصة رحلته للقاء العلماء وتزود بمختلف العلوم الأدبية والدينية رغم أنه لم يذكر الكثير من العلماء الذين أخذ منهم في رحلته.

1- شكيب أرسلان، الحلل السندسية، ج3، ص111.
2- أحمد بن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من أعلام مدينة فاس، دار المنصور-الرباط، 1973، ص277.
3- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة،ج2، ص 646.
4- المرجع نفسه، ص 646.
5- ينظر عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين 7 و8م، ص100.

ج- صفاته:

إن الصفات التي تميز بها الرحالة ابن جبير هي التي دفعته للقيام برحلته إلى مكة للتكفير عن ذنوبه، وجعلته شخصا متميزا وتظهر هذه الخصال من خلال مواقفه التي تكشف عن شخصيته المتدينة فهو "من علماء الأندلس في الفقه والحديث والآداب[1]"، وقال عنه لسان الدين ابن الخطيب "أنه كان أديبا بارعا، شاعرا مجيدا، نسيا فاضلا، نزيه الهمة، سري النفس، كريم الأخلاق، أنيق الطريقة[2]"، ومحاسنه عديدة وأخلاقه حسنة فهو مشهور بالخير والصلاح، أهلته صفاته لتقلد أرفع المناصب في الدولة، وهو الكتابة"[3]. وتظهر أخلاقه وصفاته من خلال رحلته التي وصلتنا فهو يتميز بعاطفة دينية قوية، ويختم كل كلامه بالدعاء إلى الله تعالى والتوكل عليه جل جلاله، كما أنه كان رجلا متواضعا ذا مروءة رغم تقلده منصب رفيع في الدولة الموحدية إلا أنه "في رحلاته الثلاث لا يريد أن يعامل معاملة خاصة بل رغب أن يعامل معاملة الناس العاديين في البلاد التي يزورها"[4]، وهذا يدل على أنه يتمتع بأخلاق عالية لأنه لم يستغل منصبه ولا نفوذه لكي يعامل معاملة خاصة، كما أنه في كتابته لم يتحدث فقط عن الحكام الذين فاضت كتب الحوليات بتناولهم تناولا مفصلا بل اهتم أيضا بالبشر العاديين وبحياتهم[5]. وهذا دليل على أنه لم يكن يسعى من خلال كتاباته لنيل النفوذ والمناصب بل كان غرضه الإفادة من كل ما لقاه أو لفت انتباهه وهذا يدل كذلك على نبله وعظمته.

وابن جبير ذو عاطفة دينية، ومشاعر إسلامية واضحة بصورة لا تتكرر، حيث انعكست أخلاقه الدينية على أفكاره وأفعاله وكتاباته، وهذا ما يظهر في رحلته وفي آثاره الشعرية والنثرية فكلها مصبوغة بالأخلاق الرفيعة وبالتدين.

د- نماذج من شعره ونثره:

يتمتع ابن جبير بأسلوب أدبي راقٍ ويظهر هذا من خلال آثاره الأدبية فهو يعد أديبا بارعا، وشاعرا محسنا، وكاتبا بليغا وهذا ما يظهر عندما توجه إلى المشرق جرت بينه وبين طائفة

1- أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، الجزء الثالث، ص13.
2- لسان الدين ابن الخطيب، المرجع السابق، ج2، ص 646.
3- ينظر عواطف ابن يوسف نواب، المرجع السابق، ص 99.
4- سيد حامد النساج، مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، ص21.
5- ينظر محمد مؤنس عوض، رحاب الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى-القاهرة، دط، 2011، ص221.

من أدباء عصره مخاطبات ظهرت فيها براعته وإجادته، ونظمه الفائق، ونثره البديع، وكلامه المرسل، سهل حسن، وأغراضه جليلة...[1] لذلك اخترت بعض النماذج من شعره ونثره التي وُجدت في كُتب متناثرة ومن قوله:

لا تَكْتَرِث لِمُلِمَّةٍ واصْبر وفي الله العـــوضْ

وإذا سلِمتَ فلا يكنْ لكَ في حُطامِكَ من غرضْ

فالنفسُ عِنْدي جوهـــــرٌ والمالُ عندي كالعـــــرضْ[2]

وقال أيضا:

هنيئاً لمن حجَّ بَيْت الهُدَا وحطَّ عنِ النَّفسِ أوزَارَهـــا

وإنَّ السعادةَ مضمُونـــةٌ لِمَنْ حجَّ طِيبـةَ أَوزارهـــاَ[3]

وقال أيضا:

إذا بلغَ المرءُ أرضَ الحجازِ فقـدْ نالَ أفضَلَ ما أمَـــلَهُ

وإنْ زارَ قبر نبيِّ الهـُـدَا فقدْ أَكْمَل الله ما أَمَلَهُ[4]

وقالوا: المشيـــبُ وقـــــارُ الفـــتىَ وهذا المشيبُ، فأين الوقارُ

جَلاَ صُبحهُ عنكَ ليلَ الشبابِ فشمسُكَ مؤذنةٌ باصفرارْ

أراكَ صَحِبتَ حيـــــاةَ الغرورِ وتسحَبُ جهلاً ذُيولاً اغترارْ[5]

1- ينظر لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، ص642.
2- عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، كتاب الذيل والتكملة، السفر الأول، ص80
3- عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، كتاب الذيل والتكملة، السفر الأول ، ص80.
4- أحمد بن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، ص279
5- محمد بن شريف، تراجم مغربية من مصادر شرقية، ص114.

وله قصيدتان مشهورتان يمدح فيها صلاح الدين الأيوبي، منها:

أطلّتْ على أُفقكَ الزاهـــرُ سعُودُ من الفُلكِ الدائرِ

وقفتَ مغارِمَ مكسِ الحجازِ بإنعاَمِكَ الشاملِ الغامِرِ

وأمَّنتَ أكتــافَ تلكَ البلادِ فهانَ السبيلُ على العابِرِ[1]

وله أشعار كثيرة يصف فيها المدن التي زارها،"كما تعددت موضوعات شعره بين الحكم، المدح، الرثاء، والتحذير من الغرور بالدنيا على نفحة من الزهد والتصوف"[2].فأشعاره تناولت الأغراض القديمة كذلك الأغراض التي ظهرت في العصر العباسي كالزهد.

ومن نثره:ما كتبه إلى الشام متشوقا شيخ الشيوخ ابن حموية جواب كتاب صدر منه إليه "صدرة المخاطبة العزيزة العلائية حرس الله سناءه وسناه، ويسر له كل أمل وسناه، وعرفه بعد طول العمر حسن خواتم مسعاه بما يصدر عن مثله، ويضيق بفضله، والفضل لا ينكر على أهله، وعلم الله أني إليه بالأشواق، وكيف لا ومن ذاق طيب شيمه الكريمة لم يشبع من ذواق، وحصل من محبته ويبقيه، ومن كل مكروه يقيه، وإلى كل معلوة يرقيه"[3]

وعُرف عن ابن جبير أنه يتمتع بعقل راجح، وفكر نير، ونظرة شاملة، وتحليله للأمور، فامتاز بحكمه المختلفة منها قوله:"إن شرف الإنسان شرف وإحسان، وإن فاق فتفضل وإرفاق، ينبغي أن يحفظ الإنسان لسانه، كما يحفظ الجفن إنسانه، فرب كلمة تقال، تحدث عثرة لا تقال، ...نحن في زمن لا يحظى فيه بنفاق إلا من عامل بنفاق...آثر الدنيا هي أضغاث أحلام، وكم هفت في حبها من أحلام، أطالوا فيها آمالهم وقصروا أعمالهم، ما بالهم...تالله لو كشفت الأسرار بما كان هذا الإصرار، ولسهرت (العيون)، وتفجرت من شؤونها (الجفون)، فلو أن عين البصيرة من سننها هابة..."[4]فابن جبير له في الجانب الشعري كما له في النثر لكن صيته ذاع في فن الرحلة.

1- أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب، ج3، ص13.
2- اميل بديع يعقوب، موسوعة الأدب والأدباء العرب في روائهم العصر الأندلسي، بيروت، ط1، 2006، ص47.
3- محمد بن شريفة، تراجم مغربية من مصادر مشرقية، ص115.
4- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، ص 656.

وفاته:

"توفي رحمه الله بالإسكندرية ليلة الأربعاء التاسع والعشرين لشعبان سنة أربعة عشر وستمائة للهجرة(614هـ) الموافق ل سبعة عشر ومائتين وألف ميلادي(1217م) وقد بلغ من العمر أربعة وسبعين عاما".[1]

هـ- **آثاره:** ومن آثاره النثرية والشعرية التي وصلتنا:

- رحلة ابن جبير أو "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار".
- مجموع شعري سماه "نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح" وقد أودعه ابن جبير قطعا وقصائد في مراثي زوجته أم المجد التي تزيد أبياتها على ثلاثمائة"[2].
- مجموع آخر وصفه ابن عبد الملك في كتابه الذيل والتكملة بأنه "مجلد متوسط يكون في قدر ديوان أبي تمام حبيب بن أوس".[3]
- نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان"وهو جزء شعري ذكر ابن عبد الملك أنه يشتمل على أزيد من مائتي بيت في قطع، وله سبعة وأربعون وستمائة ترسيل بديع وحكيم مستجادة"[4].
- مقالة رسالة "اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك" يقال أن الرحلة انتهت بهذه العبارة لذلك سميت بهذا الاسم، أما ابن عبد الملك فقال أنه كتب رسالة بهذا الاسم إلى شخص من أهل فاس.

وتبقى رحلته المسماة " تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" من آثاره الأدبية التي بها ذاع صيته، وأكسبه شهرة عالمية.

1- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، ص 646.
2- جابر الجيلي، موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، دار الجيل-بيروت، ط1، مجلد الخامس، 2005، ص123.
3- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، ص646.
4- شوقي أبو خليل، الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، دار الفكر المعاصر-بيروت، ط1، 1994، ص 496-497.

2-رحلاته:

شهد العالم الإسلامي في العصور الوسطى الكثير من الرحلات ومن أهمها : رحلة ابن جبير حيث" قام بها في أواخر القرن السادس للهجرة بثلاث رحلات"[1]، وتعتبر ضمن الرحلات الحجازية التي دونها الحجاج العلماء، وسجلوا فيها انطباعاتهم عن الديار المقدسة، وما شاهدوا فيها من مواقع، وبقاع وآثار، وما كان لهم فيها من اتصالات برجال العلم والأدب، ما ارتسم وعلق في عقولهم من أحوال الحياة والتعريف بكل مراحل الطريق، والحديث عن المدن التي مروا بها أو نزلوا بها...[2].وفي رحلاته الثلاث حَجَّ فيها إلى بيت الله الحرام، "لكنه لا يعود بعد أداء فريضة مباشرة إلى مدينة غرناطة بل يؤثر خطاه متشوقا لتعرف بعض البلاد العربية والإسلامية حيث حظيت رحلاته باهتمام المؤرخين والعلماء مع أنه لم يدون غير رحلته الأولى فقط".[3] إذ ليس بين أيدينا معلومات عن رحلتيْه الأخيرتيْن إلا نزر يسير المبعثر في طيات الكتب المترجمة.

أ- سبب رحلته الأولى:

إن لكل رحلة أسباب أو بواعث للقيام بها، وسبب قيام ابن جبير بهذه الرحلة أنه كان من "رجال الديوان في غرناطة، وكان كاتبا لأبي سعيد بن عبد المؤمن الموحدي والي غرناطة، فكان دائم الحضور في مجالسه، حتى مجلس شرابه، وكان حاكم غرناطة كثيرا ما يطلب إليه مشاركتهم فيأتي أبو الحسن وتنقبض روحه وقد فطره الله على التقوى وأدبه أبوه فأحسن أدبه...وكان أبو الحسن يحرص في كل مرة على الخلاص من صحبه الشاربين ومجلسهم الذي يخرج بهم عن الوقار، وفي إحدى المرات طلب إليه الحاكم أن يشرب معهم، فاعتذر ابن جبير فأقسم الأمير ليشرب أبو الحسن سبعة كؤوس، فاضطرب ابن جبير أن يشرب كأساً بعد كأس، وسُرَّ الأمير وأخذ يقهقه معبرا عن فرحه بسلطته وسعادته بطاعة الجميع وإذعانهم له، خاصة الفقيه الكبير ابن جبير الذي كان قد بلغ أعلى درجات السخط، حتى أدرك الأمير ذلك، وأراد أن يطيب خاطره فملأ له الكأس التي يشرب فيها بالدنانير الذهبية وأفرغها في حجره ثم ملأها ثانية وثالثة حتى السابعة بعدد الكؤوس التي تجرعها مرغما".[4] ورغم ذلك ظل ابن جبير يؤنبه ضميره لشربه الخمر "فخامرته فكرة

1- جورجي زيدان، تاريخ الأدب العربي، دار الهلال-مصر، دط، 1798، ص94.
2- ينظر محمد بن أحمد الحضيكي السوسي، الرحلة الحجازية، الرباط-المغرب، ط1، 2011، ص 10.
3- فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، ص 384.
4- المرجع نفسه ، ص 384-385.

يكفر بها عن ذنبه وقرر أن ينفق تلك الدنانير على رحلة الحج إلى بيت الله الحرام، ثم رغب إلى سيده، وأعلمه أنه حلف بأيمان لا خروج له إلى أن يحج تلك السنة، فأسعفه وباع ملكا له تزود به، وأنفق تلك الدنانير في سبيل البر".[1]

إنّ هذه الرواية تدل على أن رحلته كان سببها دينياّ لأن ابن جبير يتمتع بشخصية تقية وملتزمة، لذلك "تحرك لنيته الحجازية في شوال سنة سبعة وثمانون وخمسمائة للهجرة(578هـ)"[2]التي انتهت بمحرم سنة واحد وثمانون وخمسمائة للهجرة(581هـ)[3]. "ورافقه صديقه أبو جعفر أحمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن القضاعي وأصله من أندة من بلنسية، رحل معه فأديا الفريضة، وكان أبو جعفر هذا متحققا بعلم الطب، وله فيه تقييد مفيد مع المشاركة الكاملة في فنون العلم".[4]

لهذا كانت رحلته من الرحلات الحجازية من بلاد الأندلس إلى المشرق بغرض أداء مناسك الحج.

ب- **سبب الرحلة الثانية:**

أبدى ابن جبير من خلال رحلته الأولى إعجابا بصلاح الدين الأيوبي، وكان يتابع أخباره ويرصد إنجازاته باهتمام، وعندما بلغ نبأ انتصاره في معركته وشاع الخبر المبهج بفتح بيت المقدس، قوت عزيمته على الرحلة الثانية، ورغب في زيارة المشرق من أجل أن يشاهد المناطق الإسلامية بعد أن تم تحريرها من قبضة الغزاة الصليبيين فارتحل عام ثلاثة وثمانين وخمسمائة للهجرة(583هـ) وأدى مناسك الحج وعاد عام خمسة وثمانون وخمسمائة للهجرة(585هـ) ودامت سنتين[5].

إذن رحلته إلى المشرق كانت إعجابا بالمناطق الإسلامية خاصة بعد تحريرها من يد الصليبيين.

1- أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب، ص15.
2- شكيب أرسلان، الحلل السندسية، ص 111
3- جورجي زيدان، تاريخ الأدب العربي، ص 94.
4- أحمد بن محمد المقري التلمساني، المرجع السابق، ص13.
5- ينظر محمد مؤنس عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، ص384.

ج- سبب الرحلة الثالثة:

قام بها عندما توفيت زوجته عاتكة أم المجد، فقد حزن عليها حزنا شديدا حتى أنه لم يجد العزاء عنها والشفاء منه لوعة فراقها إلا بأداء فريضة الحج، فرحل رحلته الثالثة في سنة أربعة عشر وست مائة للهجرة (614هـ). "كان يحدث ويروي بغرناطة وعظم بها قدره...ثم انتقل إلى مدينة فاس وباع أملاكه وانفصل بجملته فمات أهله وولده بفاس، فرجع ثالثة إلى المشرق فسكن مكة شرفها الله تعالى ثم انتقل إلى المقدس وبقي يتردد بين الحرمين والإسكندرية، وفي ذلك يزداد فضلا وورعا وعلما يقربه إلى الله تعالى، فزاد تواضعه وخيره إلى أن مات بالإسكندرية رحمه الله تعالى."[1]

د- منهجه في تدوين رحلته "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار":

اختلف الرحالة في منهج تدوين رحلاتهم حيث " إن الأندلسيين والمغاربة كانوا يشعرون بدافع شديد ينزغ بهم إلى كتابة ذكرياتهم وتسجيل ما يختلج بأنفسهم عن رحلتهم إلى الشرق بقصد العلم وأداء فريضة الحج"[2]. أما منهج ابن جبير في تدوين رحلته فقد كان مختلفا، فقد سجل مشاهداته في أوراق منفصلة على شكل يوميات وفق مراحل رحلته، يستخدم فيها دائما التاريخين القمري مع السنة الهجرية مع وصف لكل بلد أو جزيرة (تاريخ الزيارة أو المشاهدة باليوم والشهر والسنة)، وبعد عودته اطلع تلاميذه على هذه الأوراق، فعكفوا عليها يجمعونها وأغلب الظن أنها لم تنشر إلا بعد وفاته. إن ابن جبير لم يكن ينوي نشر هذه الرحلة ولم يتوقع لها هذا الذيوع وإلا كان وضعها في كتاب متسلسل مطرد، فقد سجلها على شكل مذكرات ليضع شبه تقرير يرفعه إلى سيده أبي سعيد ليطلعه بعد العودة على مشاهداته في بلاد المسلمين والديار المقدسة وانطباعاته عن أهلها خلال فترة غيابه واهتم بجميع الجوانب الاجتماعية والعقائدية والاقتصادية[3].

وقد دوّن ابن جبير رحلته في"شكل يوميات بلغة سهلة بسيطة، عباراتها مفصلة، تحمل معان لا ثرثرة فيها ولا استطرادات أو تكرار وطريقته في السرد محببة إلى النفس، تتسم عباراته بجمال التركيب وحلاوة البيان، وهو يجيد صناعة السجع"[4].

1- أحمد بن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، ص277.
2- محمد منوني، حضارة الموحدين، الدار البيضاء-المغرب، ط1، 1989، ص54.
3- ينظر حسن محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، ص 20
4- فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، ص 389.

لكن من الملاحظ أن منهجه في التدوين كان متميزاً بدقة الملاحظة العالية، وصدق في التعبير الذي جعل رحلته تعرف شهرة واسعة، وجاء أسلوبه أيضا في رحلته "بنثر رصين، جزل الألفاظ، سهل التركيب، بارع السبك، موجز بليغ يصدر عن شعور بما يرى ويتأثر به، والجانب القصصي في رحلته بارع جدا كما أن طريقته تعبر عنه"[1].

هذا كله، جعل من رحلته مصدرا موثوقاً يعتمد عليه الباحثون في إثراء عِدّة علوم كعلم الاجتماع والجغرافيا وغيرها من العلوم.

❖ عنوان الرحلة:

اختلف المؤرخون في تحديد العنوان الصائب لرحلة ابن جبير، وهذا ما أثار شكوكهم حول ذلك "فقد جعلها جاجي خليفة في كتابه " كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، باسم " رحلة الكناني". ويقول كراتشوفسكي في كتابه "تاريخ الأدب الجغرافي العربي" أن هذا الاسم الأخير نسبة إلى القبيلة التي ينتسب إليها، وهناك من يرجح عنوانا آخر هو "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار"، لذي ابتدأ به المخطوط وهناك من يعتبر أن عنوانها "كتاب اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك" وهو التسمية التي انتهت به المخطوط. ونظرا لهذه الشكوك من تلك التسميات رأى ويليام ورايت وكذا حسين نصار أن الاسم الأسلم والأعرف هو "رحلة ابن جبير[2].

❖ تحقيق الرحلة:

نظرا لأهمية رحلة ابن جبير وما احتوته من فوائد ومعرفة يحرص عليها كل مؤرخ أو جغرافي أو أديب"مما يدل على اهتمام العرب والمستشرقين بتحقيقها ونشرها عدة مرات، ورغم ذيوع صيته فإن الدوائر العلمية الأوروبية لم تعرف إلى الآن سوى مخطوطة وحيدة لرحلة موجودة بلندن ويرجع تاريخها إلى عام خمسة وسبعون وثمان مائة(875هـ)، وقبل التعرف عليها وُجِدَتْ عن ابن جبير معلومات مهملة متناثرة في مصادرة أخرى، وقد أصبحتْ الرحلة معروفة بفضل الطبعة الجزئية لدوزي (dozy) وأماري (Amari)، كما حققها روبرتسون سميث (Robertson

1- عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ص608.
2- ينظر كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص300.

Smith) وهو أمر مفهوم بالنسبة لأهمية مادته عن صقلية بالذات"[1]، فقد اهتم ابن جبير في رحلته بهذه الجزيرة فهو "من بين الرحالة الذين سحرتهم بالورمو فقد زارها عام خمسة وثمانون ومائة وألف(1185م) فبهرته وترك لنا في رحلته وصفا دقيقا عن صقلية وبالرمور والقصر الملكي"[2]. كما اهتم ابن جبير بالجانب الحضاري لهذه الجزيرة فقد اهتم بذكر "سياسة ملوك النورمان الذين كانوا يتسمون بالمسالمة مع المسلمين"[3].

ولذلك اهتم المستشرقون بتحقيقها وإعادة طبعها، فلم تلبث الرحلة أن أصبحت في متناول الأيدي "بفضل الطبعة التي نشرها المستشرق البريطاني "ويليام رايت" (William Wright)سنة 1852م، ثم راجعها بعد ذلك وطبعها الهولندي دي غوية(De Geoye)سنة 1907م، كما ترجمها إلى الإيطالية اسكاربلي(Sckiarelle)"[4]، فالمعلومات التي قدمها ابن جبير في رحلته لم تهم فقط العرب والمسلمين بل حتى العلماء الغرب لأهمية مادته خاصة فيما يتعلق بعلم الجغرافيا، كذلك اتهم بها الباحث الذي يسعى لمعرفة تاريخ العالم الإسلامي في العصور الوسطى خاصة في ظل الخروب الصليبية آنذاك والعلاقة التي كانت قائمة بين الشرق والغرب.

3- حالة المغرب والمشرق الإسلامي زمن الرحلة:

قبل التطرق للرحلة ودراسة المظاهر الحضارية الوارد ذكرها فيها، ينبغي أن ندرك حالة المغرب الإسلامي بما في ذلك الأندلس والمشرق الإسلامي وحالة السياسة زمن الرحلة التي كان لها تأثير كبير على مجريات الرحالة.وقد كان الموحدون يسيطرون على الأندلس في هذه الفترة لما عجز المرابطون بالأندلس عن حماية البلاد من العدوان الإسبان"[5]،وبذلك عرفت الأندلس اضطرابا سياسيا في تلك الفترة، فالموحدون ينتمون إلى طائفة من قبائل العرب المغاربة خاصة هرقة ومصمودة وهنتانة وكومية التي تقطن منطقة السوس جنوب المغرب، ودعت هذه القبائل الناس إلى العودة إلى الأصول والتمسك بالقرآن والسنة ونشأت دولتهم على أسس دينية[6].

1- أغناطيوس يوليا كراشتوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص300.
2- زيغريد هونيكا، شمس العرب تسطع على الغرب، تحقيق فؤاد حنين علي، دار البعث-قسنطينة، دط، 1984، ص325.
3- بشير رمضان التبليسي، جمال هشام، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، بنغازي-ليبيا، ط2، 2001، ص352.
4- حسان حلاق، مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة، دار النهضة-بيروت، ط1، 1996، ص21.
5- ينظر يحيى بوعزيز،موجز تاريخ الجزائر، دار البصائر، الجزء1، 2009، ص171.
6- ينظر محمد الهادي القرقوطي، جهاد الموحدين في بلد الأندلس، دار هومة، 1233م، ص29.

وقد امتدت بلاد الأندلس جغرافيا"من المحيط الأطلسي غربا إلى طرابلس شرقا، ومن بلاد الأندلس شمالا حتى الصحراء الكبرى جنوبا، وقد أخذت هذه الدولة على عاتقها مسؤولية الجهاد في الأندلس وبالرغم من أن الأندلس لم تكن في ظل الدولة الموحدية، سوى قطرا من أقطارها العديدة يتبع المغرب وحكومة مراكش حاضرة الدولة الرئيسية فإنها لبثت محتفظة بأهميتها السياسية والعسكرية واستقلالها المعنوي والحضاري"[1].وشهد العالم الإسلامي تقلبات سياسية وتفككاً إلى دويلات، "فيعد والي غرناطة أبو سعيد وهو ابن الخليفة عبد المؤمن الذي كان ابن جبير كاتبا له في الديوان، من بين المشاركين الذين حاربوا الاسبان وحرر مدينة المرية الأندلسية التي سيطروا عليها. وقد أشار ابن جبير إلى حالة الأندلس في ظل حكم الموحدين "التي ظلت قبضة الموحدين مقلقلة ما يقرب من قرن على تلك الأجزاء من شبه الجزيرة التي كانت تتبع العالم الإسلامي"[2]. فبالرغم من عدم استقرار الدولة الموحدية نظرا لتهديد العدوان الصليبي والفتن الداخلية لكنها شجعت الحركة العلمية وحافظت على عطائها الفكري والثقافي المتنوع وذلك بتأسيس مدارس ومعاهد ودعوة إلى الرحلات والأبحاث الجغرافية وتوفير الأمن في بلاد المغرب.

وقد رحل ابن جبير إلى المشرق الإسلامي مثله مثل أهالي الأندلس لأداء مناسك الحج أو طلاب علم وأهالي الشرق العربي يرحلون إلى الأندلس في طلب الحظوة والجاه[3].

وبذلك كان معظم الأندلسيين يرحلون إلى المشرق العربي بغية أداء مناسك الحج، وقد صنفت في ذلك العديد من الرحلات الحجازية، "وقد كان المشرق الإسلامي زمن الرحلة خاضعا لحكم الدولة الأيوبية بزعامة الخلافة العباسية التي كانت تواجه أشد الحروب الصليبية ضراوة وعنفا، وحاز فيها صلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة الأيوبية وأشهر سلاطينها " شهرة كبيرة في المشرق الإسلامي والغرب الأوروبي نظرا للدور الكبير الذي لعبه في الجهاد ضد الصليبيين[4].

وقد كان تأثير هذه الأوضاع السياسية المتمثلة في الحروب الصليبية على مسار رحلة ابن جبير وقد ذكرها في كثير من مواقفه أدرك صلاح الدين ما أصاب الوحدة الإسلامية من التصدع

1- محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ط2، 1990، ص3.
2- ج.س كولان، كتاب الأندلس (دائرة المعارف الإسلامية)، دار الكتاب اللبناني-بيروت، ط1، 1980، ص136.
3- ينظر محمد سعيد الدغلي، كتاب الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب العربي وفي الأدب الأندلسي، دار أسامة، ط1، 1984م، ص76.
4- ينظر اسمنت غنيم، الدولة الأيوبية والصليبيون، جامعة الإسكندرية، دط، 1975، ص15.

وطمع الصليبيين في الأملاك الإسلامية، فبعث إلى الخليفة العباسي ببغداد وقام بجهاد وفتح مصر واليمن وتأمين الطريق إلى الحجاز ثم اهتم بتحرير بيت المقدس من قبضة الصليبيين[1]، وقد أشاد ابن جبير بمواقف صلاح الدين ودوره في حماية الحجاج وتأمين الطريق وأماكن الإقامة كما أنه أعجب بشخصية صلاح الدين الأيوبي وقام برحلة أخرى من أجل أن يشاهد المناطق الإسلامية التي حررها صلاح الدين الأيوبي من قبضة الصليبيين.

4- مسار الرحلة:

أ- الطريق الذي سلكه ابن جبير في رحلته:

إن من أهم المراحل التي اهتم ابن جبير بذكرها في رحلته ووصفها وصفا دقيقا، الطريق أو المسار الذي سلكه في رحلته والمخاطر التي تعرض إليها "فقد غادر ابن جبير غرناطة وهو في نحو الأربعين من عمره إلى المشرق يوم الخميس الثامن لشوال سنة ثمانية وسبعون وخمسمائة (578هـ)هجري الموافق لثلاث فبراير سنة ثلاثة وثمانون ومئة وألف ميلادي(1183م) في صحبة صديقه أحمد بن حسان"[2]، ومن الأمور التي كان ابن جبير يهتم بتدوينها ذكره للزمان والمكان خلال رحلته، وقد كان الناس يخرجون من الأندلس في مثل هذا الموعد احتياطا للطوارئ لكي يسيروا على هينة فيكونوا في البقاع المقدسة في رجب من العام التالي، فيؤدون العمرة الرجبية ثم يقضون في مهد الإسلام رجبا وشعبان ورمضان وشوال وذي القعدة ما بين درس وسماع وزيارات وأعمال تقى ثم يؤدون الحج بعد ذلك في ذي الحجة ثم يعودون إلى أوطانهم[3].

لقد كان معظم الحجاج الأندلسيين يسلكون الطريق التقليدي إلى الأراضي الحجازية لكن ابن جبير لم يسلك هذا الطريق، فقد اضطر ابن جبير إلى الوصول إلى مكة عن طريق الصعيد الأعلى وقوص ثم عبور البحر من عيذاب إلى جدة بدلا من الطريق التقليدي عبر شبه جزيرة سيناء إلى أيلة ثم الانحدار جنوبا إلى جدة، ولكن الرحلتان متقاربتان من حيث الزمن اللازم لقطع كل منها لأن فرق المسافة كان يعوضه عبور البحر الأحمر من عيذاب إلى جدة، وهي رحلة بحرية كان لا ينبغي أن تستغرق أكثر من ثلاثة أيام، ولكنها استغرقت أكثر من ذلك بسبب المهالك والمعاطب مرجعها إلى سوء السفينة[4]. وصف ابن جبير ما عاناه خلال رحلته وذلك بسبب تعرضه

1- ينظر الباز العريني، الشرق الأدنى في العصور الوسطى الأيوبيون، دار النهضة-القاهرة، دط، دت، ص50.
2- عبد الله عنان، تراجم إسلامية شرقية وأندلسية-القاهرة، 1970، ص328
3- ينظر حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص491.
4- ينظر حسين مؤنس، المرجع نفسه، ص432.

لعدة مهالك. قبل دراسة مسار الرحلة يجب أن نعرف أن ابن جبير من أدق الوصافين وأبرعهم "فهو شديد الملاحظة، دقيق في تحديد الأمكنة ووصفها، دقيق في إيراد التواريخ وتحديد المسافات"[1]، وهو من أول الرحلة يصف خط السير ويعين المراحل والزمن الذي استغرقته، فابن جبير يتميز بالذكاء، والنباهة، فإن كان لا يجد صعوبة في تحديد التواريخ وهو بالأندلس...فقد جاء عليه وقت في بلاد المشرق كان عليه أن يعتمد على نفسه في حساب الشهور الميلادية، وعلى ظهر المركب كان عليه أن يحسب التقويمين معا، فكان يرقب الهلال بنفسه ويحسب على أساس ما يرى. والغريب بغد ذلك أن أخطاءه في هذا قليلة وهي دلالة على ذهن صاح حاضر[2].

فابن جبير حريص على تدوين التواريخ والأماكن التي يكون فيها أو ينتقل منها، بالإضافة إلى تدوين كل ما يرى ويسمع على أدق صورة وأوفاها،ولهذا يعتبر أفضل رحالة في الأدب الجغرافي[3]وعلى هذا الحرص في التدوين ترجع أهمية رحلته، فهذا التوثيق أعطى لرحلته أهمية بالغة من بين الرحلات.

ب– مرحلة الإنطلاق: –الطريق إلى الإسكندرية:

– **سبتة:** تنقل ابن جبير بين مناطق الأندلس للوصول إلى سبتة ليجد مركبا ويقلع إلى الإسكندرية، "فمن عادة بعض حجاج الأندلسيين الانطلاق بحرا إلى الإسكندرية فلا تستغرق رحلتهم في الغالب –إذا سلمت من الأخطار– سوى ثلاثين يوما، فهو أسرع الطرق لبلوغ الهدف..."[4]، "فاجتاز أولا "جيان" لقضاء بعض الأسباب ثم سار جنوبا عن طريق قبذاق فاستجة فأشونة فأركش، حتى وصل إلى ثغر طريق عبر من المضيق إلى قصر مصمودة أو القصر الصغير في اليوم السابع والعشرين من شهر شوال سنة ثمانية وسبعون وخمسمائة هجري"[5].

– **الطريق بحراً إلى الإسكندرية:** بدأ ابن جبير تقييد يومياته من اليوم التالي "لركوبه البحر من سبتة حيث وجد سفينة من سفن الجنوبيين، تريد الإقلاع قاصدة الإسكندرية يوم الخميس التاسع وعشرون من شوال".[6]

1- حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي دار الجيل-بيروت، دط، دت، ص931.
2- ينظر حسين مؤنس، الجغرافية والجغرافيين، ص 438.
3- ينظر كاظم موسى الطائي، رحلة ابن جبير (جدلية الأدب والمكان)، مجلة عصور الجديدة،العدد الخامس،جامعة وهران (1) أحمد بن بلة، 2012، ص 42.
4- محمد بن إبراهيم بن صالح الحسين، جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى خلال عصري المرابطين والموحدين، السعودية، ط1، 1998م، ص79.
5- عبد الله عنان، تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، ص 328.
6- عبد الرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر-دمشق، ط2، 1980، ص409.

هذا دليل على حرص ابن جبير على تدوين كل ما مر به من بداية رحلته إلى نهايتها.

- **المحطات التي توقف بها أثناء رحلته إلى الإسكندرية:**

بعد إقلاع السفينة "من ثغر سبتة الواقع على شاطئ مراكش في مواجهة جبل طارق،سارت بحذاء شاطئ الأندلس متجهة إلى ثغر دانية*"[1]،فوصلته بعد أسبوع ثم غادرته متجهة إلى جزيرة يابسة، فجزيرة ميورقة، فجزيرة سردانية*، "وعلم بوجود أسرى العرب من المسلمين من رجال ونساء يباعون في سوق النحاسة فأحس بالألم الشديد، وأدرك ما أصاب هؤلاء نتيجة منتظرة لتفكك العالم الإسلامي"[2]. وقد واجه المركب عواصف شديدة وهاج البحر وتعالت الأمواج يقول في ذلك: "وطرأ علينا من مقابلة البر في الليل هول عظيم عصم الله منه بريح أرسلها الله تعالى من تلقاء البر فأخرجنا عنه..."[3]، وقد ضيع المركب طريقه لولا سفينة مسيحية دلتهم على ذلك ووصلوا إلى بر سردانية حيث جدد المسافرون الماء والحطب والزاد.

- **سواحل صقلية:** واجه المركب العديد من العواصف التي كادت أن تحطم المركب، وانطلقت السفينة من بر سردانية واتجهت إلى سواحل صقلية وقد واجهت مرة أخرى عواصف هوجاء وفي ذلك يقول: "الحمد لله أرانا عظيم قدرته، ثم تلاقى بجميل رحمته ولطيف رأفته، حمدا يكون كفاء لمنته ونعمته"[4] وبين بر سردانية وبر صقلية نحو الأربع مئة ميل، ثم اتجهت السفينة صوب جزيرة أقريطش ثم جنوبا إلى الإسكندرية.

- **وصول السفينة إلى الإسكندرية:**

بدأت رحلة ابن جبير باتجاه الإسكندرية" يوم السبت التاسع والعشرين من ذي القعدة بعد ثلاثين يوما قضاه على ظهر سفينة للجنوبيين"[5]، وقد وصف لنا ابن جبير تلك "الرحلة البحرية الشاقة وما لقيه خلالها من أهوال البحر وأخطار المروعة وما شاهده من مختلف المراسي من المناظر والمشاهد"[6]، ولما وصل ابن جبير اشتكى مما لقيه من رجال الضبط من تفتيش وتعسف كما

*- دانية: هي بلدة تقع في مقاطعة لفنت، جنوب شرق إسبانيا... وتقع على ساحل البحر المتوسط وتعتبر ميناءا رئيسيا من موانئ شرق الأندلس.

1- عبد الرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ص 409.

*- جزيرة سردانية: جزيرة سياحية إيطالية تقع في غربي البحر الأبيض المتوسط، وهي أكبر جزيرة بعد صقلية

2- المرجع نفسه ، ص409.

3- أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، دط، دت، ص9

4- المصدر نفسه، ص10.

5- أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون،دار البيان العؤبي، جامعة عين شمس، جدة، دط، دت، ص330.

6- عبد الله عنان، تراجم إسلامية وأندلسية، ص 329.

أنه وصف منار الإسكندرية العظيم وذكر مناقبه لما توفرت عليه من المدارس والمحارس...كذلك أعجب بالسلطان صلاح الدين الأيوبي وذكر مآثره.

مواصلة الرحلة إلى القاهرة: أقام ابن جبير ثمانية أيام بالإسكندرية ثم ركب النيل إلى القاهرة "فوصل إليها يوم الأربعاء الحادي عشر من ذي الحجة"[1]، ووصف القاهرة وآثارها ومساجدها وقبور الصحابة والأولياء والتابعين...إلخ.

الطريق من القاهرة إلى قوص: وصف كل ما بطريقه من مدن وآثار وقبور فراعنة وذكر الأسواق وتنفل ما بين بلدة منفلوط ثم أسيوط وإخميم وذكر مواضع أخرى وغيرها إلى أن وصل إلى قوص.

الوصول إلى قوص: يقول في ذلك: "ثم كان الوصول إلى قوص يوم الخميس الرابع والعشرين لمحرم المؤرخ وهو التاسع عشر من مايو...ودخلنا قوص وهي مدينة حفيلة بالأسواق مشعة المرافق كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد"[2]، ويصفها ابن جبير بأنها مدينة تجارية يحط بها الحجاج والتجار من كل حدب وصوب.

الطريق من قوص* إلى عيذاب*: تعددت طرق ابن جبير بين البحر والبر ومن طرقه البرية طريقه من قوص إلى عيذاب والتحاقه "بقافلة لاجتياز الصحراء الشرقية إلى عيذاب"[3]، وقد وصف الصحراء وقال في ذلك: "لا يسافر في هذه الصحراء إلا على الإبل لصبرها على الظمأ...وأكثر المسافرين يركبون الإبل على أحمالها فيكابدون مشقة سموم الحر غما ومشقة[4]. كما أنه يبدع في وصف مخاطر الصحراء ومشقتها ولا تختلف عن أهوال البحر.

من الصحراء الشرقية إلى عيذاب: بعدما اجتاز الصحراء الشرقية "وصل عيذاب في الثالث من ربيع الأول"[5]، يقول: "فلما كان عشي يوم السبت دخلنا عيذاب، وهي مدينة على

1- المرجع نفسه، ص 329
2- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص40.
*قوص: هي مدينة ومركز بمحافظة قنا، تقع على الساحل الشرقي من النيل جنوب القاهرة.
*عيذاب: مدينة تقع في أقصى جنوب الصحراء الشرقية بمصر على البحر الأحمر.
3- شوقي ضيف، الرحلات، ص76.
4- ابن جبير، المصدر السابق، ص42.
5- عبد الله عنان، المرجع السابق، ص330.

ساحل بحر جدة غير مُسورة..."[1]، وقد وصف كثرة القوافل الواردة والصادرة من عيذاب تحمل توابل الهند وخاصة أحمال الفلفل والقرفة...إلخ.

من ميناء عيذاب على البحر الأحمر إلى جدة:

ميناء عيذاب هو "مرفأ معهود للحجاج على البحر الأحمر"[2]،وقد وصف ابن جبير عيذاب وأهلها "ورأى أن الحلول بها من أعظم المكاره والتي حف بها السبيل إلى الحج، قال بأن أهلها ألفوا بها عيش البهائم، بأنهم أظل سبيل من الأنعام، فقد كان ساخطا على هوائها الذي يذيب الأجسام ومائها الذي يشغل المعدة عن اشتهاء الطعام وسكانها الذين لا خلاف لهم ولا جناح على لغتهم"[3]، لهذا فقد نصح الحجاج بأن يتجنبوها كلما أمكنهم ذلك وأن يستخدموا بدلا منها الطريق الشمالي من فلسطين.

الطريق من ميناء عيذاب إلى جدة: وصف ابن جبير ما عاناه هو والحجاج على البحر من أهوال لضعف عُدة المركب واختلاله ويقول: "فكنا فيها نموت مرارا ونحيا مرارا، والحمد لله على ما من به من العصمة وتكفل به..."[4]، وتمنى ألا يركب هذا البحر مرة أخرى إلا للضرورة يقول: "...ألاّ يكون انصرافنا على هذا البحر الملعون إلا إن طرأت ضرورة تحول بيننا وبين سواه من الطرق"[5]، ودامت رحلته على البحر الأحمر ثمانية أيام.

انتقاله إلى جدة:بعدما ركب البحر إلى جدة وصل إليها واشتكى سوء معاملة العرب للحجاج ومما يأخذوه منهم من مكوس، وأشاد بصلاح الدين لتعهده لأمير مكة أن يدفع له سنويا ما يعوضه عن مكوس الحجاج، "وما جلبوا عليه من الضلال والحيل إلى البدع ولينوه بما كان عليه المغاربة من الصلاح والتقوى، وما كان عليه الموحدون من استمساك بعرى الدين وأحكام السنة وإقامة العدل".[6] وأخيرا وصل ابن جبير إلى مكة لأداء مناسك الحج وتكفير ذنوبه.

1- ابن جبير، المصدر السابق، ص45
2- عبد الرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ص410.
3- عبد العزيز طريح شرف، الموجز في تاريخ الكشف الجغرافي، الإسكندرية، دط، 1993.، ص86.
4- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص52.
5- المصدر نفسه، ص52.
6 - ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 55، 56.

وصوله إلى مكة:واصفا الطريق إليها من جدة، "دخلها في اليوم الثالث من شهر ربيع الآخر وهو الرابع من شهر أغسطس كما يقول مع طلوع الصباح، والأصوات تصك الآذان بتلبية في كل مكان والألسنة تضج بالدعاء"[1] ووصف مناسك الحج وصفا طويلا، كما يصف المسجد الحرام وصفا مسهبا. مما يقول فيه: "البيت المكرم له أربعة أركان وهو قريب من التربيع..."[2] ويقول: "ولعل البيت الكريم مفروش بالرخام، وسقف البيت مجلل بكساء من الحرير الملون، وظاهر الكعبة كلها من الأربعة والجوانب مكسور بسور من الحرير الأخضر...ولموضع المقام أيضا قبة مصنوعة من حديد موضوعة إلى جانب قبة زمزم..."[3] ويستمر ابن جبير في وصف المسجد ويعرض علينا وصفا دقيقا للكعبة وكسوتها، ويستغرق في وصف مكة ومشاعر الحج جزءا كبيرا من رحلته فهو يفيض في وصفها ووصف عمرانها وأحوالها وفي وصف الكعبة الشريفة وأقسام مسجدها ومقام إبراهيم ومكان الطواف الحجر الأسود وبئر زمزم...

ومن ذلك يقول عن الكعبة الشريفة: "فألفينا الكعبة الحرام عروسا مجلوة مزفوفة إلى جنة الرضوان، محفوفة بوفود الرحمن..."[4] وقد أقام ابن جبير بمكة ثمانية أشهر وثلث شهر، يقول: "فكانت مدة مقامنا بمكة –قدسها الله– من يوم وصولنا إليها وهو يوم الخميس الثالث عشر لربيع الآخر من سنة تسع وتسعين، إلى يوم إقلاعنا من الزاهر وهو يوم الخميس الثاني والعشرين لذي الحجة من السنة المذكورة، ثمانية أشهر وثُلث شهر"[5].

لا بد من إبداء ملاحظة هنا، مفادها أن ابن جبير لم يرجع مباشرة بعد أداء فريضة الحج رأسا إلى غرناطة من الطريق التي أتى منها عبر مصر ثم عبوره البحر الأحمر إلى جدة، "فهو قد عاهد الله تعالى بعدم عبوره مرة أخرى بسبب ما قاساه من أهوال ومشقة"[6].وبذلك يكون ابن جبير سلك طريقا آخر للعودة إلى بلاده واستغل الفرصة لزيارة دمشق وبغداد وعكا* وغيرها من الأماكن.

1- المصدر نفسه، ص 58.
2- شوقي ضيف، الرحلات، ص77.
3- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 58 إلى63.
4- المصدر نفسه، ص 58.
5- المصدر نفسه، ص161.
6- المصدر نفسه، ص168.
*- عكا: من أقدم مدن فلسطين التاريخية، تقع على البحر الأبيض المتوسط على الرأس الشمالي من خليج حيفا.

ارتحاله من مكة إلى المدينة: سافر ابن جبير من مكة إلى المدينة في "الثاني والعشرين من ذي الحجة، فوصل إليها في الثالث من محرم وأقام بها خمسة أيام"[1]، قضى خلالها مناسك زيارة المسجد النبوي الكريم ووصفه بدقة يقول: "المسجد المبارك مستطيل وتحفه من جهاته الأربع بلاطات مستديرة به، ووسطه كله صحن مفروش بالرمل..."[2] كذلك زار قبور الصحابة ثم غادرها وانتقل إلى العراق وهنا تنتهي المرحلة الأولى من رحلة ابن جبير.

وبعدها ينتقل ابن جبير بين الكوفة وبغداد والموصل ثم إلى حمص* ودمشق حتى يستقل مركبا من عكا ويقلع إلى الأندلس.

العراق: ينتقل من الكوفة إلى بغداد ثم إلى الموصل ومنها إلى حلب*.

1-**الكوفة:** يرسم لنا ابن جبير الطريق وما شاهده من خلالها من أماكن وآبار ومصانع، فهو ينتقل من نجد إلى نقرة والحاجر... وغيرها من المناطق حتى يصل إلى الكوفة يقول: "...ومنها إلى الكوفة اثنا عشر يوما في طريق سهلة طيبة، والمياه فيها بحمد الله موجودة في مصانع كثيرة"[3]. كما يقول عنها "هي مدينة عتيقة البناء، قد استولى الخراب على أكثرها، فالغامر منها أكثر من العامر..."[4] ويصف جامعها المكرم وآثارها الكريمة ثم ينتقل إلى مدينة الحلة ويصفها وبعد ذلك ينتقل إلى بغداد.

2-**بغداد:** يصل إلى بغداد ويقضي بها أسبوعين ويقول في ذلك: "فكان مقامنا بها ثلاثة عشر يوما"[5] فزار خلالها معالم الخلفاء ومجالس العلماء، وكانت قد فقدت يومئذ كثيرا من بهائها السالف، وهو يضيف لنا خطط بغداد ومبانيها ومحالها وأسواقها، ويقول عنها "هذه المدينة العتيقة، وإن لم تزل حضرة الخلافة العباسية، ومثابة الدعوة الإمامية القرشية الهاشمية، قد ذهب أكثر رسمها، ولم يبق منها إلا شهير اسمها"[6]، ولاحظ ابن جبير أن سكانها شديدوا الغطرسة، وقال "إنهم

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 181.
2 - المصدر نفسه ، ص 168.
*- صور: مدينة سورية، تعتبر ثالث أكبر مدن البلاد من حيث عدد السكان، تقع في وسط سوريا، تحديدا في الجزء الغربي منها.
*- حلب: هي مدينة تقع في أقصى الجهة الشمالية الغربية لسوريا.
3- المصدر نفسه ، ص 168.
4- المصدر نفسه ، ص 187.
5- المصدر نفسه، ص 206.
6- ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص193.

يشعرون وكأن الله لم يخلق غيرهم، كما أنه لم يجد شيئا جميلا باستثناء نهر الدجلة والنساء العراقيات"[1]، ويقول في ذلك: "أما أهلها فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع بالتواضع والرياء، ويذهب بنفسه عجبا وكبرياء، يزدرون الغرباء، ويظهرون لمن دونهم الأنفة والإباء..."[2]، ويصف المدينة الشرقية التي كانت يومئذ منزل الخلافة، وبها القصور الخلافية ويصف الخليفة أبا العباس أحمد الناصر بن الله بن المستضيء بنور الله وغيرها وقد أفرد لهذه المدينة فصلا طويلا.

من بغداد إلى الموصل*:رحل ابن جبير من بغداد في اليوم الخامس عشر لصفر وهو الثامن والعشرون لمايه مع ركب المرافق لخاتون أم عز الدين بن مسعود صاحب الموصل يقول: "فكان مقامنا بها ثلاثة عشر يوما ونحن في صحبة الخاتونين، خاتون بنت مسعود المتقدمة الذكر في هذا التقييد، وخاتون أم عز الدين...وهاتان الخاتونان هما أميرتا هذا العسكر"[3]. ويصف لنا الطريق ثم يبدع في رسم مدينة الموصل فيقول عنها: "هذه المدينة عتيقة ضخمة، حصينة فخمة، قد طالت صحبتها للزمن..."[4] كما يصف مساجدها وحماماتها وخاناتها... كما أبدى ابن جبير انتقاده لأهل العراق لتكبرهم وسوء معاملتهم للحجاج. ثم شد الرحال عن مدينة الموصل إلى نصيبين*، فمدينة حرّان* ثم مدينة منبج وكل مدينة كان يمر عليها يصفها وصفا دقيقا وكل ما يتعلق بموقعها ومساحتها ومرافقها ثم ينتقل إلى مدينة حلب.

1- **سوريا:**

ينتقل بين حلب وحمص ودمشق ثم يغادر الأراضي المشرقية إلى بلاده.

1- عبد العزيز طريح شريف، الموجز في تاريخ الكشف الجغرافي، ص 86.
2- المصدر السابق ، ص194.
*- الموصل: هي مركز محافظة نينوى تقع شمال العراق على ضفاف نهر دجلة، وهي ثاني مدينة في البلاد من حيث السكان.
3- المصدر السابق، ص 206.
4- المصدر نفسه، ص 210.
*نصيبين: هي مدينة تاريخية في محافظة ماردين، بتركيا.
*حرّان: هي مدينة قديمة في بلاد ما بين النهرين تقع حاليا جنوب شرق تركيا.

من الموصل إلى حلب: غادر ابن جبير الموصل ليصل إلى حلب ويصفها بأنها "بلدة قدرها خطير، وذكرها في كل زمان يطير، حط بها من الملوك كثير، ومحلها من التقديس أثير..."[1]، كما يصف مساجدها وأسواقها وينتقل إلى حماة.

حماة*: لم يغفل ابن جبير عن وصف أي مكان فكل شيء رآه أو سمعه كتب عنه، فكل منطقة أعطاها حقها في الوصف فيقول عن مدينة حماة: "مدينة شهيرة في البلدان، قديمة الصحبة للزمان، غير فسيحة الفناء، ولا رائقة البناء، أقطارها مضمومة وديارها مركومة..."[2]ثم ينتقل إلى مدينة حمص.

حمص: يقول عنها: "فسيحة الساحة، مستطيلة المساحة، نزهة لعين مُبصرها من النظافة والملاحة..."[3]ثم يرحل من حمص إلى دمشق ويصف لنا الطريق إليها والأماكن التي حط بها.

دمشق: أعجب ابن جبير بدمشق، وقد أعجب معالمها المشرقة وأبوابها ومعالمها وأحوالها وعوائد أهلها ومارستانها العظيم ومدارسها الزاهرة ويصف جامعها الأعظم بإفاضة وصحنه وأبوابه وقبابه ومشاهده ومزاراته[4].ويقول عنها: "جنة المشرق، ومطلع حسنه المؤنق المشرق، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها، وعروس المدن التي اجتليناها، قد تحلت بأزاهير الرياحين، وتجلت في حلل سندسية..."[5].

وفي هذا الوقت الذي زار فيه دمشق كانت الحروب قائمة على قدم وساق بين صلاح الدين والصليبيين، وأشار هنا بأعمال صلاح الدين وآثاره في الشام وانتصاراته.

– أقام ابن جبير بدمشق مدة تعادل ست مرات ونصف قدر المدة التي قضاها في بغداد، وليس مرد هذه الإقامة الطويلة إلى مجرد البحث عن وسيلة للسفر من دمشق إلى عكا، "بل مرده في الحقيقة إلى هذا الأنس وشدة إعجاب الأندلسيون بعاصمة الشام فقد وجدوا شبها كبيرا لبلادهم في بيئتها وأخلاق الناس وهذا الأنس مصداق ما يقوله الجغرافيون الأندلسيون عن بلادهم

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 220.
*- حماة: مدينة سورية تحتل المرتبة الرابعة من حيث السكان بعد دمشق وحلب وحمص، تقع في وسط سوريا.
2- المصدر السابق ، ص 230.
3- المصدر نفسه ، ص 231.
4- ينظر عبد الله عنان، تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، ص332.
5- المصدر السابق، ص234.

من أنها شامية، ولهذا لا نكاد نجد رحالة أو حاجا أندلسيا إلا ويطيل المقام والكلام في دمشق أو غيرها من مدائن الشام[1]. كما أن موقف ابن جبير عن أهل الشام كان عكس أهل العراق، فقد أعجب بهم لحسن معاملتهم للحجاج وإكرامهم، ثم بعد ذلك انتقل إلى عكا وصور للبحث عن مركب للعودة إلى الأندلس.

✓ **طريق العودة:**

غادر ابن جبير دمشق في "الخامس عشر من جمادى الآخرة إلى عكا بحثا عن مركب يُقله إلى وطنه"[2] واصفا من خلالها الطريق والإمارات والقواعد الصليبية فتنقل بين بدارية ثم جن وكان عليه أن يمر على مدينة بانياس للوصول إلى عكا فقال عنها: "بانياس هذه المدينة ثغر بلاد المسلمين، وهي صغيرة ولها قلعة مستديرة بها تحت السور ونهر يقضي إلى أحد أبواب المدينة..."[3]، ثم بعد ذلك وصل إلى عكا"ووصفها بأنها ملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق، ولا عجب فقد كانت حينئذ أهم ثغور الصليبيين"[4]، يقول عنها: "هي قاعدة مدن الإفرنج بالشام، ومحط الجواري المنشآت في البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة، والمشتبهة في عظمها بالقسطنطينية مجتمع السفن والرفاق..."[5]، وعلم هناك أن مركبا في ثغر صور عازم على الإبحار فذهب من عكا إلى صور.

صور*: وصل إلى صور وطاف بها وبقي فيها حوالي أحد عشر يوما دخلها يوم الخميس وخرج منها يوم الأحد الثاني والعشرين لجمادى وقال عنها: "مدينة يُضرب بها المثل في الحصانة لا تلقي لطالبها بيد طاعة ولا استكانة،..."[6]، وبَحَثَ عن مركب هناك للرجوع إلى بلاده لكنه استصغره فقفل راجعا إلى عكا بطريق البحر يقول: "وذلك أن المركب الذي كنا أملنا الركوب فيه استصغرناه فلم نرد الركوب فيه"[7]بعد ما خاب أمله في وجود مركب في صور يقله عاد إلى عكا.

1- ينظر حسين مؤنس، الجغرافية والجغرافيون، ص 433.
2- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص271.
3- المصدر نفسه، ص 273.
4- زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص67.
5- المصدر السابق، ص276.
*- صور: تقع في القسم الشمالي الشرقي لضفة المتوسط وهي من أعرق المدن التاريخية اللبنانية.
6- المصدر نفسه، ص 277.
7- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص278.

عودته إلى عكا: وبعد عودته إلى عكا وجد سفينة جنوية كبيرة من سفن الحجاج المسيحيين والمسلمين كان قصدها ثغر مسينة بجزيرة صقلية، فركبها وغادر الأراضي المشرقية بعدما اهتموا برصد أحوال الصليبيين الذين سيطروا على سواحل الشام[1]. وبذلك تكون ملاحظاته عن الصليبيين في بلد الشام هي آخر ما رصده عن الأراضي المشرقية في مدينة عكا.

رحلته على ظهر المركب: أبحر ابن جبير من عكا في أوائل رجب سنة ثمانون وخمسمائة هجري(580هـ) على هذه السفينة التي يصفها بالضخامة والعظمة، "ووصف البحر ورياحه وعواصفه، وما زالوا فيه حتى أهل عليهم شعبان، وتملكه اليأس بسبب الرياح الشمالية والعواصف الغربية التي هددت السفينة عدة مرات وكادت أن تغرق"[2]، وهو في كل ذلك يُبدع في الوصف والتصوير يقول: "والبحر قد هاج هائجه، وماج مائجه فرمى بموج كالجبال، يصدم المركب صدمات يتقلب لها، فالحذر الحذر من ركوب مثل هذا الخطر، وإن كان المحذور لا يغني عن المقدور شيئا وحسبنا الله ونعم الوكيل"[3]، فقد كانت رحلة بحرية شاقة محفوفة بالمخاطر والمتاعب وبذلك لم يكن من السهل عودته إلى وطنه.

جزيرة صقلية*:

من الأماكن التي مر بها ابن جبير ونالت وصفه اهتمام القراء ألا وهي جزيرة صقلية ومدنها التي أبدع ابن جبير بوصفها ورصد أحوالها خاصة أنها لا يزال بها المسلمون في تلك الفترة ومن أهم محطاتها:

وصوله إلى مسينة: وصل ابن جبير إلى مسينة* يوم "السبت ثاني رمضان سنة ثمانون وخمس مائة هجري بعد أهوال أشرف معها على الموت، آخرها أن تحطمت السفينة في مدخل مسينة وانتقل ابن جبير ومن معه إلى البر في زوارق بإشراف ملك الجزيرة نفسه غليام وجملة من رجاله"[4]،وبذلك يكون ابن جبير قد نجا بأعجوبة من الموت وقد عجب ابن جبير من سلامته وحمد

1- ينظر عبد الله عنان، تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، ص333.
2- شوقي ضيف، الرحلات، ص90.
3- المصدر السابق ، ص290.
*- جزيرة صقلية: جزيرة إيطالية تعد أكبر جزيرة أوروبية في البحر الأبيض المتوسط.
*مسينة: مدينة إيطالية في جزيرة صقلية، على شاطئ المضيق، وهي ثالث أكبر مدن صقلية.
4- حسين مؤنس، الجغرافية والجغرافيون، ص 435.

الله على ما من به من لطيف صنعه، وهنا سنحت الفرصة لابن جبير لزيارة مدن جزيرة صقلية، تلك الجزيرة الكبيرة التي كانت وما يزال بها المسلمين والحضارة الإسلامية ويقول عنها: "كفى بأنها ابنة الأندلس في سعة العمارة، وكثرة الخصب والرفاهية، مشحونة بالأرزاق، على اختلافها مملوءة بأنواع الفواكه وأصنافها..."[1]. ويصف لنا مدينة مسينة وما بها من قصور والبساتين ويصف لنا ملك الجزيرة غليام ووزرائه وحجابه وقال عنها: "مقصد جواري البحر من جميع الأقطار، كثيرة الأرفاق برخاء الأسعار..."[2]، وقد تنقل ابن جبير بين مدن صقلية، فاستقل مركبا إلى مدينة شفلودي.

انتقاله إلى شفلودي: وصف لنا ابن جبير في أثناء عبوره إلى مدينة شفلودي بركان إثنا، كذلك قدم لنا وصفا دقيقا لهذه المدينة قال: "هي مدينة ساحلية كثيرة الخصب، واسعة المرافق منتظمة أشجار الأعناب."[3]، ثم انتقل إلى مدينة ثرمة.

ثرمة: اكترى ابن جبير زورقا وانتقل إلى مدينة ثرمة وقال عنها: "هي أحسن صنعا من التي تقدم ذكرها، وهي حصينة، تركب البحر فتشرف عليه، وللمسلمين فيها ربض كبير لهم فيه المساجد..."[4].وقد تنقل ابن جبير بين مدن جزيرة صقلية، ليصل إلى أطرابش، ليستقل مركبا للعودة إلى قرطاجنة، ثم إلى غرناطة، وكان عليه أن يمر على مدينة بلارمة، كما مر على شفلودي وثرمة وغيرها، وكل واحدة يصفها ويصف أحوال المسلمين بها.

بلارمة*: بعد مدينة ثرمة وصل إلى مدينة بلارمة وقال عنها: "هي بهذه الجزائر أم الحضارة، والجامعة بين الحنين غضارة ونضارة من جمال مخير ومنظر...وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الإيمان يعمرون أكثر مساجدهم ويقيمون الصلاة..."[5]، واهتم برصد أحوال المسلمين الذين كانوا يتمتعون بقدر من الحرية في ظل الحكم النورماني، فقد رأى مساجدهم معمورة وأسواقهم، ثم غادر بلارمة إلى مدينة أطرابش ليستقل مركبا ويعود إلى غرناطة.

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص297.
2- المصدر نفسه ، ص296.
3- المصدر نفسه، ص 301.
4- المصدر نفسه، ص 302.
*- بلارمة: مدينة إيطالية تقع في شمال غرب جزيرة صقلية وكبرى مدنها.
5-المصدر نفسه، ص 305.

أطرابش*: مكث ابن جبير مدة في هذه المدينة بحثا عن مركب يقله إلى وطنه، ووصف هذه المدينة بقوله: "هي مدينة صغيرة الساحة، غير كبيرة المساحة، مُسورة، بيضاء كالحمامة مُرساها أحسن المراسي..."[1]، ثم أبحر ابن جبير من صقلية ومدنها في اليوم التاسع من ذي الحجة وقد واجهتهم "عواصف البحر ورياحه الهوجاء، وبعد تعب مضن تنقل بين جزر سردانية وخالطة حتى وصل إلى قرطاجنة عشي يوم الخميس الخامس عشر منه ثم غادر قرطاجنة منتقلا بين مُرسيه إلى ليبرالة إلى لُورقة إلى المنصورة إلى قتالش بسطة إلى وادي آش، ثم منها يوم الخميس الثاني والعشرين لمحرم والخامس والعشرين لأبريل وصل إلى غرناطة"[2]، وحمد بن جبير الله على وصوله سالما إلى وطنه، ونعتقد أنه عاد إلى عمله في خدمة الموحدين في غرناطة، ولكنه لم يعد إلى خدمة أبي سعيد ابن عبد المؤمن فقد هذا قد ترك ولاية غرناطة من زمن[3]، ورغم تلك الأهوال التي قاساها ابن جبير فإننا نراه ينهض برحلتين إلى المشرق الإسلامي إلى أن توفي بالإسكندرية وقد قارب الثمانين من عمره.

يلحظ مما تقدم أن ابن جبير ترك لنا كتابا كشف فيه عن صدقه في الوصف، والتعبير،وينم عن عميق اعتقاده في الله سبحانه وتعالى، كما اتسمت أغلب تعبيراته بالتوازن الذي تفرضه طبيعته كرجل دين وأدب. وجاءت مادة رحلته متنوعةً كان لها النصيب الواسع بعد وفاته من الدراسة والتحليل وإثراء العلوم المختلفة.

*أطرابش: مدينة إيطالية على الساحل الغربي في صقلية وعاصمة مقاطعة ترابلي
1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص308.
2- المصدر نفسه ، ص308.
3- ينظر حسين مؤنس، الجغرافية والجغرافيون، ص 435.

الفصل الثاني: الحضور الجغرافي والبشري في رحلة ابن جبير

- ✓ الحضور الجغرافي
  - الحجاز
  - الشام وحواضرها
  - مصر
  - العراق
  - جزر صقلية
- ✓ الحضور البشري
  - صلاح الدين الأيوبي
  - المهدي محمد بن أبي جعفر المنصور
  - الوليد بن عبد الملك
  - نور الدين محمود زنكي
  - الملك غليام

1) الحضور الجغرافي

ارتأيتُ في هذا الفصل قبل أن ندرس مظاهر الحضارة في الأماكن التي زارها الرحالة ابن جبير ومكانتها في كتابه "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار". ينبغي معرفة هذه الأماكن التاريخية والإسلامية، وأهم الشخصيات التي تركت بصمتها في هذه الأماكن، وهذا لكي يسهل علينا دراسة ما نقلته من جوانب حضارية لكل بلد، فالرحلات تعتمد على العلاقة الأساسية بين المكان والإنسان لترسم صور الحياة الحضارية والاجتماعية بكل تجلياتها.[1]

وبما أن لفظة المكان مرتبط بكيان الإنسان ووجوده، فإننا كما يقول فاروق أحمد سليم "فالمكان هو الموضع الذي يولد ويحدث ويخلق ويوجد فيه الإنسان وهو الموضع الذي يستقر فيه وهو الموضع الذي يعيش ويتطور فيه، إذ ينتقل من حال إلى آخر"[2]. ومن الرحلات التي تهتم بتصوير المكان تصويراً فوتوغرافيّاً دقيقاً، رحلة ابن جبير، فلم يكن رحالة يهوى السفر والاستكشاف فقط بل كان يهتم برسم المكان بوعي وإحساس عالٍ وهذا ما أكدته نصوص رحلته.

أ- الحجاز:

من الأماكن التي استهوت رحّالتنا بلاد الحجاز، خاصة حواضرها مكة والمدينة التي "شهدت قيام الدعوة الإسلامية والتي نقلت الحجاز من مجرد نقطة تلاقي لسكان الجزيرة ونقطة على طرق التجارة إلى دور محوري عالمي فلما تمتعت به منطقة في العالم، فمن الحجاز كانت الانطلاقة العالمية للإسلام والتي جعلت سكانها وديانتها في مركز القيادة وجعلها تصارع أقوى الإمبراطوريات وتخضعها لسيطرتها"[3].فالحجاز لها مكانة تاريخية ودينية وعظيمة جعلتها قبلة ومقصد العديد من الرحالة الذين اهتموا بذكر موقعها، أما عن حدودها فقد حدد الإصطخري الحجاز ووصفه بديار العرب وقال عنها: "أنها تشمل مكة والمدينة واليمامة ومخالفيها ونجد الحجاز المتصل بأرض البحرين وبادية العراق وبادية الجزيرة وبادية الشام، واليمن المشتملة على تهامة"[4]. بينما

1- ينظر نوال عبد الرحمن الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن (9هـ)، ص109.
2- باديس فاغولي، الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، عمان-الأردن، ط1، سنة 2008، ص170، نقلا عن فاروق سليم، الانتماء في الشعر الجاهلي، دمشق، 1995، ص197.
3- نعمان محمود جبران، تاريخ الجزيرة العربية في العصور الإسلامية الوسطى، الأردن، دط، دت، ص126.
4 - الأصطخري، المسالك والممالك، مدينة ليدن المحروسة، مطبعة بريل، 1927م، ص195.

حددها المقدسي بالمدن والقصابات فقال: "أما الحجاز فقصبته مكة ومدنها يثرب وينبع وقرح والخيبر والمروة والحوراء وجدة والطائف والجار والسقيا..."[1]. وللحجاز أهمية كبيرة في تاريخ الدولة الإسلامية حتى يرث الله الأرض ومن عليها، حيث "أن مكة المكرمة مقدسة فقد بناها آدم صلوات الله عليه قبالة البيت المعمور كما أنها بيت إبراهيم عليه السلام قد أمره الله ببنائها، لذلك تركت أثرا عظيما في نفوس المسلمين"[2]، ويكفي لأهمية الحجاز أن بها أماكن مقدسة كالمسجد الحرام والكعبة المشرفة والمسجد النبوي، لذلك أصبحت قبلة المسلمين من جميع أنحاء العالم، كما أن لها أهمية تاريخية في كونها مركزا هاما للحضارات القديمة، كما نشطت حركة التجارة بها لأن القوافل تمر بأراضيها، وباتَتْ العديد من مناطقها مدناً تجاريةً أبرزها مكة والمدينة والطائف وخيبر...وغيرها.

1- جدة:

من المعلوم أنّ معظم الرحلات كانت وجهتها بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة، وقد قضى رحالتنا ابن جبير معظم وقته في زيارة هذه الأماكن، ونقل تفاصيلها، ووصف شعائر الحج بدقة وقبل دخوله إلى مكة المكرمة وصف لنا جدة فقال عنها: "وجُدة هذه قرية على ساحل البحر المذكور، أكثر بيوتها أخصاص، وفيها فنادق مبنية بالحجارة والطين، وفي أعلاها بيوت من الأخصاص كالغرف ولها سطوح يستراح فيها بالليل من أذى الحر، وبهذه القرية آثار قديمة تدل على أنها كانت مدينة قديمة، سورها المحدق بها باق إلى اليوم"[3]. وبهذا يكون ابن جبير حدد الموقع الجغرافي لجُدة وهذا ما أكده البكري في معجمه فقد قال: "جدة يضم أوله ساحل مكة سميت بذلك لأنها حاضرة البحر والجده من البحر والنهر ما يلي البر وأصل الجدة الطريق الممتد...وأهل البلاد يسمونها الآن جدة بكسر الجيم...كما أن جدة بالفتح الطريق الواسعة وليس من الطريق أوسع من هذا وهي واقعة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر"[4]. كما ذكر ابن جبير أن بها سورا وقد قال عن ذلك: "وأثر سورها المحدق بها باق إلى اليوم"[5]وهذا ما كتب عنه حافظ وهبة عن مدينة جدة فيقول عنها " هي مدينة كانت مسورة قد أزيل واتصلت

1 - شمس الدين أبي عبد الله المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار صادر، بيروت، دط، دت،ص 89.
2 - ينظر عبد الرحمن ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون تحقيق عبد السلام الشدادي، بيت الفنون والآداب، الدار البيضاء، ط1، 2005،ج2، ص187.
3- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 53.
4- محمد لبيب البتنوني، الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي ثالث خديوي،مصر، ط2، 1329، ص5.
5- المصدر السابق، ص 53.

البلدة القديمة بالمباني الجديدة التي زاد عددها عن دور المدينة القديمة ويقع ميناؤها في منتصف طول البحر الأحمر وقريبا وهي ميناء مكة..."[1]

ووصفها المقدسي فقال عنها: "محصنة عامرة آهلة، أهل تجارات وسيار، خزانة مكة ومطرح اليمن ومصر، وبها جامع سري، غير أنهم في تعب من الماء مع أنها فيها بركا كثيرة، ويحمل إليهم الماء من البعد قد غلب عليها الفرس، لهم بها قصور عجيبة، وأزقتها مستقيمة ووضعها حسن، شديد الحر جدا"[2].وبذلك يكون العديد من الرحالة اهتموا بوصف جدة ومنهم ابن جبير.

2- مكة:

انتقل ابن جبير بعد جدة إلى مكة التي لها المكانة الأولى في العالم الإسلامي لأنّ ملايين الحجاج يقصدونها سنويا فهي تعتبر "مهوى أفئدة المسلمين، وقبلة المصلين ومقصد الحجاج والمعتمرين تجتمع فيها شعائر دينية ومعالم تاريخية ومعان إيمانية جمة "[3].

وقد شرف الله مكة " فما على وجه الأرض بلدة وفد إليها جميع النبيئين والملائكة والمرسلين أجمعين وصالح عباد الله من أهل السماوات والأرض والجن إلا مكة"[4] لذلك فصل ابن جبير في وصف مكة وقضى معظم رحلته في هذه الأماكن المقدسة وقد قال عنها: "شرفها الله كلها مشهد كريم، كفاها شرفا ما خصها الله به من مثابة بيته العظيم وما سبق لها من دعوة الخليل إبراهيم وأنها حرم الله وأمنه وكفاها أنها منشأ النبي صلى الله عليه وسلم"[5]، ومكة لها شرف عظيم ومكانة رفيعة فهي مسكن سيدنا إبراهيم (عليه السلام) وولده سيدنا إسماعيل (عليه السلام)، لذلك قال عنها أيضا وعن مكانها :"هذه البلدة المباركة سبقت لها ولأهلها الدعوة الجليلة الإبراهيمية، وذلك أن الله يقول حاكيا عن خليله، صلى الله عليه وسلم:﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعلَمُ مَا نُخفِي وَمَا نُعلِنُ وَمَا يَخفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيء فِي ٱلأَرضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَاءِ﴾[6]

1- حافظ محمد بادشاه، الحجاز في أدب الرحلة العربي، ص22.
2- شمس الدين أبي عبد الله المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص77.
3- محمود محمد حمو، مكة المكرمة تاريخ ومعالم، مكة المكرمة، ط5، 1432هـ، ص37.
4- الحسن البصري، فضائل مكة والسكن فيها، تحقيق لسامي مكي الغاني، الكويت- الكويت، دط، 1980، ص21.
5- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص91.
6- سورة إبراهيم، الآية 38.

وقال عز وجل:﴿ أَوَ لَمَ نُمَكِّن لَّهُم حَرَمًا ءَامِنا يُجبَىٰ إِلَيهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيء رِّزقا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكثَرَهُم لَا يَعلَمُونَ ﴾[1]

فمكة هي مركز الحجاز وقد كانت بمثابة المركز التجاري الذي يخرج منه القوافل إلى الشمال والجنوب، فأثرت قريش من التجارة إثراء فاحشا.

ولعظم مكانتها، استهوت قلوب الرحالة، فوصفوها بأجمل الأوصاف، قال العبدري عنها في رحلته: "وفي يوم التروية، دخلت إلى البلد الأمين، مقر المجد الصميم، والشرف المكين، فخر بقاع الأرض كلها على مر السنين، فأقسم بالله أعظم يمين، قسما لا يكذب ولا يمين، ما حرم سكناه إلا ذو حظ غبين"[2]. وقال أيضا: "وها أنا أصف على قدر الإمكان، فأقول والله المستعان: إن مكة –شرفها الله– من عظيم آيات الله في الأرض الدالة على عظيم قدرته، فإنها بلد يسبي عقول الخلق ويستولي على قلوبهم ويتملك رقها من غير سبب ظاهر، فالنفوس إليها نزاعة من كل أرض..."[3].

وقد فصل ابن جبير في وصفها تفصيلا دقيقا وتحدث عن شكلها وموقعها فقال: "هي بلدة قد وضعها الله عز وجل بين جبال محدقة بها، وهي بطن واد مقدس كبيرة مستطيلة تسع من الخلائق ما لا يحصيه إلا عز وجل ولها ثلاثة أبواب: أولها باب المعلى، ومنه يخرج إلى الجبانة المباركة، وعن يسار المار إليها جبل في أعلاه تثنية عليها علم شبيه بالبرج، يخرج منها إلى طريق العمرة وتلك التثنية تعرف بكداء"[4]. وهذا هو الوصف الخارجي الذي قدمه ابن جبير عن موقع مكة المكرمة.وأكدت العديد من المصادر والمراجع هذه الأوصاف فابن بطوطة مثلا يقول عن مكة أنها "كبيرة مستطيلة البنيان، مستطيلة في بطن واد تحف بها الجبال، فلا يراها قاصدها حتى يصل إليها، وتلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة وأيضا وصف أبوابها فقال: "باب المعلى بأعلاها وباب الشبكية من أسفلها ويُعرف أيضا بباب العُمرة وهو إلى جهة الغرب وعليه المدينة الشريفة ومصر والشام، وجدة ومنه يتوجه إلى التنعيم وباب المسفل وهو من جهة الجنوب"[5].وقال عنها الاصطخري: "تبتدأ من مدن ديار العرب بمكة شرفها الله، وهي مدينة فيما بين شعاب الجبال،

1- سورة القصص، الآية 57.
2- العبدري، رحلة العبدري، ص358.
3- ابن جبير ،رحلة ابن جبير،ص362.
4- المصدر نفسه، ص87.
5- ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار، ص290.

وطول مكة من العلاة إلى المسفلة نحو ميلين، وهو من حد الجنوب إلى الشمال ومن أسفل جياد إلى ظهر قيقعان نحو الثلاثين من هذا، وأبنيتها حجارة، والمساجد في نحو الوسط منها، والكعبة في وسط المسجد."[1]. فمكة المكرمة من أشرف البقاع، وأطهرها في العالم بذلك نالت حظا كبيرا من الوصف والاهتمام عند رحالتنا والكثير من الدارسين والمؤرخين.

❖ **أسماؤها:**

لمكة أسماء كثيرة، بعضها في القرآن وعددها ثمانية أسماء الأولى وهي: مكة، بكة، أم القرى، القرية، البلد، البلدة، مسجد الحرام[2].

1- **مكة**: لقوله تعالى:﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيدِيَهُم عَنكُم وَأَيدِيَكُم عَنهُم بِبَطنِ مَكَّةَ مِن بَعدِ أَن أَظفَرَكُم عَلَيهِم وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعمَلُونَ بَصِيرًا﴾[3]

ويذكر بعض علماء الإسلام أنها "سميت مكة لقلة مائها وهم يقولون: أمتك الفصيل ضرع أمه إذا امتصه ويقول بعضهم: سميت مكة لأنها تمك الذنوب أي تذهب بها، أو لأنها تمك الفاجر أي تخرجه منها"[4].

بكة: لقوله تعالى:﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيت وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكا وَهُدى لِّلعَٰلَمِينَ﴾[5]

- قيل سميت بكة لأن الناس فيها يبك بعضهم بعضا أي يدفع[6].

2- **البلد**: لقوله تعالى:﴿لَا أُقسِمُ بِهَٰذَا ٱلبَلَدِ ﴾[7]

3-**أم القرى**: لقوله تعالى:﴿وَكَذَٰلِكَ أَوحَينَا إِلَيكَ قُرءَانًا عَرَبِيّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلقُرَىٰ وَمَن حَولَهَا وَتُنذِرَ يَومَ ٱلجَمعِ لَا رَيبَ فِيهِ فَرِيق فِي ٱلجَنَّةِ وَفَرِيق فِي ٱلسَّعِيرِ﴾[8]

1- الاصطخري، المسالك والممالك، ص 195.
2 - حافظ محمد باد شاه، الحجاز في أدب الرحلة العربي ، ص 92.
3- سورة الفتح، الآية 24.
4- أحمد السباعي، تاريخ مكة، دط، المملكة العربية السعودية، 1993، ج1، ص 21.
5- سورة آل عمران، الآية 96.
6- أحمد السباعي، تاريخ مكة ، ص 21.
7- سورة البلد، الآية: 01
8- سورة الشورى، الآية 07.

4- **البلدة**: لقوله تعالى:﴿إِنَّمَا أُمِرتُ أَن أَعبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلبَلدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيءٖ وَأُمِرتُ أَن أَكُونَ مِنَ ٱلمُسلِمِينَ﴾[1]

5- **القرية**: لقوله تعالى:﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلا قَريَة كَانَت ءَامِنَة مُّطمَئِنَّة يَأتِيهَا رِزقُهَا رَغَدا مِّن كُلِّ مَكَان فَكَفَرَت بِأَنعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلجُوعِ وَٱلخَوفِ بِمَا كَانُواْ يَصنَعُونَ﴾[2]

6- **المسجد الحرام**: لقوله تعالى:﴿لَّقَد صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءيَا بِٱلحَقِّ لَتَدخُلُنَّ ٱلمسجِدَٱلحَرَامَ إِن شَاءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُم وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَم تَعلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتحا قَرِيبًا﴾[3]

7- **البلد الأمين**: لقوله تعالى:﴿وَهَٰذَا ٱلبَلَدِ ٱلأَمِينِ﴾[4]

ولمكة أسماء أخرى مثل: نساسة، الحاطمة، صلاح، الباسلة، معاذ، الرأس...وغيرها كثير[5].

أما ابن جبير فقد ذكرها باسم مكة فقال عنها: "مكة شرفها الله، كلها مشهد كريم، كفاها شرفا من خصها الله به من مثابة بيته العظيم..."[6]وأيضا ذكرها باسم "البلدة" فقال عنها "هذه البلدة المباركة سبقت لها ولأهلها الدعوة الخليلية..."[7]وقال أيضا: "ولهذه البلدة المباركة حمامان..."[8] وبذلك يكون ابن جبير ذكرها باسمين فقط، مكة والبلدة من خلال استقصاء أقواله.

❖ أهمية مكة المكرمة وفضائلها:

لقد خص الله مكة بالخيرات والبركات حيث دلت الكثير من الآيات والأحاديث على ذلك. وقد ذكر ابن جبير فضل هذا المكان وعظمته فقال: "أما الأرزاق والفواكه وسائر الطيبات فكنا نضن أن الأندلس اختصت من ذلك بحظ له مزية على سائر حظوظ البلاد حتى حللنا بهذه البلاد المباركة فألفينها تغص بالنعم والفواكه: كالتين والعنب والرمان والسفرجل إلى جميع

1- سورة النمل، الآية 91.
2- سورة النحل، الآية 112.
3- سورة الفتح، الآية 27.
4- سورة التين، الآية 03.
5- صفي الرحمن المبارك كفوري، تاريخ مكة المكرمة، الرياض، 2002، ص15.
6- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص91.
7- المصدر نفسه، ص92.
8- المصدر نفسه، ص102.

البقول...إلى غير ذلك من الرياحين العبقة والمشمومات العطرة..."[1]وقال أيضا "...فما على الأرض ساعة من السلع ولا ذخيرة من الذخائر إلا وهي موجودة فيها مدة الموسم فهذه بركة لا خفاء بها وآية من آياتها التي خصها الله بها"[2].

ولمكة مكانة دينية عظيمة، فهي "أحب بلاد الله إلى الله، وأحبها إلى رسوله قبلة المسلمين، ومهوى أفئدتهم، ومأوى حجهم، ومجمع وفودهم، وملتقى جموعهم، حرمها الله تعظيما وإجلالا يوم خلق السماوات والأرض، بها الكعبة أول بيت وضع لعبادة الله على الأرض، وللبيت العتيق جعل الله حرما لتعظيمه، فجعل فيه الأمان حتى شمل ما فيه من الشجر والنبات فلا يقطع، وما فيه من الطير فلا ينحر، وجعل ثواب الأعمال فيه أفضل من ثوابها في غير...والصلاة فيه بمائة ألف صلاة ومن عظمة البيت أخذت مكة عظمتها ومن حرمته كانت حرمتها ومن أمانه"[3]، وقد قال الله تعالى عنها:﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنا ﴾[4]

كما أقسم الله بها لنبيه على عظمة قدرها فقال:﴿لَا أُقسِمُ بِهَٰذَا ٱلبَلَدِ﴾[5]

وهناك العديد من الآيات تدل على فضل مكة وعظمتها عند الله "فلا يخفى على أحد أن الحرم له محل عظيم القدر، أنزل الله تعالى عليه من الرحمات الشيء الكثير، كما شدد سبحانه وتعالى على حرمته وأمر بتعظيمه"[6].

وقد قال الله تعالى في فضل مكة:﴿وَإِذ قَالَ إِبرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجعَل هَٰذَا ٱلبَلَدَ ءَامِنا وَٱجنُبنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعبُدَ ٱلأَصنَامَ﴾[7]، وقال أيضا:﴿وَإِذ قَالَ إِبرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجعَل هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنا وَٱرزُق أَهلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[8]، وقال أيضا:﴿ أَوَ لَم يَرَوا۟ أَنَّا جَعَلنَا حَرَمًا ءَامِنا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِن حَولِهِم﴾[9]. فالمكة فضائل لا تعد ولا تحصى، وقد ذكر بعضها ابن جبير في رحلته، وأفرد لها عنواناً يتعلق بخيرات وبركات مكة المكرمة.

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص91.
2- المصدر نفسه، ص97.
3- صفي الرحمن المبارك كفوري، تاريخ مكة المكرمة ، ص7.
4- سورة آل عمران، الآية97.
5- سورة البلد، الآية 01.
6- عواطف محمد بن يوسف نواب، مقرر تاريخ وعمارة الحرمين الشريفين، مكة المكرمة، دط، 1433هـ، ص2.
7- سورة إبراهيم، الآية 35.
8- سورة البقرة، الآية 126.
9- سورة العنكبوت، الآية 67.

3- المدينة المنورة:

لعل من أهم مُدُن الحجاز التي سجلت تاريخ حضارتها عبر العصور، لما بها من معالم أثرية تبقى شواهد على عمق تاريخها، مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، "فقد خصها الله تعالى بفضل عظيم حيث جعلها ثانية الحرمين، ودار هجرة نبيه –صلى الله عليه وسلم–، وحصن نصرته، ومنطلق نور الإيمان إلى مختلف نواحي الأرض، وكان مسجدها ثاني المساجد التي تشد إليها الرحال، فيه الروضة المطهرة التي هي من رياض الجنة"[1]، وتضم أيضا جسد أعظم خلق الله (صلى الله عليه وسلم)، "كما بنى الصحابة (رضي الله عنهم) بيوتهم حول المسجد النبوي الشريف قريبا منه (صلى الله عليه وسلم) وأحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم"[2].فمكانتها عظيمة في نفوس المسلمين لقداستها ولاثارها المباركة فقد كان لها بصمة في الدعوة الإسلامية.

وقد اهتم ابن جبير بوصفها لأن مكانتها لا تقل أهمية عن مكة المكرمة "فالمدينة هي أقل من نصف مكة وهي في حرة سبخة الأرض ولها نخيل كثيرة، ومياه وزروعهم من الآبار يستقون منها العبيد وعليها سور والمسجد في نحو من وسطها وقبر النبي (صلى الله عليه وسلم) من المسجد في شرقيه قريبا من القبلة، وهو الجدار الشرقي من المسجد، وهو بيت مرتفع بينه وبين سقف المسجد إلا فرجة، وهو مسدود لا باب له وفيه قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وقبر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما"[3]

وهذا ما أكده ابن جبير من خلال تقديمه وصفا كاملا عن المدينة المنورة التي قال عنها: "وللمدينة المكرمة أربعة أبواب، وهي تحت سورين، في كل سور باب يقابله آخر، الواحد منها كله حديد، ويعرف باسمه باب الحديد، ويليه باب الشريعة ثم باب القبلة، وهو مغلق، ثم باب البقيع...وقبل وصولك سور المدينة من جهة الغرب بمقدار عُلوه تلقى الخندق الشهير ذكره الذي صنع النبي (صلى الله عليه وسلم) عند تحزّب الأحزاب وبينه وبين المدينة على يمين الطريق، العين المنسوبة للنبي وعليها خلق عظيم مستطيل، ومنبع العين وسط ذلك..."[4].كذلك اهتم ابن جبير

1- محمد ابن الحسن ابن زبالة، أخبار المدينة، المملكة العربية السعودية، ط1، 2003، ص5.
2- محمد إلياس عبد الغني، بيوت الصحابة (رضي الله عنهم) حول المسجد النبوي، ماجستير في الأدب الإسلامي، المدينة المنورة، (بتصرف)، ط2، 1417هـ، ص9.
3- الأصطخري، المسالك والممالك، ص18.
4- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 175، 176.

بوصف شكلها الداخلي، وما تميزت به حيث قال: "وللمدينة المكرمة سقاية ثالثة داخل باب الحديد يُهبط إليها على أدراج وماؤها معين، وهي بمقربة من الحرم الكريم."[1]

فضلا عن ذلك وصف الطريق المؤدية إليها فقال: " كانت مدينة كبيرة متصلة بالمدينة المكرمة والطريق إليها بين حدائق والنخل المتصلة، والنخيل المحدق بالمدينة من جهاتها وأعظمها جهة القبلة والشرق وأقلها جهة الغرب."[2]

وللمدينة مكانة تاريخية ودينية عظمى فهي أول عاصمة في تاريخ الإسلام، كما أن بها المسجد الذي بناه النبي الكريم محمد –صلى الله عليه وسلم–، ومنها انطلقت معظم أوامر الغزوات.

❖ **أسماؤها**: للمدينة المنورة أسماء كثيرة تدل على مكانتها العالية، حددها بعضهم في مائة اسم، غير أن الأسماء التي وردت في الآثار الصحيحة هي[3]:

1- **يثرب**: وقد شرح ابن خلدون سبب تسميتها بيثرب فقال: "أما المدينة وهي المسماة بيثرب فيه بناء يثرب بن مهلائيل من العمالقة وملكها بنو إسرائيل من أيديهم فيما ملكوه من أرض الحجاز ثم جاورهم بنو قيلة من غسان وغلبوهم عليها وعلى حصونها، ثم أمر النبي (صلى الله عليه وسلم) بالهجرة إليها لما سبق من عناية الله بها فهاجر إليها ومعه أبو بكر وتبعه أصحابه ونزل بها وبنى مسجده وبيوته في الموضع الذي كان الله عده لذلك"4. وبذلك سميت بهذا "الاسم شبه إلى اسم الرجل الذي أسسها وهو اسمها في الجاهلية، وقد غير رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هذا الاسم ووجه المسلمين إلى عدم استخدامه بعد الإسلام، وقد نهى الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن تسمية المدينة بيثرب، لأن التثريب في اللغة معناه اللوم، وأيضا الإفساد والتغليط".[5]

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 176.
2-المصدر نفسه، ص 174.
3- حافظ محمد باد شاه، الحجاز في أدب الرحلة العربي، ص 113.
4- عبد الرحمن ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، الجزء الثاني، ص 196.
5- صفي الرحمن المبارك كفوري، تاريخ المدينة المنورة، دار السلام-الرياض، ط1، 2002م، ص12.

2- **المدينة**:"وهو الاسم الذي اشتهرت به بعد الهجرة، وقد ورد في القرآن الكريم والحديث الشريف عدة مرات"[1]، فعن عبد الله بن زيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم "أن إبراهيم حرم مكة ودعا لها، وحرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة،ودعوت لها في مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم لمكة "[2].وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم"إن الإيمان ليأزر إلى المدينة كما تأزر الحية إلى جحرها"[3].

3- **طابة**: فقد قال (صلى الله عليه وسلم): "إن الله تبارك وتعالى سماها طابة"[4]، وطابة وطيبة وذلك لأنها طهرت من الشرك فكل طاهر طيب.

4- **طيبة**: وهو الاسم الذي أطلقه عليها رسول الله (صلى الله عليه وسلم).فعن زيد بن ثابت عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: "إنها طيبة تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الفضة"[5].

5- **الدار**: ورد في القرآن الكريم قوله تعالى:﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلإِيمَٰنَ مِن قَبلِهِم يُحِبُّونَ مَن هَاجَرَ إِلَيهِم وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِم حَاجَة مِّمَّا أُوتُواْ وَيُؤثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم وَلَو كَانَ بِهِم خَصَاصَة وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفسِهِۦ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلمُفلِحُونَ﴾[6].

6- **أرض الله**: لقوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِم قَالُواْ فِيمَ كُنتُم قَالُواْ كُنَّا مُستَضعَفِينَ فِي ٱلأَرضِ قَالُواْ أَلَم تَكُن أَرضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَة فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰئِكَ مَأوَىٰهُم جَهَنَّمُ وَسَاءَت مَصِيرًا ﴾[7].

ومن الأسماء الأخرى للمدينة المنورة: البارة، الحرم، الناجية، العذراء، الحبيبة، دار السنة، القدسية، المحببة...[8] كما اشتهرت المدينة المنورة بعدة أسماء منها ما أطلق عليها في العصر الجاهلي، ومنها ما أطلق عليها بعد ظهور الإسلام، على أن الاسم الذي عَرفَ ذيوعا في العالم الإسلامي هو المدينة المنورة كما أسماه الرسول –صلى الله عليه وسلم–

1- حافظ محمد باد شاه، المرجع السابق، ص114.
2- البخاري ومسلم، الجامع بين الصحيحين، دار القلم، دمشق،دط، ص 505
3- المرجع نفسه،ص 607.
4- المرجع نفسه، ص510.
5- المرجع نفسه، ص509.
6- سورة الحشر، الآية 09.
7- سورة النساء، الآية 97.
8- صفي الرحمن المبارك كفوري، (إعداد جماعة من العلماء)، تاريخ المدينة المنورة، ص12.

أما ابن جبير فقد وصفها باسم المدينة فقال عنها: "فنزلنا بظاهر المدينة الزهراء، والتربة البيضاء، والبقعة المشرفة بمحمد سيد الأنبياء –صلى الله عليه وسلم– صلاة تتصل مع الأحيان والآناء"[1].ووصفه إياها بالزهراء جاء لما لها من فضائل وبركة، كما أنها تعتبر ثاني الأماكن المقدسة ومقصدا مهما للمسلمين والرحالين

❖ فضائل المدينة المنورة:

للمدينة المنورة مكانة عالية عند الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم)، وهذا ما أكدته الأحاديث النبوية التي تدل على بركة هذا المكان وقداسته. ومن الأحاديث والآثار التي تؤكد هذه المكانة ويثبت للمدينة فضلها،قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن أهل المدينة عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "اللهم بارك لهم في مكيالهم، وبارك لهم في صاعهم ومدهم"[2].

كما وصف صلى الله عليه وسلم فضلها فقال: "فالمدينة كلها خير، فيها تضاعف الأعمال، فالصلاة فيها كألف صلاة فيما سواها إلا المسجد الحرام، وعلى أبواب المدينة ملائكة فلا يدخلها الطاعون ولا الدجال، وبها روضة من رياض الجنة، ومن مات بها ضمن شفاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) يوم لا ينفع مال ولا بنون"[3].

ومن فضائل المدينة العظام أيضا أنها تنفي شِرار الناس عنها، أما الطيب فيتميز ويستقر فيها، فعن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: "إن الإيمان ليأزز إلى المدينة كما تأزز الحية إلى جحرها"[4]، لذلك نجد أي رَحّالة يزور بلاد الحجاز، يصف قداسة المدينة وفضلها، ومنهم ابن جبير الذي وصف مسجدها النبوي وروضته الكريمة والبقيع وغيرها من الأماكن المباركة للمدينة المنورة، فقال عنها: "نزلنا بظاهر المدينة الزهراء، والتربة البيضاء، والبقعة المشرفة لمحمد سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم صلاة تتصل مع الأحيان والآناء"[5].

ولقد اهتم ابن جير كغيره من الرحالة بوصف مسجدها النبوي وروضته الكريمة.

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 167.
2- البخاري ومسلم، الجامع بين الصحيحين، ص 505و506.
3- صفي الرحمن المبارك كفوري، المرجع السابق، ص 07.
4- البخاري ومسلم، المرجع السابق، ص 507.
5- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 167.

ب- **الشام وحواضرها**: للشام وحواضرها مكانة دينية وتاريخية، إذْ تعتبر مهبط الأنبياء، كما أنها تمثل موقعا استراتيجيا على حدود لشريط بين ثلاث قارات، بل تعد حلقة وصل بين الشرق والغرب، "برغم بعدها عن طريق الحج فقد كانت مقصدا للأندلسيين المغاربة وقل أن رحل أندلسي إلى المشرق ولم يزر الشام حتى في أظلم عهودها كعهد الفاطميين، وقد آثرها بعضهم على وطنه فأقام بها وتزوج منها وتعلم بها، وأفاد بعلمه أهلها، ومكث آخرون زمنا فيها ثم عادوا إلى بلادهم ذلك أن الشام ودمشق خاصة، كان لها اسم رنان من النواحي السياسية والدينية والعلمية، ففيها تأسست أول إمبراطورية عربية، امتدت من الصين إلى الأندلس ومنها توسع الإسلام وبدأ عزّ العرب"[1]، ومن أهم حواضر الشام:

1- **دمشق**: إنها من أهم حواضر الشام لعظمتها وعراقة تاريخها، خاصة فيما يتعلق بالجانب الديني، فهي "إحدى المدن التي نشرت فضائلها ونوه بمحاسنها، وقد نسبت إليها فضائل كثيرة لكثرة الدول التي حكمت بها، وطول الأزمان التي مرت عليها ولعلها أوتيت من الفضائل ما لم يؤته من البلاد غيرها"[2]. وقد قال عنها العلامة اليعقوبي: "مدينة دمشق جليلة قديمة وهي مدينة الشام في الجاهلية والإسلام وليس لها نظير في جميع بلاد الشام في أنهارها ومبانيها وكثرة عمارتها، افتتحت في خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) سنة أربع عشرة وبانيها اسمه دماشق بن نمرود بن كنعان وقيل دمشق بن قاني بن مالك ابن أرفخشد بن سام بن نوح (عليه السلام) وقيل سعد بن عاد وبنى فيها قصرين لوالديه يريد وجبرون، ولما بنى دمشق سماها إرم وعلى هذا نقلت الأخبار إن إرم ذات العماد هي دمشق يقال إنه كان فيها أربعمائة ألف عمود"[3].

وقد أعجب ابن جبير كثيرا بدمشق ربما للتشابه الموجود بينها وبين الأندلس في جمال الطبيعة ورقة الهواء، لذلك قال ابن جبير عن جمالها: "جنة المشرق ومطلع حسن المؤنق المشرق، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها، وعروس المدن التي اجتليناها، قد تحلت بأزاهير الرياحين وتجلت في حلل سندسية من البساتين، وحلت من موضوع الحسن بالمكان المكين، وتزينت في منتصفها أجمل تزيين، وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه (صلى الله عليهما) منها إلى ربوة

1- صلاح الدين المنجد، المشرق في نظر المغاربة والأندلسيون في القرون الوسطى، دار الكتاب، بيروت، ط1، 1963، ص20.
2- أبي الحسن علي بن محمد الربيعي المالكي، فضائل الشام ودمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق، دط، 1950، ص07.
3- أبي عبد الله محمد البدري الحصري الدمشقي، نزهة الأنام في محاسن الشام، القاهرة، دط، 1341هـ، ص51.

ذات قرار ومعين، ظل ظليل وماء سلسبيل، تنساب مذانبه انسياب الأراقم بكل سبيل ورياض يُحيي النفوس نسيمها العليل..."[1].

وقد عرفت دمشق بجمال جبالها وسهولها الشاسعة بالإضافة إلى مواردها المائية الوفيرة لذلك أعجب بها معظم الرحالة. ولعظم جمال دمشق جعل معظم الرحالة يزورنها ويكتبون عن حسنها ما قاله الإدريسي: "ولدمشق في داخلها على أوديتها أرجاء كثيرة، والحنطة فيها كثيرة جدا، وكذلك أنواع الفواكه...فهي أعز البلاد الشامية وأكملها حسنا..."[2].

كما زار بنيامين التطيلي دمشق وقال عنها:"دمشق مدينة كبيرة وجميلة يدور بها سور، وتحيط بها قرى فائقة الحسن...وحدائقها وبساتينها تبلغ من الجمال حدا قلما يوجد مثله في الدنيا..."[3]

كذلك زار المقري دمشق في القرن الحادي عشر فقال: "...رحلت إلى المدينة التي ظهر فضلها وبان، دمشق الشام ذات الحسن إليها والحياء والاحتشام...والأرواح المتضوعة، حيث المشاهد المكرمة والمعاهد المحترمة، والغوطة الغناء...والمكارم التي يُباري فيها المرء بشاشة وصديقة..."[4]

كما وصف الإدريسي جمالها فقال: "ومدينة دمشق من أجلّ بلاد الشام وأحسنها مكانا وأعدلها هواء وأطيبها ثرى وأغزرها فواكه وأعمقها خصبا وأوفرها مالا وأكثرها جندا وأشمخها بناء"[5].

إذن، لا يوجد رحالة إلا وأعجب بجمال دمشق وذكر محاسنها، فهي تنفرد بخصائص وفضائل تميزها عن باقي المدن "فمحاسنها كثيرة لا تستقصى، وأوصاف صفاتها تتضاعف أعدادها ولا تحصى قصرت عن استيفائها أرباب التواريخ المطولة الحسنة وحفيت سوابق فحول أقلامهم في

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص234.
2- أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن الإدريسي الحمودي الحسني الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، دط، القاهرة، 1422هـ، 2008م، المجلد الأول، ص 369
3- صلاح الدين المنجد، المشرق في قطر المغاربة والأندلسيون في القرون الوسطى، ص 58.
4- أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج1، ص73.
5- أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص366.

ميادين الطروس أن يدركوا حصر بعضها في مصنفاتهم المدونة"[1]، لذلك نالت دمشق إعجاب كل من زارها وأبدع في وصفها وذكر محاسنها.

❖ خصائص دمشق:

إن لدمشق آثارا تاريخية ودينية عظيمة، ذكرها ابن جبير وفَصَّلَ في وصفها، ومنها وجود الجامع الأموي بها، ومشاهد أهل البيت وجبل قاسون وغيرها، "فدمشق أرض مقدسة ورد في فضلها أحاديث كثيرة تنوقلت ورويت كثيرا وحسب هذه الأحاديث بأنها أرض مباركة، حث الرسول (صلى الله عليه وسلم) أمته على سكانها وهي مقر دار المؤمنين عند وقوع الفتن، وهي صفوة الله من بلاده وإليها يجتبي خيراته من عباده، وهي أرض المحشر والمنشر فهي أرض ألطاف الله بأهلها متداركة وهي مدن الجنة ومهبط عيسى قبل قيام الساعة...وثمة أمر آخر كان الأندلسيون يعظمون دمشق من أجله هي وجود نعل النبي (عليه الصلاة والسلام) فيها قد بهج بهذه النعال كثيرون من كبار الأندلسيين والمغاربة كأبي بكر العربي وابن الحاج وابن رشد، وقد ذكر أقوالهم المقري في كتابه "فتح المقال في مدح النّعال" وكانت هذه النعال عند أسرة شريفة من أسر دمشق...كذلك وجود مصحف عثمان في المسجد الأموي، وما كان حول دمشق من قبور الصالحين والأنبياء"[2].

وقد وصفها ابن جبير وفَصَّلَ في ذكرها حيث كانت في القرن السادس مركزا تستقطب فيه الرحالة من كل حدب وصوب، وتتميز دمشق بكثرة الأنهار وقد ذكرها البكري في معجمه فقال: "ومن خصائص دمشق التي لم أر في بلد آخر مثلها كثرة الأنهار بها وجريان الماء في قنواتها فقل أثمر بحائط إلا والماء يخرج منه في أنبوب إلا حوض يشرب منه ويسقي الوارد والصادر...وهي أرض مستوية تحيط بها من جميع جهاتها الجبال الشاهقة، وبها جبل قاسيون ليس في موضع من المواضع أكثر من العباد الذين فيه وبها مغاور كثيرة وكهوف وآثار الأنبياء والصالحين لا توجد في غيرها..."[3]

1- أبي البقاء عبد الله بن محمد البدري الحصري الدمشقي، نزهة الأنام في محاسن الشام، ص10.
2- صلاح الدين المنجد، المشرق في نظر المغاربة والأندلسيون (بتصرف)، ص 21،22.
3- شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، دط، بيروت، دت، المجلد 2، ص 465.

ووصف ابن جبير كثرة المياه والأنهار في دمشق فقال: "...وماء سلسبيل تنساب منابعه انسياب الأراقم بكل سبيل...قد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الظمأ، فتكاد تناديك بها الصم الصلاب، اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب..."[1]وكثرة الأنهار هي الصفة التي أكد عليها رحالة آخر هو عبد المنعم الجلياني الذي عاصر ابن جبير فقال عن دمشق: "إن مدينة دمشق جلق لمن أبدع ما خلق، جلل ظاهرها الزهران...وتخلل باطنها الطاهران...ويبرد في المصيف بحرانها، ويسري عروقا في أغصانها نابضة، في أزقتها أفواه تمج فصل ريقها"[2]. كما قال عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن سعيد عن كثرة المياه بمدينة دمشق: "...فلله ما تضمن داخلها من الحور والولدان، وما زين به خارجها من الأنهار والجنان وبالجملة فإنها جمى عن إدراكها أعناق الفصاحة وتقصر عن مناولتها في ميدان الأوصاف كل راحة"[3].

فضلا عن ذلك وصف ابن جبير شكلها الخارجي فقال عنه: "...لهذه البلدة ثمانية أبواب: باب شرقي، وفيه منارة بيضاء...ثم باب السلامة ثم باب الفراديس وهو شمالي ثم باب الفرج ثم باب النصر، وهو غربي، ثم باب الجابية كذلك، ثم باب الصغير، وهو بين الغرب والقبلة..."[4]

وأضاف قوله عن المشاهد المكرمة: "...والمشاهد المباركة في هذه البلدة أكثر من أن تنضبط بالتقييد..."[5]، وقال أيضا "...وفي داخل البلد كنيسة لها عند روم...وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة وبها مارستان..."[6].

وقد اهتم ابن جبير أيضا بحواضر الشام الأخرى خاصة التي كان لها عمق تاريخي أو ديني، ومن هذه الحواضر مدينة حلب التي لها تاريخ عريق فقد "سميت حلب لأن إبراهيم (عليه السلام) كان يحلب فيها غنمه في الجمعات ويتصدق به، فيقول الفقراء حلب حلب...وهذا فيه

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 234.
2- صلاح الدين المنجد، المشرق في نظر المغاربة والأندلسيون (بتصرف)، ص 41.
3- المرجع نفسه، ص 43.
4- ابن جبير، المصدر السابق، ص253.
5- المصر نفسه، ص253.
6- المصدر نفسه، ص 225

نظر..."[1]. وحلب بلد مسور "بحجر أبيض وفيه ستة أبواب وفي جانب قلعة في أعلاها مسجد، وكنيستان وفي إحداهما كان المذبح الذي قرب عليه إبراهيم (عليه السلام) في أسفل القلعة..."[2].

كما وصف ابن جبير قداستها فقال: "بلدة قدرها خطير، وذكرها في كل زمان يطير، يحط بها من الملوك كثير، ومحلها من التقديس أثير..."[3].

أضف إلى ذلك وصفه قلعتها الشهيرة التي سنقف عندها في الفصل الثالث. ثم يواصل ابن جبير وصفه لحمص ومناطق أخرى للشام التي نالت إعجاب ابن جبير ليس فقط في جمال طبيعتها ومكانتها التاريخية والدينية وآثارها بل أيضا في أهل الشام وما عُرف به من شيم وخصال من إكرام للحجاج وغيرها، مما جعلته يمكث أكثر في هذا المكان.

ج- **مصر**: لما حط ابن جبير رحاله بمصر وحواضرها، خص الإسكندرية والقاهرة بوصف خاص، لعراقتها وتاريخها العظيم. ورغم أنه انتقد في أول وصوله إلى الإسكندرية ما فعله أصحاب المكوس المصريين مع الحجاج المسلمين والمغاربة الذي أثار سخطه، إلا أنه أعجب بآثار الإسكندرية والقاهرة وبشخصية صلاح الدين الأيوبي وخصاله، "فمصر كانت ممرا لابد منه، يمر به جميع الذين كانوا يقصدون المشرق من علماء الأندلس والمغاربة ويبغون الحج أو طلب العلم أو الثراء وكانت القاهرة والإسكندرية، أعظم المدن التي يلقاها هؤلاء القاصدون إذا خرجوا من ديارهم اتساعا وضخامة عمران ووفرة سكان، وعلى الرغم من كثرة الواردين إلى القاهرة من المغرب والأندلس فإن ما وصل إلينا منهم عنها قليل، وخاصة قبل القرن السادس"[4].

ويخصُّ الرحالة الإسكندرية والقاهرة بوصف ممتع مفيد ومما قاله عن الإسكندرية: "فأول ذلك حسن وضع البلد واتساع مبانيه، حتى إنا ما شاهدنا بلدا أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى ولا أعتق ولا أحفل منه، وأسواقه في نهاية من الاحتفال أيضا ومن العجب في وصفه أن بناءه تحت الأرض كبنائه فوقها وأعتق وأمتن، لأن الماء من النيل يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الأرض فتصل الآبار بعضها ببعض ويمد بعضها بعضا، وعاين فيها أيضا من سواري الرخام وألواحه كثره وعلوّا واتساعا وحسنا ما لا يتخيل بالوهم، حتى إنك تلقي في بعض الممرات بها سواري يغص الجو

1- شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، ج30، ص282.
2- المرجع نفسه،ص 30.
3- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص225.
4- صلاح الدين المنجد، المشرق في نظر المغاربة والأندلسيون في القرون الوسطى(بتصرف)، ص57.

بها صعودا لا يُدري ما معناها ولا لم كان أصل وضعها"[1].فقد وصف ابن جبير مسالكها الواسعة، وماء نيلها الذي يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الأرض،فقد أعطانا لوحة فنية في وصفه لجمال الإسكندرية.

إنّ الإسكندرية هي ميناء بحري رئيسي وتاريخي لمصر، وثان أكبر المدن المصرية بعد القاهرة،" أسسها الإسكندر الأكبر عام (322ق.م)، وكانت منذ تأسيسها منارة للعلم،...كما أنها مدينة تجارية وتاريخية بها آثار رومانية كما أنها شهدت عبر تاريخها الطويل العديد من الأحداث والوقائع والحروب...وعلى مدى العصور الممتدة قد ربطت الشرق بالغرب تجاريا وعلميا وفلسفيا ولشهرتها، فإن العديد من بلدان العالم أطلقت اسمها على بعض مدنها وكان فيها العديد من الآبار وحولها أسوار عالية وفيها أسواق عامرة"[2].وتاريخها حافل بالأحداث، وأماكنها شاهدة على ذلك، فقد قال العبدري عنها في رحلته: "مدينة الحصانة والوثاقة وبلد الإشراق اللامع والطلاقة، وطلاوة المنظر وحلاوة المذاق...كما قال أيضا: مدينة فسيحة الميدان، صحيحة الأركان، مليحة البنيان تسفر عن محيا جميل المنظر، وترنو بطرف ساج أحور، وتبسم عن ثغر كالأقحوان..."[3]. لهذه الأهمية اهتم ابن جبير بوصف أماكنها وآثارها التي سنتحدث عنها في الفصل الثالث بالتفصيل.

❖ **القاهرة**: وصف ابن جبير القاهرة واهتم بوصف آثارها ومشاهدها العظيمة "فمن ذلك المشهد العظيم الشأن بمدينة القاهرة حيث رأس الحسين..."[4]ووصف قرافة وقلعة القاهرة وصفا مسهبا كما وصف أيضا مسجد ابن طولون ومسجد عمرو بن العاص الذي سنتعرض لهما بدراسة في الفصل الثالث.

ثم إنّ ابن جبير لم يصف لنا القاهرة وشكلها وموقعها فحسب بل اهتم بوصف آثارها العظيمة ومشاهدها المباركة وقد انبهر بعجائبها، وقد قال العبدري عنها في رحلته: "مدينة كبيرة القطر، وساكنها يحاكي عديد الرمل والقطر، وهي مع ذلك تصغر عن أن يسطر ذكرها في سطر..."[5]. ووصف ابن سعيد الأندلسي هو أيضا القاهرة التي انتقل إليها في القرن السابع،وقدم

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 14.
2- عبد الحكيم العفيفي، موسوعة (1000) مدينة إسلامية، مكتبة الإسكندرية، ص 47، 98.
3- العبدري البلسني، رحلة العبدري، ص 210، 211.
4- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 19.
5- العبدري البلسني، المصدر السابق، ص77.

لنا وصفا دقيقا للفسطاط والقاهرة فقال عنها: "أما مدينة القاهرة، فهي الحالية الباهرة، التي تفنن الفاطميون وأبدعوا في بنائها، واتخذوها قطبا لخلافتهم وسميت القاهرة لأنها تقهر من شد عنها ورام مخالفة أميرها"[1].

ووصفها ابن بطوطة أيضا في رحلته فقال عنها: "ثم وصلت إلى مدينة مصر (القاهرة) هي أم البلاد، وقرارة فرعون ذي الأوتاد...المتناهية في كثرة العمارة والمتباهية بالحس والنضارة، مجمع الوارد والصادر. ومن رحال الضعيف والقادر، وبها ما ...ما عالم وجاهل..."[2]. فنجد أن وصف ابن بطوطة ربطه بالجانب التاريخي للقاهرة كما اعتبرها محطة يمر عليها كل عابر إلا أنّ ابن جبير مقارنة مع غيره قدم وصفا مبهرا عن القاهرة والإسكندرية، وآثارهما رغم أنه لم يطل الإقامة بها مدة طويلة باعتبارها ممراً للحجاج.

د- **العراق**: تعد العراق من المناطق التي زارها ابن جبير وكتب عن آثارها رغم أنه وصف خرابها بعد انحطاط خلافتها وزوال بريقها ومن أهم حواضرها "بغداد".

بغداد: تعتبر عاصمة الخلافة العباسية التي كانت تحتضر في تلك الفترة بسبب توالي الحروب الصليبية والتفكك الذي عرفته"وكانت بغداد أقل البلدان المشرقية حظا من وصف المغاربة لأهل الأندلس فالنصوص التي وصلت إلينا عنها، من هؤلاء قليلة جدا، رغم أن كثيرين من أهل الأندلس دخلوها أو أقاموا بها، وأخذوا العلم عن شيوخها أو اجتازوها قاصدين علماء خرسان لأخذ الحديث عنهم...ولا شك أن الذين زاروا منهم القاهرة ودمشق من أهل المغرب والأندلس كانوا أعظم عددا من الذين زاروا منهم بغداد، فالقاهرة كانت ممرا طبيعيا لأهل المغرب، عندما يقصدون المشرق، ودمشق أحيطت بكثير من ألوان القداسة والبركة والبطولة، أما بغداد فكانت بعيدة، لا تقصد إلا لعلمائها، أو لتكون مرحلة في سطر طويل يهدف إلى علماء الأقاليم النائية عنها، ويعد ابن جبير الرحالة الوحيد الذي أطنب في ذكر بغداد ممن سبقه فقد زارها سنة (580هـ) في خلافة الناصر لدين الله"[3].

واهتم ابن جبير بوصف كل ما يخص العراق رغم أنه انتقد كثيرا أهلها وتصرفاتهم إلا أنه أبدى ملاحظات قيمة فيما يخص آثارها وعلماؤها وعمارتها، فقد وصف ابن جبير بغداد قائلا:

1- صلاح الدين المنجد، المشرق في نظر المغاربة والأندلسيون في القرون الوسطى، ص88 و89.
2 -المرجع نفسه، ص 98.
3- المرجع نفسه، ص115.

"هذه المدينة العتيقة، وإن لم تزل حضرة الخلافة العباسية، ومثابة الدعوة القرشية الهاشمية، قد ذهب أكثر رسمها، ولم يبق منها إلا شهير اسمها، وهي بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إنحاء الحوادث عليها والتفات أعين النوائب إليها، كالطل الدارس، والأثر الطامس، أو تمثال الخيال الشاخص، فلا حسن فيها يستوقف البصر ويستدعي من المستوفز العقلة، والنظر إلا دجلتها التي هي بين شرقيها وغربيها منها كالمرأة المجلوة بين صفحتين"[1].

كما أشار ابن جبير إلى عراقتها التاريخية وقدم لنا وصفا ومعلومات طبوغرافية عن بغداد في أيامه، فهو يذكر أن الجانب الغربي منها قد عمه الخراب وقد كان معمورا من قبل، وأن الجانب الشرقي معمورا، لكن عمارته محدثة[2].ويتحدث لنا عن مجالس الوعظ والإرشاد فيها، ويذكر حماماتها وأسواقها ومدارسها وغيرها، "فبغداد هي أم الدنيا وسيدة البلاد فقد قال عنها بعض الفضلاء: بغداد جنة الأرض ومدينة السلام وقبة الإسلام ومجمع الرافدين وغرة البلاد وعين العراق ودار الخلافة ومجمع المحاسن والطيبات ومعدن الطرائف واللطائف وبها أرباب الغايات في كل فن، وآحاد الدهر في كل نوع، وكان أبو إسحاق الزجاج يقول: بغداد حاضرة الدنيا وما عداها البادية وكان أبو الفرج يقول: هي مدينة السلام بل مدينة الإسلام، فإن الدولة النبوية والخلافة الإسلامية بها عشنا وفرحنا...ولم تزل بغداد موطن الأكاسرة في سالف الأزمان ومنزل الخلفاء في دولة الإسلام، وكان ابن العميد إذا طرأ عليه أحد من منتحلي العلوم والآداب وأراد امتحان عقله سأله عن بغداد"[3]. وبذلك يكون ابن جبير قد رصد كل آثار الخلافة العباسية في مدينة بغداد من دور وحمامات وأسواق وغيرها، كما أشار أنها مدينة علم بما جادت به من علماء ومجالس للعلم والوعظ.

لم يترك ابن جبير منطقة في العراق إلا ووصفها رغم أنه أسهب في وصف بغداد مقارنة مع الحواضر الأخرى، فبعدما تنقل من المدينة إلى بغداد، ذكر مدينة الكوفة التي قال عنها أبو بكر محمد بن القاسم: سميت الكوفة لاستدارتها أخذ من قول العرب، رأيت كوفانا وكوفانا: بضم الكاف وفتحها، للرملية المستديرة، وقيل سميت الكوفة كوفة لاجتماع الناس بها من قولهم: قد تكوف الرمل ويقال أخذت الكوفة من الكوفان: يقال هم في بلاء وشر، وقيل سميت كوفة لأنها قطعة من البلاد من قول العرب: قد أعطيت فلان كيفة أي قطعة"[4]. في حين قال عنها ابن جبير:

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص193.
2- ينظر صلاح الدين المنجد، المشرق في نظر المغاربة والأندلسيون في القرون الوسطى، ص115.
3- شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان(المجلد الأول)، ص 157.
4- المرجع نفسه (المجلد الثاني)، ص 490، 491.

"هي مدينة كبيرة عتيقة البناء، قد استولى الخراب على أكثرها، فالغامر أكثر من العامر، ومن أسباب خرابها قبيلة خفاجة المجاورة لها، فهي لا تزال تضر بها، وكفاك بتعاقب الأيام والليالي محييا ومغنيا، وبناء هذه المدينة بالآجر خاصة ولا سور لها..."[1]. شرح الخراب الذي أصاب مدينة الكوفة وربطها بحقائق تاريخية، فالمعروف عنه أنه يشرح ويحلل كل ما يشاهده وفق ثقافته الدينية والتاريخية كما أنه ذكر آثارها وجامعها المشهور ومن الكوفة ذكر مدينة الحلة وقال عنها: "هي مدينة كبيرة عتيقة الوضع، مستطيلة، لم يبق من سورها إلا خلف من جدار ترابي مستدير بها، وهي على شط الفرات، يتصل بها من جانبها الشرقي ويمتد بطولها...وهي قوية العمارة كثيرة الخلق، متصلة حدائق النخيل داخلا وخارجا فديارها بين حدائق النخيل، وألفينا بها جسرا عظيما معقودا على مراكب كبار..."[2].

وذكر أيضا مدينة تكريت ووصفها فقال عنها: "هي مدينة كبير واسعة الأرجاء، فسيحة الساحة، حفيلة الأسواق، كثيرة المساحة، غاصة بالخلق، أهلها أحسن أخلاقا، وقسطا في الموازين من أهل بغداد..."[3] كما ذكر مدينة الموصل التي قال: "هذه المدينة عتيقة ضخمة، حصينة فخمة، قد طالت صحبتها للزمن فأخذت أُهبة استعدادها لحوادث الفتن، قد كادت أبراجها تلتقي انتظاما لقرب مسافة بعضها من بعض..."[4].

ثم وصف مدينة نصيبين ورأس العين وغيرهما، ومن ثم يكون ابن جبير قد تنقل بين مدن العراق ووصف كل ما يتعلق بها من جوانب سياسية واجتماعية ودينية.

انتقل بعد ذلك إلى عكا وصور اللتين كانتا تحت حكم الصليبيين، وأبدى العديد من الملاحظات، فقد لاحظ في عكا تحويل معالمها الحضارية الإسلامية، فمساجدها أصبحت كنائس، كما أنه لفت نظره وجود متطوعين مغاربة للقتال ضد الصليبيين وعلى الرغم من أن الحروب مشتعلة، فقد كانت مدينة عكا ملتقى تجار المسلمين والنصارى. قال عنها: "هي قاعدة مدن الإفرنج بالشام، ومحط الجواري المنشآت في البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة، والمشبهة في عظمها بالقسطنطينية، مجتمع السفن والرفاق، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق، سككها وشوارعها تغص بالزحام، وتضيق فيها مواطن الأقدام، تشعر كفرا وطغيانا..."[5]

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 187.
2- المصدر نفسه ، ص 189.
3- المصدر نفسه، ص208.
4- المصدر نفسه، ص 210.
5- المصدر نفسه ، ص 276.

أيضا وصف مدينة صور التي كانت تحت حكم الصليبيين، فقال: "مدينة يضرب بها المثل في الحصانة لا تُلقي لطلبها بيد الطاعة ولا استكانة قد أعدها الإفرنج مفزعا لحادثة زمانهم، وجعلوها مثابة لأمانهم، هي أنظف من عكة سككا وشوارع، وأهلها ألين في الكثير من الطبائع..."[1]. ونلاحظ أن ابن جبير سجل أهم ملاحظاته عن هاتين المدينتين خاصة فيما يتعلق بالجانب السياسي لأنهما كانتا تحت حكم الصليبيين في تلك الفترة.

هـ- **صقلية**: انطلق ابن جبير إلى جزيرة صقلية التي اعتبرها ابنة الأندلس في كثرة الخصب والرفاهة، فصقلية هي" مدينة في البر الشمالي الشرقي الذي عليه قسطنطينية وهي مقابلة ريو...وهي جزيرة خصيبة كثيرة البلدان والقرى والأمصار...وذكر أبي الفضل أن بصقلية ثماني عشرة مدينة أحداها بلرم، وأن فيها ثلاثمائة ونيفا وعشرين قلعة...وبها عيون غزيرة وأنهار جارية ونزه عجيبة...وهي مدينة عظيمة شامخة وحولها من الحرث والبساتين شيء كثير، وكل ذلك يحويه باب المدينة، وهي شاهقة في الهواء، والأنهار تتقطر من أعلاها وحولها وكذلك جميع جبال الجزيرة...وفيها معدن والفضة والنحاس والرصاص...وكلأها لا ينقطع، ومن فضل جزيرة صقلية أن ليس بها سبع ضار ولا نمر ولا ضبع ولا عقرب...وفيها معادن الذهب موجودة في كل مكان...والغالب على صقلية الجبال...والحصون..."[2]. وقد أفاض ابن جبير في وصف هذه الجزيرة ومدنها وذلك لجمال طبيعتها ولعراقتها التاريخية والحضارية خاصة فيما يتعلق بالوجود الإسلامي في هذا المكان.

ومن مدن جزيرة صقلية التي ذكرها ابن جبير مدينة مسينة التي قال عنها: "هذه المدينة موسم تجار الكفار، ومقصد جواري البحر من جميع الأقطار كثير الأرفاق برخاء الأسعار، مظلمة الآفاق بالكفر لا يقر فيها لمسلم قرار، مشحونة بعبدة الصلبان، تغص بقاطنيها، وتكاد تضيق ذرعا بساكنيها..."[3].وقد اهتم رحالتنا بوصف الجانب الديني في هذه المدينة لما شاع فيها الكفر، مما يفسر عدم وجود المسلمين فيها. وقال أيضا عنها: "رأس جزيرة صقلية، وهي كثيرة المدن والعمائر وتسميتها تطول...وطول هذه الجزيرة صقلية، سبعة أيام، وعرضها مسيرة خمسة أيام"[4].

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص277.
2- شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، المجلد الثالث، ص 417، 418.
3- المصدر نفسه ، ص 296.
4- المصدر نفسه، ص 296.

وكذلك وصفه لمدينة شفلودي بجزيرة صقلية وذكره لوجود المسلمين بهذا المكان، حيث قال: "هي مدينة ساحلية كثيرة الخصب، واسعة المرافق، منتظمة أشجار الأعناب وغيرها، مرتبة الأسواق، تسكنها طائفة من المسلمين، وعليها قمة جبل واسعة مستديرة..."[1].

كذلك وصف مدينة ترمة وأطرابش وبلرمو عاصمة صقلية النورمانية التي ذُهِل بجمالها فقال عنها: "هي بهذه الجزائر أم الحضارة والجامعة بين الحسنين نضارة وحضارة"[2] ولعل من أهم الأمور التي اهتم بها ابن جبير في هذه الجزيرة هو ذكر حال المسلمين والإسلام ومعيشتهم بها.

2) الحضور البشري

لكل مكان آثاره وشخصياته التي تركت بصماتها، ورسمت تاريخ هذه الأماكن، وجسدتها بأعمالها وأفعالها، فظلت خالدة على مر الأزمان.ورحالتنا ابن جبير كباقي الرحالين زار أماكن وذكر مجموعة من الشخصيات كان لها مآثر وإنجازات على العباد والبلاد من عدة نواحي. فأُعجب بها لما تركته من الآثار العمرانية كالمساجد والمدارس خلدتها عبر التاريخ، ومن أهم هذه الشخصيات التي نالت حظا كبيرا من الوصف في رحلة ابن جبير نذكر:

أ- **صلاح الدين الأيوبي**: إنها من الشخصيات التي أعجب بها ابن جبير وأسهب في ذكر خصالها وصفاتها، ولشدة إعجابه بها خَصَّصَ رحلة أخرى من أجلها بعد انتصار صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين وتحرير بيت المقدس، فعندما قدم ابن جبير إلى الإسكندرية استاء من أصحاب المكوس ومعاملته للحجاج، لكنه أشاد بصلاح الدين الأيوبي الذي حمى الحجاج وأزال المكوس عنهم،كما أن له مآثر أخرى علمية واجتماعية وتتمثل في بناء المساكن والمدارس والمستشفيات التي كانت تأوي الحجاج فقال عنها: "ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه: المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطب والتعبد، يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوي إليه..."[3].وقد أعجب ابن جبير بشخصية صلاح الدين الأيوبي وحسن معاملته للحجاج.

ومن مظاهر اعتناء هذا السلطان بالغرباء الطارئين "أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم، ووكل بهم الأطباء يتفقدون

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 301.
2- المصدر نفسه، ص305.
3- المصدر نفسه ، ص 15

أحوالهم، وتحت أيديهم خُدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء"[1]. كذلك قال عنه "ومن أشراف هذه المقاصد أيضا أن السلطان عين لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان في كل يوم بالغا ما بلغوا..."[2].

ثم إنّ لصلاح الدين الأيوبي الفضل في بسط العدل ونشر الأمن بإزالة الضرائب وتأمين طريق للحجاج لذلك قال عنه رحالتنا: "...وهذا السلطان الذي سنن هذه السنن المحمودة ورسم هذه الرسوم الكريمة على عدمها في المدة البعيدة هو صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب، وصل الله صلاحه وتوفيقه."[3]

ومن خصال هذا السلطان أيضا، بناؤه لمارستان بالقاهرة، وهو قصر من القصور الرائعة حسنا واتساعا، أيضا إعماره لمسجد ابن طولون وهو من الجوامع العتيقة الأنيقة الصنعة، فصلاح الدين الأيوبي له عدة آثار صنعت منه شخصية نموذجية.

أما عن نسب القائد الكردي فهو"ينتمي إلى عائلة كردية، كريمة الأصل عظيمة الشرف هذه العائلة ملكت مصر والشام وعرفت بالدولة الأيوبية"[4]،ترعرع في كنف والده الذي أعده لتقلد المناصب، "فلما تملك الملك العادل نور الدين دمشق لازم الأمير نجم الدين أيوب ولده يوسف بخدمته وكانت مخايل السعادة على صلاح الدين لائحة، ومنه تعلم طريق الخير وفعل المعروف والاجتهاد، في أمور الجهاد حتى أظهر للسير مع عمه أسد الدين شيركوه إلى الديار المصريين، ولم يزل أسد الدين آمرا ناهيا بالديار المصريين، وابن أخيه صلاح الدين يُباشر الأمور بنفسه بكل عناية وحسن رأي وسياسة نقد، وفي ولاية أبيه علي بعلبك، درس صلاح الدين العلوم الإسلامية وفنون القتال...فضلا عن اهتمامه بالعلوم الدينية..."[5]. فطريقة نشأت صلاح الدين الأيوبي هي التي أهلته لتقلد المناصب وكونته ليكون قائدا ،فقد نشأ وتربى بين أحضان أسرته، "وأخذ عن أبيه نجم الدين براعته في السياسة واكتسب من عمه شيركوه شجاعته في الحروب، فنشأ متشبعا بالدهاء السياسي والروح الحربية، كما تعلم علوم عصره، فحفظ القرآن ودرس الفقه والحديث، وتتلمذ على

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص15.
2- المصدر نفسه، ص 15.
3- المصدر نفسه ، ص16.
4- عبد الله ناصح علوان، صلاح الدين الأيوبي (بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين 532-589هـ)، دار السلام، دط، دت، ص 47.
5 - علي محمد الصلابي، صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير المقدس، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1429هـ-2008م، ص 227، 228.

أيدي كبار العلماء وأساتذة منطقة الشام ومنهم الشيخ قطب الدين النيسابوري، وقد تأثر صلاح الدين بالسلطان نور الدين محمود الذي قدم النموذج الرائع للإخلاص المتفاني والشعور الجاد بالمسؤولية الدينية، وتعلم منه الإخلاص والفداء وكيف يناجي ربه في صلوات خاصة في محرابه منها زاده القوي على الجهاد، وورث عنه قيادة المشروع الإسلامي وتعلم منه كيفية التصدي للمدّ الشيعي الرافض والغزو الصليبي"[1].

وقد تأثر ابن جبير بخصال وصفات صلاح الدين الأيوبي والذي عُرِف بالعدل وسهره على مصالح الرعية، وإزالته لبعض المكوس والضرائب تخفيفا على الناس، ورفعا للظلم عن كواهلهم، وقد ذكر ابن جبير من مناقب صلاح الدين وآثاره ذكرا جميلا فقال:"أزال كثيرا من المكوس والضرائب التي كانت مفروضة على الناس على كل ما يباع ويشترى مما دق أو جل حتى كان يؤدى على شرب ماء النيل مكس، فألغى صلاح الدين هذا كله وقد كانت هناك ضريبة قدرها سبعة دنانير ونصف على كل حاج في طريقه إلى الحجاز لتعمير مكة والمدينة ومساعدة الناس هناك، وقد اشتط الفاطميون في جمع هذه الضرائب، ومن يعجز عن دفعها يعذب عذابا أليما، ولكن صلاح الدين ألغى ذلك المكس، واستعاض عنه معونة مالية تعادل قيمة ما يؤخذ من الحجاج تدفع كل عام لأهل الحجاز، ولذلك أراح الحجاج من عنت الحياة، ولا سيما أن نسبة كبيرة منهم كانوا فقراء لا يستطيعون الدفع"[2]. ويذلك اشتد إعجاب ابن جبير بخصال صلاح الدين الأيوبي، وأشاد به في رحلته كثيرا لإنجازاته المتعددة وأخلاقه العالية.

وذكر أيضا عمرو بن العاص (رضي الله عنه) الذي ترك لنا جامعاً في القاهرة،كما تحدث عن شخصية المهدي محمد بن أبي جعفر المنصور العباسي، وتحدث عن توسعته للمسجد الحرام بمكة.

ب- المهدي محمد بن أبي جعفر المنصور

ومن الشخصيات التي كان لها مآثر دينية وحضارية، ذكره للخليفة العباسي أبي جعفر المنصور إلى التوسيعات التي قام بها في المسجد الحرام، والتألق في بنائه وآثاره الكريمة. وقد كتب

1- علي محمد الصلابي، صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير المقدس، ص 227، 228.

2- عبد الله ناصح علوان، صلاح الدين الأيوبي (بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين، 532هـ-589م)، ص 96.

على أحد جدران البلاط بأمر عبد الله بن محمد المهدي أمير المؤمنين، فالمهدي هو"محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، أبو عبد الله المهدي، ولد بالحميمة من أرض شراة في عام (126هـ/744م) وأمه أروى بنت منصور الحميرية، فقد نشأ في بيت الخلافة، وعني المنصور بتثقيفه...واهتم بإعداده لمنصب الخلافة بتدريبه على الحرب والإدارة، كما عينه في عدد من المناصب الإدارية، كما بويع له بالخلافة بعد وفاة المنصور، وكان في الثالثة والثلاثين من عمره".[1] فقد قدم الكثير من الإنجازات خدمت المسلمين في تلك الفترة وخلدت ذكراه وهذا ما ذكره ابن جبير.

أما عن صفاته التي رفعت من قدره بين الناس فقد عرف عنه بأنه كان "جوادا مقداما وكان محبوبا إلى رعيته محاربا للزندقة منكلا بأهلها طالب العلم"[2]، وتعتبر خلافة المهدي التي استمرت زهاء عشرة أعوام، فترة انتقال بين عهد الشدة والقمع الذي ساد عهد من سبقه من خلفاء بني العباس، وعهد الاعتدال واللين الذي امتازت به أيامه وأيام من أتى بعده، وحاول استرضاء أهل الحجاز عندما حَجَّ عام (160هـ/717م)"[3]...كما وسع المسجد الحرام، ومسجد الرسول في المدينة وهذا ما أشار إليه ابن جبير فقال: "وللمهدي محمد بن أبي جعفر المنصور العباسي في توسعة المسجد الحرام والتأنق في بنائه آثار كريمة..."[4]، وتوفي المهدي "لثمان بقين من شهر محرم عام (169هـ)/شهر آب عام (785م)[5].

وبفضل توسعته للمسجد الحرام، أصبح يشاد له بها، وتُضاف إلى سجل إنجازاته التي جسدت معالم الحضارية الإسلامية.

1- محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة العباسية، دار النفائس، الطبعة السابعة، 2009، ص 74.
2- علي محمد محمد الصلابي، صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي (عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج)، دار البيارق، الأردن، الطبعة الأولى، 1418هـ/1998م، ص498.
3- المرجع نفسه، ص 86.
4- محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص75.
5- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 28.

ج- **الوليد بن عبد الملك**:هو من الشخصيات التي لها علاقة بالأبنية المعمارية الدينية بمدينة دمشق عاصمة الأمويين، وقد قام ببناء الجامع الأموي، فقال عنه ابن جبير "هو من أشهر جوامع الإسلام حسنا...فانتدب لبنائه الوليد بن عبد الملك –رحمه الله- ووجه إلى ملك الروم بالقسطنطينية بأمره بإشخاص اثني عشر ألفا من الصناع من بلاده..."[1].

ولمّا بويع بالخلافة بعد وفاة والده "عُرف عهده بأنه عهد فتح ويسر ورخاء بعد أن استتب الأمن والنظام في الداخل، وأصلحت الإدارة وشؤون الحكم، ووضعت القواعد السليمة الأجهزة الحكومية، فاستثمر الوليد ذلك وانصرف إلى الإصلاح الداخلي والتوسع في الخارج، ومما لا شك فيه أن الوليد كان ميالا للعمارة، لذلك اهتم بإصلاح الطرق وتسهيل السبل، وقد حقق في هذا المضمار أكثر مما حققه غيره[2]. وقد حرص الوليد بن عبد الملك على العمارة خاصة الدينية، وهذا ما أشار إليه ابن جبير في رحلته، حيث بذل عطاء كبيرا في سبيل إتمام بناء الجامع الأموي، فهو"يرجع له الفضل في إنشاء المسجد الجامع في دمشق الذي استجلب لبناء هذا الجامع الفنانين من بلاد الروم وكذلك مصر وأنفق عليه بسخاء حتى أصبح مفخرة من مفاخر الإسلام ونموذجا[3]. ومن ثمّ فالوليد بن عبد الملك واحدٌ من حكام الدولة الأموية الذين حرصوا على ترك آثار معمارية، تشهد على سعيه في بناء حضارة إسلامية في العصر الأموي.

د- **نور الدين محمود زنكي**: إنّه من الشخصيات التي كان لها بعد ديني وسياسي وعلمي، وذلك من خلال إنجازاته ومواقفه التي تركها، وبالرغم من أنه توفي قبل زمن الرحلة إلا أن ابن جبير أشار إليه كثيرا في رحلته "فهو نور الدين محمود زنكي صاحب الشام، الملك العادل، ناصر أمير المؤمنين، تقي الملوك، ليث الإسلام، أبو القاسم محمود بن الأتابك قسيم الدولة أبي سعيد –عماد الدين- زنكي، بن الأمير الكبير أف سنقر التركي السلطاني الملكشاهي، مولده في شوال سنة إحدى عشرة وخمس مئة، وهم ينتسبون إلى قبيلة سابيو التركية، ولا تذكر المصادر التاريخية شيئا عن نشأة نور الدين وشبابه، ولكنها جميعا تؤكد أنه تربى في طفولته تحت رعاية وإشراف والده".[4]وهو من الشخصيات التي اهتمت بالعمارة الدينية والمدنية وذلك "ببناء المساجد والربط والزوايا للتعبد وتربية الروح كما أنشأ المدارس ودور الحديث للتعلم وتربية العقل وتشجيع

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 235.
2- ينظر محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الأموية، دار النفائس، ط7، 2010، ص 74.
3- ينظر نبيلة حسن محمد، تاريخ الدولة العباسية، دط، جامعة الإسكندرية، 1993، ص 41، 42.
4- علي محمد الصلابي، موسوعة الحروب الصليبية، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 2007م، ص 175.

أعمال الفروسية"[1]. وقد ذكر ابن جبير أن له مناقب عدة فهو"عين للمغاربة الغرباء، الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك، أوقافا كثيرة، منها طاحونتان وسبعة بساتين وأرض بيضاء وحمام ودكان بالعطارين، وكان ابن جبير دائما يتذكره ويترحم عليه لما تركه من فضل كبير، فقد هيأ ديارا موقوفة لقراءة كتاب الله عز وجل يسكنونها"[2]. فشخصية نور الدين محمود الزنكي رغم وفاته زمن الرحلة إلى أن ابن جبير اهتم بذكره والترحم عليه وذلك لاهتمامه بالعمارة الدينية والمدنية.

أيضا من المواقف التي ذكرها عنه قوله: "وقد كان نور الدين –رحمه الله– نذر في مرضه أصابه تفريق اثني عشر ألف دينار في فداء أسرى من المغاربة، فلما استبل من مرضه أرسل في فدائهم"[3]. ومن إنجازاته العظيمة أيضا أن له"المارستانات التي تعد مفاخر عظيمة من مفاخر الإسلام، والمدارس كذلك ومن أحسن مدارس الدنيا منظرا مدرسة نور الدين، رحمه الله، وبها قبره، نوره الله، وهي قصر من القصور الأنيقة ينصب فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة...وله رباطات التي يسمونها الخوانق كثيرة وهي برسم الصوفية، وهي قصور مزخرفة"[4].ومناقب هذا الرجل الصالح أنه كان "من الملوك الزهاد، توفي في شوال سنة تسع وستين وخمس مئة".[5]

وشخصية نور الدين الزنكي جمعت بين القيادة السياسية ومحاربته للصليبيين وبين مساهمتها بالعمارة المدنية والدينية وهذا ما أشار إليه ابن جبير في رحلته.

هـ- **الملك غليام:** هو من الشخصيات التي لفتت انتباه ابن جبير وأعجب بخصالها ومعاملتها للمسلمين، "غليوم الثاني الملقب بالصالح ملك من سنة (1166إلى 1189) على صقلية وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان المجايب، وكلهم أو أكثرهم كاتم إيمانه متمسك بشريعة الإسلام، وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم في أحواله والمهم من أشغاله، حتى إن الناظر في مطبخته رجل من المسلمين، وله جملة من العبيد السود المسلمين..."[6]. وذكر بعض إنجازاته وخصاله فقال: "ولهذا الملك القصور المشيدة والبساتين

1- علي محمد محمد الصلابي، نور الدين محمود زنكي (شخصيته وعصره)، بيروت –لبنان- ط1، 2007، ص31.
2- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 257.
3- المصدر نفسه، ص 280.
4- ابن جبير ،رحلة ابن جبير ، ص 256.
5- المصدر نفسه، ص 256.
6- المصدر نفسه ، ص 297، 298.

الأنيقة، ولا سيما بحضرة ملكة المدينة المذكورة، وله بمسينة قصر أبيض كالحمامة مُطِلٌ على ساحل البحر..."[1] بالإضافة إلى ذلك ذكر ابن جبير شخصيات كان لها بعد ديني، منها شخصية الشيخ الإمام رضي الدين القزويني الذي قال عنه: "...رئيس الشافعية، وفقيه المدرسة النظامية والمشار إليها بالتقدم في العلوم الأصولية..."[2]. وذكر أيضا جماعة الصوفية التي قال عنها: "وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها..."[3]، كذلك ذكر بعض الشخصيات عرضا في الرحلة ومن ذلك قوله "والخاتون الثانية أم عز الدين صاحب الموصل...وخاتون الثالثة ابنة الدقوس..."[4]، وقوله أيضا من "عجيب ما شاهدناه ...إحدى الخواتين...وهي بنت الأمير مسعود..."[5]

لقد تحدّث ابن جبير عن الكثير من الشخصيات، التي أُعجب بأعمالها وإنجازاتها مثل صلاح الدين الأيوبي وهناك من ربطها بأبنية معمارية وآثار إسلامية تاريخية خلدت ذكرها كشخصية الوليد بن عبد الملك. ثم إنه هناك شخصيات أخرى تعلقت بالجانب الديني سنفصل في ذكرها في الفصل الثالث.

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 298.
2- المصدر نفسه، ص 195.
3- المصدر نفسه،ص 256.
4- المصدر نفسه، ص 162.
5- المصدر نفسه، ص 177.

الفصل الثالث: المظاهر الحضارية

في رحلة ابن جبير

- ✓ المظاهر الاجتماعية
- ✓ المظاهر الاقتصادية
- ✓ المظاهر الدينية والعلمية

تمهيد:

للرحلات دورٌ هامٌ في الكشف عن مظاهر الحضارات الإنسانية وتجلياتها، وتعد رحلة ابن جبير واحدة من الرحلات التي اعتبرت وثيقة هامة يستند إليها الدارس لرسم لوحة حضارية غاية في الروعة للقرن السادس الهجري، وذلك من خلال ما صورته من مظاهر حضارية بكل أبعادها، ووَصْفُ لحياة الشعوب وأخلاقهم وصفاتهم ولباسهم وعاداتهم وتقاليدهم ومذاهبهم وصفة طعامهم وشرابهم، وذكرٌ لعلمائهم وفقهائهم، ونقلٌ لأهم أنشطتهم الاقتصادية من تجارة وصناعة وزراعة. كما ذكرت المشاهد والمناسك والآثار المعمارية المدنية والدينية والحربية. ولعل ابن جبير لم يكن فقط راصدا لهذه المظاهر بل كان متفاعلا بكل أحاسيسه معها من خلال أوصافه التي أظهرت مواقفه وآراؤه المختلفة تجاه تلك المظاهر الحضارية.

أ- المظاهر الاجتماعية:

قدمت رحلة ابن جبير صورا واضحةً عن الحياة الاجتماعية وما يتصل بها من مظاهر حضارية مهمة بالنسبة للأمصار التي زارها. فقد نقل لنا أوصافا صادقة عن المجتمعات الإسلامية في القرن السادس الهجري.حيث قدم لنا صورا مفصلة عن حضارة الشعوب وعراقتها وأصالتها، وبخاصة طبقات المجتمع في الحجاز، في حين لم يذكر تلك الطبقات على وجه التفصيل بل اكتفى بذكر أمرائها أو ملوكها في مصر وبغداد وبلاد الشام، فضلا عن ذكره للعادات والتقاليد والمعتقدات التي تختلف من مكان إلى آخر، كما وصف الاحتفالات وطريقة اللباس والأطعمة والأشربة إلى غير ذلك من المظاهر الاجتماعية والأنشطة التي لم يغفل عن ذكر أي منها في الأماكن التي زارها.

1- طبقات المجتمع

تعد بلاد الحجاز المكان الوحيد الذي فصل ابن جبير في ذكر طبقاته، ذلك لأنه أطال مدة المكوث بمكة. وما لفت انتباه ابن جبير الطبقة الحاكمة، ومنها" الأشراف من ذرية الحسن بن علي في مكة المكرمة ومن ذرية الحسين بن علي في المدينة المنورة واتسم حكمهم بطابع الإمارة

فقط"[1]، وهذا ما أشار إليه ابن جبير في رحلته فقال: " وفي عشية يوم الثلاثاء الحادي عشر من الشهر المذكور...كان انفصالنا من جدة بعد أن ضمن الحجاج بعضهم بعض وثبتت أسماؤهم في زمام عند قائد جدة علي بن موقف، حسبما نفذ إليه ذلك من سلطانه صاحب مكة مكثر بن عيسى المذكور، وهذا الرجل مكثر من ذرية الحسين بن علي، رضوان الله عليهما، لكنه ممن يعمل غير صالح، فليس من أهل سلفه الكريم، رضي الله عنهم."[2]

وقد انتقد ابن جبير الحاكم مكثر بن عيسى لأنه لم يكن يعمل صالحا لأهل سلفه الكريم، ورغم أنه كان يقيم في داخل مكة المكرمة إلا أنه "اعتمد على الوزراء والقواد والحاشية في تسيير أمور البلاد إلا أننا لم نعثر على أسماء أحد منهم"[3]. أضاف ابن جبير أن مكثر بن عيسى" استعان بطبقة القواد لتسيير شؤون البلاد فقال عنها " لها أهميتها الكبرى تتبع الشريف ويتم اختيار أفرادها من أكابر الأشراف"[4]، بالإضافة إلى طبقة العبيد وهي من العناصر التي وجدت أيضا العبيد" الذين يجلبون من الحبشة والسودان وغيرها".[5]

أما الأشراف فقد اعتمدوا على" طبقة حراس يسمونهم بالحرابة وقد وصفوا باللصوص"[6]، الذي قال عنهم ابن جبير "...وصلنا إلى هذه البلدة المكرمة فألفينا كل من بها من الحجاج المجاورين ممن قدم عهده فيها وطال مقامه بها يتحدث على جهة العجب بأمنها من الحرابة المتلصصين فيها على الحجاج المختلسين ما بأيديهم والذين كانوا آفة الحرم الشريف لا يغفل أحد متاعه عن طرفة عين إلا اختلس من يديه أو من وسطه بحيل عجيبة ولطافة غريبة...فكفى الله في هذا العام شرهم إلا القليل، وأظهر أمير البلاد التشديد عليهم فتوقف شرهم"[7]. فقد عُرفت هذه الفئة من الحراس بشرورهم وأذيتهم للحجاج.

كما اهتم ابن جبير بأصحاب المهن وأعمالهم خاصة في بلاد الحجاز كالخبازين وصناع الحلوى والأغوات،حيث نقل ابن جبير في الحجاز عن بعض الحرف قوله: "ويتصل بجدار هذا

1- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين 6و8 هـ، ص 201.
2- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 57.
3- المصدر نفسه، ص 84، 100.
4- المصدر نفسه ، ص 74 بتصرف
5- المصدر نفسه، ص 203
6- محمد عواطف يوسف نواب، الرحلات الأندلسية والمغربية مصدر من مصادر الحجاز في القرنين 6، 8هـ ص 203 .
7- المرجع نفسه، ص 206.

البلاط كله مصاطب تحته قسي حنايا يجلس فيها الناسخون والمقرؤون وبعض أهل صنعة الخياطة."[1] وتحدث عن مهن في مدينة جدة "...ويستخدمون أنفسهم في كل مهنة من المهن من كراء جمال وإن كانت لهم أو مبيع لبن أو ماء، غي ذلك من تمر يلتقطونه أو حطب يحتطبونه"[2]. فلم يغفل ابن جبير أصحاب المهن الصغيرة فكله قد نال وصفه وذكره في رحلته.

وذكر أيضا حرفة البزارين والعطارين فقال: "وما للبلدة سوق منتظمة سواها إلا البزارين والعطارين، لهم عند باب بني شيبة تحت سوقه المذكورة وبمقربة تكاد تتصل بها"[3].

وجاء حديث ابن جبير عن مصر وبلاد الشام والعراق وطبقاتها الاجتماعية من خلال الإشارة فقط إلى حكامها.ففي مصر، أعجب بقائدها صلاح الدين الأيوبي الذي قال عنه " وهذا السلطان الذي سن هذه السنن المحمودة ورسم هذه الرسوم الكريمة على عدمها في المدة البعيدة هو صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب"[4]. فلصلاح الدين مآثر عديدة جعلت ابن جبير يشد الرحال مرة أخرى لزيارته بعد تحريره لبيت المقدس.

أما في العراق فقد وصف أهلها بأبشع صور، حيث قال: " أما أهلها فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع الرياء...ويذهب بنفسه عجب وكبرياء...أستغفر الله إلا لفقهائهم والمحدثين ووعاظهم المذكورين"[5]. في حين ذكر خليفتها قائلا: "فأبصرنا الخليفة المذكور، وهو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضيء بنور الله أبي محمد الحسين بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف، ويتصل نسبه إلى أبي الفضل جعفر المقتدر بالله".[6] فلم يصف الرحالة شخصيته بل اكتفى بذكر نسبه وكنيته.

أما عن بلاد الشام،وصف ابن جبير أهلها :"بهذا الإكرام البالغ الذي أغر فيه الدماشقة أهل المغرب، فدعا جميع المغاربة إلى الرحيل إلى دمشق"[7].كما ذكر فضل حكامها خاصة نور الدين الذي كان عينا للمغاربة، وصلاح الدين الذي قال عنه: " واستولى بعده على الأمر صلاح

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 68.
2- المصدر نفسه، ص 68.
3- المصدر نفسه، ص 86.
4- المصدر نفسه، ص 16.
5- المصدر نفسه ، ص 114..
6- المصدر نفسه، ص 203.
7- صلاح الدين المنجد، المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى، ص34.

الدين وهو على طريقة من الفضل شهيرة، وشأنه في الملوك كبير، وله الأثر الباقي شرفه من إزالة المكوس بطريق الحجاز، ودفعه عوضا عنها لصاحب الحجاز."[1]

الملاحظ أن ابن جبير لم يفصل كثيرا في ذكر طبقات المجتمع المقيمة في الأماكن التي زارها، وإنما أفرد حديثا طويلا يعرض فيه لعدد من الوجهاء والحكام والأمراء، يتحدث عن شهرتهم، ومكانتهم، وأعمالهم وصلتهم بالرعية.

2- العادات والتقاليد

تعتبر الرحلة مصدرا هاما في نقلها لطبيعة الحياة الاجتماعية، بكل أبعادها لأي شعب من الشعوب، خاصة فيما يتعلق بمعرفة عادات وتقاليد هذه الشعوب. والرحالة في هذه المهمة لم يكن فقط واصفا لهذه العادات بل كان يُقِيمُ السلوك الإنساني من خلال الاستقراء وتحليل القيم والأفكار التي تختلف من بلد إلى آخر، فضلا أنه يقدم توصيفاً موضوعياً للشعوب وعاداتها وتقاليدها وأخلاقها وغيرها من مظاهر الحياة الاجتماعية الأخرى.

وقد ألقت الرحلات الضوء على كل ما يلفت انتباه الرحالة من أحوال المعيشة، "كما صورت المحطات الهامة في حياة الإنسان، مثل الميلاد والزواج والموت وكل ما يرتبط بهذه المناسبات من مظاهر اجتماعية وما يرادفها من العادات والتقاليد والبدع والمعتقدات التي قد تختلف من بلد إلى آخر بنسب متفاوتة فيها وإن كانت متشابهة في مختلف البلدان، غير أن لكل بلد خصوصيات وكان ما قدمه الرحالة أشبه ما يكون بمزيج بين الرحلة والأنثوغرافيا التي تسعى إلى تقديم توصيف موضوعي للشعوب وعاداتها وتقاليدها وأخلاقها وطريقة لباسها وأحوالها...فقد اتجه الرحالة إلى استخلاص أسلوب الحياة في البلدان التي قصدوها من خلال استقراء وتحليل القيم والأفكار والجوانب المادية أو الروحية التي تشكل بدورها الأسلوب الحياتي للناس ومعالمهم التراثية"[2].

ومن العادات والتقاليد التي لفتت انتباه ابن جبير في بلد الحجاز ضرب الطبول في أوقات الصلاة وابتداء موسم الحج،حيث يخبرنا ابن جبير عن هذه العادة فيقول "...وفي تلك الليلة ملء المسجد الحرام كله سراجا فتلألأ نورا، وعند ثبوت رؤية الهلال عند الأمير أمر بضرب الطبول

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 257.
2- نوال عبد الرحمن الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن 9هـ، ص 159، 160 (بتصرف).

والدبادب والبوقات اشعار بأنها ليلة الموسم..."[1]. فقد وصف قداسة المكان وشعائره وعاداته في مكة المكرمة.

كما ذكر أيضا عادات اشتهر بها أهل الحجاز في شهر رمضان،منها إيقاظ المسحراتي للناس في وقت السحور يقول في ذلك " فقد حظي هذا لشهر في بلاد الحجاز بالتعظيم والإجلال لما له من أهمية دينية، ومن العادات المعروفة في المسحراتي وهو القائم على إيقاظ الناس وقت السحور، وفي مكة المكرمة يقوم المؤذن الزمزمي بهذه المهمة حيث يقف في المنارة الواقعة في الركن الشرقي من المسجد الحرام للدعاء والتذكير وإظهار فضل وبركة السحور، ويقف معه اثنان من إخوانه يقومان بترديد بعض أقواله.

يبدو أن السبب في اختيار هذا المكان لإيقاظ الناس قربه من منزل الأمير، وعلى هذه المنارة تنصب خشبة طويلة في رأسها عود كالذراع وفي طريقه بكرتان صغيرتان يوضع عليها قنديلان كبيران من الزجاج يوقدان خلال فترة السحور وسبب ذلك إعلام الناس حال رؤيتها بدخول وقت السحور، لمن لا يتسنى إليهم سماع صوت المسحراتي لبعد منازلهم من المسجد المكي وعند اقتراب الفجر يقوم المؤذن الزمزمي بإنزال القنديلين ويبدأ الأذان وهذه عادة مستمرة طوال ليالي الشهر الكريم، وعند إقبال شهر شوال يتميز الناس فيه بارتداء الملابس الجديدة والتي أعدت خصيصا لهذه المناسبة ويتبادلون فيما بينهم التهاني، وحرص المؤذن الزمزمي في الحرم المكي على الدعاء للخليفة العباسي ولأمير مكة ولصلاح الدين إثر صلاة المغرب دلالة على ما لهؤلاء الحكام من محبة في نفوس أهل الحجاز"[2]. وبذلك يكون ابن جبير قد أبرز جانبا مهما من عادات وتقاليد أهل الحجاز خاصة فيما يتعلق بالسحور لماله من قداسة لدى المسلمين وقد تميز عند أهل الحجاز بشكل خاص وهذا ما رسمه ابن جبير في صورته التي قدمها.

ومن عادة أهل مكة المكرمة في حالة وجود قحط "إخراج مصحف مكتوب بخط زيد بن ثابت الصحابي الجليل (رضي الله عنه)ووضعه في القبة مع المقام بعد فتح باب الكعبة ثم يجتمع الناس كاشفين رؤوسهم داعين الله ومتضرعين إليه حتى يتداركهم برحمته"[3].كما درج أهل مكة على

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير،ص108.
2- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر الحجاز في القرنين 7و8 هـ، ص 201 و211.
3- المرجع نفسه، ص 210، 211.

إعداد مياه زمزم للشرب في الحرم حيث "توضع في دوارق بعد تنظيفها وتجميرها وتوضع حولها كيزان بيضاء تمسى الغراريف"[1]. فقد وصف طريقتهم وعاداتهم لشرب ماء زمزم في تلك الفترة.

وأشار ابن جبير من جانب آخر إلى بعض العادات التي يقوم بها أهل الحجاز أثناء مناسبة الخُطبة فيقول: "...وفي أثناء الخطبة ترُكز الرايتان السودوان في أول درجة من المنبر ويمسكها رجلان من المؤذنين، وفي جانبي باب المنبر حلقتان تلقى الرايتان فيهما مركوزتين، فإذا فرغ من الصلاة فرج الرايتان عن يمينه وشماله والفرقعة أمامه على الصفة التي دخل عليها كان ذلك إيذان بانصراف الخطيب والفراغ من الصلاة، ثم أعيد المنبر إلى موضعه بإزاء المقام"[2].

إنّ هذه العادات التي قام ابن جبير بوصفها ووصف أصحابها وطريقة ممارستها، نراه يبدي استغرابه من بعضها فيقول: "وفي يوم الجمعة التالي من ذلك اليوم أصبح بالحرم أمر عجيب، وذلك أنه لم يبق بمكة صبي إلا وصبحه واجتمعوا كلهم في قبة زمزم، وينادونه بلسان واحد: هللوا وكبروا يا عباد الله، فيهلل الناس ويكبرون، وربما دخل معهم من عرض العامة من ينادي معهم بندائهم، والناس والنساء يزدحمون على قبة بئر زمزم المباركة لأنهم يزعمون بل يقطعون قطعا جهليا لا قطعا عقليا، أن ماء زمزم يفيض ليلة النصف من شعبان"[3].

وأورد أيضا قوله عن البدع والشائعات:"الحجارة الموضوعة عند باب بني شيبة من أنها أصنام لقريش كانت تعبدها في جاهليتها قد كبت على وجهها تطؤها الأقدام وتسير الناس عليها بالنعال، وقد ...ذلك وأوضح أن الأصنام قد أمر النبي (صلى الله عليه وسلم) يوم فتح مكة بإحراقها وإن هذه الحجارة الموجودة على الباب منقولة وشبهها الناس بالأصنام لعظمها".[4]

ومن المعتقدات التي انتقدها وكانت شائعة عندهم ما أثيرت حول جبل الثور وقولهم من لم يستطع دخول الغار من الفتحة التي دخل الرسول (صلى الله عليه وسلم) منها فهو ابن زنا وأما

1- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر الحجاز في القرنين 7و8 هـ ، ص 201 و211

2- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص74.

3- المصدر نفسه، ص118.

4- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر الحجاز في القرنين 7و8 هـ، ص 201 و211.

موقف العامة فهناك عدد كبير رافض.[1]ومن العادات التي انتشرت في بلاد الحجاز وهي"ظاهرة التبرك بقبور الأولياء والصالحين.[2]

وفي سياق حديثه أيضا عن العادات التي أثارت استغرابه، ذكره لأعمال العبادة بعض القبائل اليمنية تعرف بالسرو، قدمت إلى مكة، يقول عنها "وهم أهل جبال حصينة باليمن تعرف بالسراة كأنها مضافة لسراة الرجال، على ما أخبرني به فقيه من أهل اليمن يعرف بابن أبي الصيف...فلا تجد لديهم من أعمال العبادات سوى صدق النية، ...وإذا فتح الباب الكريم فهم الداخلون بسلام،...في محاولة دخولهم يتسلسلون كأنهم بعض ببعض مرتبطون، يتصل منهم على هذه الصفة الثلاثون والأربعون إلى أزيد من ذلك والسلاسل منهم تتبع..."[3] فقد ذكر عاداتهم في العبادات وأشار إلى صدق نيتهم رغم استغرابه لتصرفاتهم.

ومن عاداتهم الغريبة في الصلاة قوله"...وأما صلاتهم فلم يذكر في مضحكات الأعراب...وذلك أنهم يستقبلون البيت الكريم فيسجدون دون ركوع وينقرون بالسجود نقرا ومنهم من يسجد السجدة الواحدة ومنهم من يسجد اثنين والثلاث والأربع ثم يرفعون رؤوسهم من الأرض قليلا وأيديهم مبسوطة عليها ويلتفتون يمينا وشمالا لا التفات المروع ثم يسلمون أو يقومون دون تسليم ولا جلوس للتشهد وربما تكلموا أثناء ذلك، وربما رفع أحدهم رأسه من سجود"[4] فوصفه يؤكد أن صلاتهم لم تكن صحيحة إلى درجة وصفه بأنها من مضحكات العرب وهذا يدل على جهلهم للدين.

ومن العادات المنتشرة في المدينة التي وصفها ابن جبير بشيء من الاحتقار لأنها في رأيه تمس الدِّين وتشوه صورته، وصفه للخطيب الذي يطيل الجلوس يوم الجمعة بعد الخطبة الأولى لجمع المال من المصلين "...جالس على المنبر يلحظ هؤلاء المستجدين المتسعين عن الناس بلحظات يكرها الطمع ويعيدها الرغبة...والصلاة تفوت، ...وهو قاعد ينتظر اشتفاف صبابة الكدية وقد أراق على وجهه ماء الحياء...وانصرف أهل التحصيل باكين على الدِّين..."[5] فقد

1- ينظر ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 94.
2- المصدر نفسه، ص 201.
3- المصدر نفسه ، ص 111.
4- المصدر نفسه ، ص112.
5- المصدر نفسه، ص180.

عرض بشدة ابن جبير العادات التي تشوه الدين الإسلامي فانتقد الخطيب الذي يطيل الجلوس يوم الجمعة بعد الخطبة لطلب المال من المصلين.

كما أورد الخبر المتداول عن بقية الجذع الذي حنَّ إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) قائلا إن:"هناك قطعة منه في وسط العمود ظاهرة يقبلها الناس ويبادرون للتبرك بلمسها ومسح الخدود فيها"[1].

وبالنسبة إلى البدع في المدينة المنورة، يقول واصفا بعضها:"إن المسجد النبوي يوجد فيه حجر مربع أصفر طوله شبر في شبر، شديد اللمعان قيل إنه مرآة كسرى وفي أعلاه داخل المحراب مسمار مثبت في جداره فيه علبة صغيرة غير معروفة يقال: إنه كأس كسرى"[2]. فقد دون ابن جبير بعض الأخبار التاريخية كمرآة كسرى لكنه يشير بأنه غير متأكد من صحتها من خلال أقواله.

ويَتعرَّضُ ابن جبير لبعض المزاعم التي استغربها، وأثارت دهشته فيما يتعلق بمزاعم أهل بدر:"حول جبل يسمى بجبل طبول يقال إنهم يسمعون صوت الطبول على مقربة منه وأغلب الظن أن الأصوات المسموعة ليست قرع طبول وربما هي أصوات بفعل حركة الرياح عند ملامستها للأتربة والصخور."[3]

أما عن عادات وتقاليد أهل مصر، فلم يذكر ابن جبير عنها كثيرا ذلك لأنه جعلها معبراً للمرور إلى الحجاز. ومن بين هذه المعتقدات قوله: "وذكر لنا أن بالجيزة المذكورة قبر كعب الأحبار (رضي الله عنه)، وفي صدر الجيزة المذكورة أحجار رخام قد صورت فيها التماسيح: فيقال إنه بسببها لا تظهر التماسيح فيما يلي البلد من النيل مقدار ثلاثة أميال علوا وسفلا: والله أعلم بحقيقة ذلك."[4] وقد رصد بعض التناقضات عند أهل مصر عن الأهرامات،"حيث ذكر أنّ هناك من يزعم من الناس بأنها قبور لعاد وبنيه ومنهم من يرى غير ذلك وبالجملة لا يعلم شأنها إلا الله عز وجل".[5] فقد رصد ابن جبير زخما من المعلومات لكنه لا يؤكدها لعدم وجود دليل يثبت صحتها.

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 170.
2- المصدر نفسه، ص 172.
3- المصدر نفسه ، ص 173.
4- المصدر نفسه ، ص30.
5- المصدر نفسه، ص 28.

ومن عاداتهم أيضا عندما يقوم الخطيب لخطبته أنه "يتقيد سيفا وعند صعوده المنبر يضرب بنعل سيفه المنبر في أول ارتقائه ضربة يسمع بها الحاضرون كأنها إيذان بالإنصات، وفي توسطه أخرى، وفي انتهاء صعوده ثالثة"[1]. وهذه بعض عادات الخطيب في الصلاة زمن الرحلة وهذا ما وصفه ابن جبير وأكد عليه.

وعن بعض العادات في مسجد الروضة يقول: "ومن أعجب ما شاهدناه في دخولنا إلى هذا المسجد المبارك...وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك وإحداقهم به وانكبابهم عليه وتمسحهم بالكسوة التي عليه وطوافهم حوله مزدحمين داعين باكين، متوسلين إلى الله تعالى ببركة التربة المقدسة ومتضرعين ما يذيب الأكباد ويصدع الجماد..."[2].

أما عن أهل عيذاب، فقد ذكر ابن جبير "أنهم من السودان وهم فرقة أضل من الأنعام سبيلا وأقلا عقولا، لا دين لهم سوى كلمة التوحيد..."[3]. وقد انتقد تصرفاتهم وسوء معاملتهم للحجاج، لأنهم يعمدون إلى شحن السفن بالحجاج بأكثر مما تستوعبه غير مبالين بما يصنع بهم البحر، طمعا بالأجور.

لم يذكر ابن جبير عن الحياة الاجتماعية في العراق الشيء الكثير، بل أبدى فقط سخطه من صفات وأخلاق أهلها ووصفهم بالرياء والتكبر وقد استثنى من ذلك الفقهاء والعلماء والمحدثين، فقال في ذلك: " أما أهلها فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع بالتواضع رياء ويذهب بنفسه عجبا وكبرياء..."[4]

وفي طريق ابن جبير إلى بغداد، لاحظ بعض العادات التي قد أثارت استغرابه في الأماكن التابعة للكوفة فقال "...وفي صحوة يوم الجمعة بعد نزولنا بموضع يعرف ببركة المرجوم، وهي مصنع، وقد بُنِيَ له فيما يعلوه من الأرض مصب يؤدي الماء...ولهذا المرجوم المذكور مشهد على قارعة الطريق وقد علا كأنه هضبة...وكل مجتاز عليه لا بد أن يلقي عليه حجرا ويقال: إن أحد

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص25.
2- المصدر نفسه ، ص30.
3- المصدر نفسه ، ص48، 49.
4- المصدر نفسه ، 194.

الملوك رجمه لأمر استوجب به ذلك والله أعلم"[1]. ولكنه لم يفسر سبب الرجم بل رصد هذه الظاهرة وأثارة استغرابه.

أما عن أهل دمشق، فقد انفردوا بعادات ميزتهم عن بقية المناطق المجاورة خاصة فيما يتعلق لتقديسهم للحجاج وفي ذلك يقول ابن جبير "ومن أعظم أمرهم تعظيمهم للحجاج على قرب مسافة الحج منهم، وتيسير ذلك لهم، واستطاعتهم لسبيله، فهم يتمسحون بهم عند صدورهم، ويتهافتون عليهم تبركا بهم، ومن أغرب ما حدثناه من ذلك أن الحاج الدمشقي مع من انضاف إليهم من المغاربة عند صدورهم إلى دمشق في هذا العام، الذي هو عام ثمانين، خرج الناس لتلقيهم الجم الغفير نساء ورجالا، يصافحونهم ويتمسحون بهم، وأخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها، وأخرجوا إليهم الأطعمة، فأخبرني من أبصر كثيرا من النساء يتلقين الحاج ويناولنهم الخبز، فإذا عض الحاج فيه اختطفنه من أيديهم ويتبادرن لأكله تبركا بأكل الحاج له ودفعن له عوضا منه دراهم، إلى غير ذلك من الأمور العجيبة ضد ما اعتدنا في المغرب في ذلك".[2] لذلك فضل ابن جبير أهل دمشق لحسن معاملتهم للحجاج عكس أهل العراق الذين انتقدهم بشدة.

ومن جانب آخر، يتناول ابن جبير عادات الدمشقيين وتقاليدهم مثل الكرم والشهامة التي استحسنها ولا سيما يوم وقوف عرفة فيقول "ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد المستحسنة، المرجو لهم فيها من الله عز وجل، فيقول: أنهم في كل سنة يتوخون الوقوف يوم عرفة بجوامعهم، إثر صلاة العصر، يقف بهم أئمتهم كاشفي رؤوسهم داعين إلى ربهم التماسا لبركة الساعة التي يقف فيها وفد الله عز وجل وحجيج بيته الحرام بعرفات، فلا يزالون واقفين داعين متضرعين إلى الله عز وجل، وبحجاج بيته الحرام متوسلين، إلى أن يسقط قرص الشمس ويقدروا نفر الحاج فينفصلون باكين على ما حرموه من ذلك الموقف العظيم بعرفات وداعين إلى الله عز وجل في أن يوصلهم إليها ولا يخيبهم من بركة القبول في فعلهم ذلك".[3] فوصف تعظيمهم للشعائر المقدسة كتحري الوقوف بعرفة.

وعن مراسم الجنائز والتعزية لهم عادات خاصة بهم أيضا ،يقول ابن جبير: " ولأهل دمشق وغيرها من هذه البلاد في جنائزهم رتبة عجيبة، وذلك أنهم يمشون أمام الجنائز بقراء يقرؤون

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 184و185.
2- المصدر نفسه، ص259.
3- المصدر نفسه ، ص 264.

القرآن بأصوات شجية، وتلاحين مبكية تكاد تنخلع لها النفوس شجوا وحنانا، يرفعون أصواتهم بها، فتلقاها الآذان بأدمع الأجفان...ونقباء الجنائز يرفعون أصواتهم بالنداء لكل واصل للعزاء...فتسمع ما شئت من صدر الدين أو شمسة أو بدره أو نجمه....فإذا استكملوا وفرغوا من القراءة وانتهى المجلس بهم منتهاه قام وعاظهم واحدا واحدا بحسب رتبهم في المعرفة فوعظ وذكر ونبه على خدع الدنيا، وحذر وأنشد في المعنى ما حضر من الأشعار ثم ختم بتعزية صاحب المصاب والدعاء له وللمتوفي".[1] وقد أشار ابن جبير إلى تعظيم الدمشقيين للجنائز وأوضح طريقتهم في التعزية الذي كان لها شكل خاص.

ورغم أن ابن جبير استحسن عادات أهل دمشق في تعظيمهم للحجاج، واحتفالهم بيوم الوقوف بعرفة فضلا عن قراءتهم للقرآن في جنائزهم، إلا أنه انتقد بعض تصرفاتهم منها: " كثرة التمويل والتسويد، وامتثال الخدمة وتعظيم الحضرة وإذا لقي أحد منهم آخر مسلما يقول جاء المملوك، أو الخادم برسم الخدمة، كناية عن السلام...وصفة سلامهم إيماء للركوع أو السجود، فترى الأعناق تتلاعب بين رفع وخفض، وبسط وقبض، وربما طالت بهم الحالة في ذلك، فواحد ينحط وآخر يقوم، وعمائهم تهوي بينهم هويا فيا للعجب منهم إذا تعاملوا بهذه المعاملة، وانتهوا إلى هذه الغاية في الألفاظ بينهم فبماذا يخاطبون سلاطينهم ويعاملونهم؟ لقد تساوت الأذناب عندهم والرؤوس، ولم يميز لديهم الرئيس والمرؤوس"[2]. لهذا انتقد ابن جبير هذا الانعكاف الركوعي في السلام وقد قال عنه "كنا عهدناه لقينات النساء وعند استعراض رقيق الإماء، فيا عجبا لهؤلاء الرجال كيف تحلوا بسمات ربات الحجال"[3].

لكن ورغم ذلك الانتقاد، إلا أنّ إعجاب ابن جبير بأهل الشام وحسن معاملتهم وجمال بلادهم، ملك حبّه لهم حتى أنه شبه الشام ببلاد الأندلس ولذلك أطال مدة الإقامة بها.

3- الاحتفالات:

تعد الاحتفالات من الأعياد والأعراس وغيرها من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية التي سجلتها رحلة ابن جبير، باعتبارها وصفا لطبيعة العلاقات بين الأفراد تماسك المجتمعات، ولما لها

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 268.
2- المصدر نفسه، ص 268، 269
3- المصدر نفسه ، ص 268، 269.

أيضا من دور في التواصل والاتصال مع الآخرين، وتطور العلاقات الإنسانية. وقد رسم لنا ابن جبير صورا ناطقة لهذه الاحتفالات، كان معظمها دينيا وبعضها الآخر كان محليا اجتماعيا.

فعن الاحتفالات ببلاد الحجاز التي كان معظمها دينيا، يقول: "درج أمراء مكة على الاحتفال ببداية الشهور الهجرية وذلك بالذهاب إلى الحرم المكي مع طلوع شمس أول كل شهر، أما العامة فيقومون بتهيئة بعضهم بعضا مع دعاء كل منهم للآخر".[1] فبداية الشهور الهجرية كانت مقدسة بالنسبة لأهل الحجاز لدرجة الاحتفال بها وهذا ما وصفه ابن جبير.

ولهذا يشير أيضا إلى حرص أهل مكة على الاحتفال بشهر رجب لأنه بمثابة "موسم كبير يجري الاستعداد له قبل قدومه بمدة من الزمن بالإضافة إلى حرصهم على أداء العمرة الرجبية".[2]

وقد أفاض ابن جبير في طريقة احتفالهم، وما يقومون بإعداده لهذه المناسبات الدينية، وقدم صوراً دقيقة عن تقديس أهل مكة لشهر رجب باعتباره موسماً من المواسم المعظمة عندهم وأكبر أعيادهم ويقول في ذلك: "...عندهم أخت الوقفة العرفية، لأنهم يحتفلون بها الاحتفال الذي لم يسمع بمثله ويبادر إليها، أهل الجهات المتصلة بها، فيجتمع لها خلق عظيم لا يحصيهم إلا الله عز وجل..."[3]، ويكون أحيانا احتفالهم في غاية الغرابة والعجب "فقبل ليلة وصباح بداية الشهر يتم استعداد لها بأيام فتملئ شوارع وأزقة مكة المكرمة بالهوادج المشدودة على الإبل المكسوة بالحرير والكتان كل حسب سعته ويخرجون إلى التنعيم فتمتلئ بهم الشعاب والأباطح وقد ذكر ابن جبير أن هذه الهوادج يخيل لناظر إليها أنها قباب مضروبة، وفي أول ليلة من الشهر تشعل النيران على جانبي الطريق كله بالإضافة إلى الشموع التي تتقدم الإبل وعند عودتهم إلى المسجد الحرام تكون الصفا والمروة كلها موقدة والازدحام فيها شديد وعند ثبوت دخول شهر رجب تضرب الطبول وتنفخ الأبواق إشارة أنها ليلة الموسم، ويشارك الأمير الاحتفال وحاشيته لأداء العمرة وطريقته في الطواف كعادته في أول كل شهر"[4]. فوصف ابن جبير طريقة التحضير للاحتفال بتزيين الأزقة والإبل وغيرها من الضروب.

1- عواطف يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر الحجاز خلال القرنين 7، 8هـ، ص 224.
2- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص106
3- المصدر نفسه، ص 108.
4- المصدر نفسه ، ص 107.

ثم يواصل ابن جبير وصفه للاحتفالات الدينية المتميزة عندهم وطريقة الاستعداد لها وإحيائها ، ومنها استقبالهم لشهر شوال فيقول:"...وكانت ليلة استهلال هلاله من الليالي الحفيلة في المسجد الحرام، زاد الله تكريما، جرى الرسم في إيقاد مشاعله وثرياته وشمعه..."[1] ويعد إيقاد المشاعيل والثريات من لبين مظاهر الاحتفالات في زمن الرحلة.

وعن أهمية الاحتفال بليلة النصف من شعبان يقول: " وهذه الليلة المباركة، أعني ليلة النصف من شعبان عند أهل معظمة للأثر الكريم الوارد فيها...فشاهدنا ليلة البيت احتفالا عظيما في الحرم المقدس إثر الصلاة "[2].

أما شهر رمضان فهو من الشهور المباركة المقدسة عند المسلمين، وقد وصف ابن جبير كيفية احتفالهم به من استعدادات مختلفة في المسجد الحرام فيقول: "...وكان صيام أهل مكة له يوم الأحد...ووقع الاحتفال في المسجد الحرام لهذا الشهر المبارك، وحق ذلك من تجديد الحصر وتكثير الشمع والمشاعيل..."[3] فقد اهتم المسلمون إلى يومنا هذا بشهر رمضان والاستعداد له وهذا أيضا ما رصده ابن جبير في رحلته.

وينتقل بعد ذلك إلى وصف يوم خاص يطوف فيه النساء بمكة ولم تبق امرأة بمكة إلا حضرت بالمسجد الحرام ذلك اليوم، وقد فتح السنييون البيت الكريم على عاداتهم، وأسرعوا في الخروج منه وأفرجوا للنساء عنه يقول في ذلك:" وفي اليوم التاسع والعشرين منه، وهو يوم الخميس، أُفرد البيت للنساء خاصة، فاجتمعن من كل أوب، وقد تقدم احتفالهن لذلك بأيام كاحتفالهن للمشاهد الكريمة..."[4] وقد وصف احتفال النساء بيوم خاص يطفن فيه ولاحظ أن كل النساء بمكة قد حضرن بالمسجد الحرام.

4- **الأعياد**:ذكر ابن جبير أن الأعياد الدينية ببلاد الحجاز يحضرها الأمراء مع الناس حيث يشاركهم في احتفالاتهم " فلما كان صبيحتها وقضى الناس صلاة الفجر، لبس الناس أثواب عيدهم وبادروا لأخذ مصافهم لصلاة العيد بالمسجد الحرام...فأول من بكر الشيبيون، وفتحوا باب الكعبة المقدسة، وأقام زعيمهم جالسا في العتبة المقدسة، وسائر الشيبين داخل الكعبة إلى أن

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 139.
2- المصدر نفسه، ص 119.
3- المصدر نفسه، ص 122.
4- المصدر نفسه ، ص 115.

أحسوا بوصول الأمير مكبرا فنزلوا إليه وتلقوه بمقربة من باب النبي (صلى الله عليه وسلم) ...والناس قد احتفلوا للعيد والحرم قد غص بهم..."[1].

كما ذكر مظاهر الاحتفال بالأعياد الدينية وذلك بالتغافر والتصافح وأداء صلاة العيد وإشعال الشموع تعبيرا عن فرحهم وسرورهم بهذه المناسبات السعيدة.

وأضاف أيضا قوله: "وأقبل الناس بعضهم على بعض بالمصافحة والتسليم والتغافر والدعاء مسرورين جدلين فرحين بما آتاهم الله من فضله..."[2]، وكانوا يعبرون عن فرحهم واحتفالهم في المناسبات بإشعال الشموع في قوله " ثم كانت ليلة تسع وعشرين منه، ...فأدير الشمع أعلاها وأحدق أسفلها ببقايا شمع كثير...وأحدق أيضا داخل الدائرة شمع آخر متوسط، فكان منظرا مختصرا ومشهد عن احتفال..."[3] كما وصف تلك المشاهد وصفا دقيقا حتى يخيل للقارئ أنه يعيشها في الوقت الحالي.

أما في مصر والعراق وبلاد الشام لم يذكر شيئا عن مثل هذه الاحتفالات، وذلك راجع لأنه لم يطل الإقامة بهذه الأمصار ولم ينقل لنا كثيرا عن الحياة الاجتماعية بها فقط صوّرَ لنا عرسا إفرنجيا يقول عنه: "ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدث بها زفاف عروس شاهدنا مصور في أحد الأيام عند مينائها، وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالا ونساء واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة والبوقات تضرب والمزامير-حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها عن يمين وشمال، كأنهما من ذوي أرحامها، وهي في أبهى زي، وأفخر لباس، تسحب أذيال الحرير المذهب سحبا على الهيئة المهودة من لباسهم، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة..."[4] فضلا عن وصفه لطريقة احتفالهم بهذا العرس من ضرب الطبول والبوقات والمزامير عند باب العروس التي لبست لباس من حرير وذهب.

كما أشار ابن جبير إلى الأعياد الدينية المسيحية التي شاهدها بجزيرة صقلية التي يقول عنها: "ومن أعجب ما شاهدناه بها من أمور الكفران كنيسة تعرف بكنيسة أنطاكي، أبصرناها يوم الميلاد، وهو عيد لهم عظيم، وقد احتفلوا بها رجالا ونساء، فأبصرنا من بنيانها مرأى يعجز

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 134.
2- المصدر نفسه ، ص 135.
3- المصدر نفسه، ص 132.
4- المصدر نفسه ، ص278.

الوصف عنه، ويقع القطع بأنها أعجب مصانع الدنيا المزخرفة وجدرها الداخلة ذهب كله."[1] وواضح مدى إعجاب ابن جبير بكنيستهم التي أذهلته بزخرفها وطريقة تشييدها.

وأخيرا ينتقل إلى وصف مدينة أطرابش من جزيرة صقلية وعن عيد آخر للمسلمين، فيقول: "...الناس على الكمال بحساب يوم الخميس المذكور، وكان مصلانا في هذا العيد المبارك بأحد مساجد أطرابش المذكورة مع قوم من أهلها"[2]، امتنعوا من الخروج إلى المصلى بعذر كان لهم، فصلينا صلاة الغرباء...وخرج أهل البلاد إلى مصلاهم من صاحب أحكامهم وانصرفوا بالطبول والبوقات.

وهذه بعض الأعياد التي رصدها ابن جبير في رحلته وهي تعبر عن الاختلاف مظاهر الحياة الاجتماعية من مكان لآخر ،خاصة فيما يتعلق ببلاد الحجاز التي أولت اهتماما كبيرا للأعياد الدينية في تلك الفترة وذلك باحتفالاتهم بالشهور الهجرية وتعظيمها وهذا ما يدل على اهتمامها بالمظاهر الدينية في أواخر القرن السادس الهجري بالمقارنة مع المناطق الإسلامية الأخرى.

5- **الملابس**: يعد اللباس أو طريقة خياطته شكلاً من أشكال الحضارة، فهو يعبر عن خصوصية في التنوع في الأشكال والألوان لكل بلد زاره ابن جبير، وملاحظته للاختلاف من طبقة إلى أخرى ومن مجتمع إلى آخر.

وقد حرص أهل مكة المكرمة على لبس الملابس النظيفة الحسنة،حيث إذا نظرنا إلى أمير مكة المكرمة يقول ابن جبير واصفا لباسه "وفي ليلة أهل هلال الشهر المذكور وهو جمادى الأولى، بكر أمير مكة مكثر المذكور...في صبيحتها إلى الحرم الكريم مع طلوع الشمس لابسا ثوب بياض متقلدا سيفه مختصرا متعمما بكرزيه صوف بيضاء رفيعة."[3]

أما لباس الخطيب في صلاة الجمعة فيختلف عن العامة، ويشرح ابن جبير بالتفصيل هذا اللباس قائلا: "وبإزاء المقام الخطيب لابسا ثوب سواد موسوما بذهب ومتعمما بعمامة سوداء مرسومة أيضا وعليه طيلسان شرب رقيق وكذلك من كسا الخليفة التي يرسلها إلى الخطباء"[4]،وإزاء

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 306.
2- المصدر نفسه ، ص 309 و310.
3- المصدر نفسه ، ص 74.
4- المصدر نفسه، ص 72.

هذا، نجد: "المؤذن الزمزمي رئيس المؤذنين بالحرم الشريف، ساع أمامه لابسا ثياب السوداء أيضا وعلى عاتقه السيف يمسكه دون تقلد"[1].

ويتعرض ابن جبير لوصف لباس لأهل القبائل اليمنية التي كانت موجودة بمكة قائلا: "هذه القبائل اليمنية لا ملبس لهم سوى أزور وسخة أو جلود...وهم مع ذلك أهل بأس ونجدة..."[2] وإن كان لباسهم عبارة عن جلود وأزور وسخة إلا أن ابن جبير وصفهم بأنهم أصحاب مروءة ونخوة وشرف.وبذلك يكون ابن جبير قد لفت انتباهه ببلاد الحجاز سوى لباس أمير مكة وخطيبها ومؤذنها وبعض لباس لأهل قبائل يمنية ولم يصف لباس العامة من أهل الحجاز.

وعن لباس الخطيب في مصر، فهو لا يختلف عن الحجاز ويقول ابن جبير: "وفي أحد الجوامع الخطبة اليوم، ويأخذ الخطيب فيها مأخذ سني...ويأتي للخطبة لابسا سوداء عليها طيلسان شرب أسود، وعمامة سوداء متقلدا سيفه وهو الذي يسمى بالمغرب الإحرام".[3]

ولم يُخفِ استغرابه بلباس أهل عيذاب حيث"رجالهم ونساؤهم يتصرفون عراة إلا خرقا يسترون بها عوراتهم وأكثرهم لا يسترون."[4] لذلك وصفهم ابن جبير أنهم "يشبهون الأنعام في تصرفاتهم وأخلاقهم الفاسدة ولا دين لهم سوى كلمة التوحيد"[5].

ولم يذكر ابن جبير لباس أهل العراق شيئا ما عدا ما ذكره عن لباس الخليفة، الذي وصفه قائلا: "أبصرنا الخليفة المذكور، وهو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضيء...لابسا ثوبا أبيض شبه القباء برسوم ذهب فيه، وعلى رأسه قلنسوة مذهبة مطوقة بوبر أسود من الأوبار الغالية القيمة المتخذة للباس مما هو كالفنك وأشرف، متعمدا بذلك زي الأتراك تعمية لشأنه، لكن الشمس لا تخفى وإن سترت".[6] وهو لباس في رأيه يشبه زي الأتراك لتأثرهم بحضارات الأمم الأخرى في العصر العباسي وذلك بانفتاحهم عليهم وامتزاجهم بهم .

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 73.
2- المصدر نفسه ، ص 111.
3- المصدر نفسه، ص 24.
4- المصدر نفسه ، ص 48، 49.
5- المصدر نفسه، ص 24.
6- المصدر نفسه، ص203، 204.

ولفت انتباهه لباس الخطيب وهو خارج من جامع المكرم بالكوفة فقال عنه: "...ومنه خرج الخطيب لابسا ثياب السواد للخطبة."[1] والملاحظ أن لون لباس الخطيب في بلاد الحجاز ومصر والعراق، تميز بلون واحد ألا وهو الأسود وهذا ما رصده ابن جبير في رحلته ولكنه لم يذكر سبب ذلك إلا أن اللون الأسود كان يلبسه الخطيب ليتميز عن العامة في هذه الفترة.

ولم يذكر ابن جبير زي أهل دمشق ما عدا سخريته من عمائمهم التي قال بأنها "تهوي بينهم في سلامهم هويا"[2].

ولاحظ أيضا في مدينة صور، لباس عروس وذلك في عرس شاهده هناك وهو عرس نصارى فقال عن لباسهم: "...وهي في أبهى زي، وأفخر لباس تسحب أذيال الحرير المذهب سحبا على هيئته المعهودة من لباسهم، وعلى رأسها عصابه ذهب قد حفت شبكة ذهب منسوجة."[3]

وحينما زار جزيرة صقلية لاحظ أن لباس النصرانيات يشبه " زي نساء المسلمين، فصيحات الألسن، ملتحفات، منتقبات، خرجن في هذا العيد المذكور، وقد لبسن ثياب الحرير المذهب، والتحفن اللحف الرائقة، وانتقبن بالنقب الملونة، وانتعلن الأخفاف المذهبة، وبرزن لكنائسهن أو كنسهن حاملات جميع زينة النساء المسلمين من التحلي والتخضب والتعطر"[4]. وقد ذكر أن زي النصرانيات لا يختلف عن زي النساء المسلمين ولا زينتهن تختلف عنهن.

وأشار كذلك إلى ملابس الوزراء والحُجاب في عهد حُكم الملك غليام حيث أثار انتباهه بأنهم"متسعون في الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة، وما منهم إلا من له الحاشية والخَول والإتباع"[5].

ولعل اللباس الذي وصفه ابن جبير بالمناطق التي زارها خاصة لباس الخلفاء والخطباء في تلك الفترة، عَبَّرَ عن تنوع في مظاهر حضارتهم الاجتماعية وكشف عن خصوصيته، في الأوصاف

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 188.
2- صلاح الدين المنجد، المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى، ص 38.
3- المصدر السابق، ص 278.
4- المصدر نفسه، ص307.
5- المصدر نفسه، ص 298.

المختلفة لهذه الأزياء، وذلك كانعكاس طبيعي لكثرة الطبقات الاجتماعية رغم أنه لم يفصل فيه كثيرا خاصة ببعض المناطق كدمشق والعراق وغيرها .

6- **الأطعمة والأشربة:** يتميز كل بلد بأطعمة وأشربة خاصة تعبر عن الوضع الاقتصادي والمستوى الاجتماعي "لذلك البلد، لأن الطعام له ولا شك أهميته تتعدى كونه وسيلة لتغذية الجسم بغية الحياة، ولأنه أيضا يرتبط بالبيئة والاقتصاد والدين والمعتقدات وربما بكافة المظاهر الإنسانية المادية والفكرية فالطعام يشكل مركبا حضاريا، ويمكن للقارئ من خلال نصوص الرحلات معرفة معلومات عن الأحوال الاقتصادية والأوضاع الاجتماعية في الأماكن والعصور التي تحدث عنها الرحالة، ذلك أن الطعام وترتيبه في مضمونه ليس ماديا فحسب وإنما في دلالته الاجتماعية ورموزه الثقافية وما ينقله لنا من معالم الحضارة في كل بلد[1].

وقد اشتهرت بلاد الحجاز بإعداد عدة أنواع من الطعام، مثل إعداد أطعمة معينة أثناء مناسك الحج يحملونها معهم إلى عرفات، وقد أشار ابن جبير إلى عدة أنواع من الطعام حيث قال: " يستعدون للوصول إلى هذه البلدة المباركة قبل حلولها بعشرة أيام، فيجتمعون بين النية والعمرة وميزة البلد بضروب من الأطعمة كالحنطة وسائر الحبوب اللوبياء وما دونها، ويجلبون السمن والعسل والزبيب واللوز فتجمع ميزتهم بين الطعام والإدام والفاكهة"[2].

كما أشار إلى وضع أهل مكة المكرمة في الأكل وهو اقتصارهم على تناول وجبة واحدة في اليوم عقب صلاة العصر مع تناول التمر في سائر النهار وانعكس هذا بالطبع على صحة أجسامهم وخلوها من الأمراض.[3]

كما تميزت مكة بكثرة خيراتها من فاكهة وخضر وألبان ولحوم وغيرها وفي ذلك يقول: "أما الأرزاق والفواكه وسائر الطيبات فكنا نضن أن الأندلس اختصت من ذلك بحظ وله المزية على سائر حظوظ البلاد حتى حللت بهذه البلاد المباركة فألفيناها تغص بالنعم والفواكه كالتين

1- ينظر حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، ص 129، 130.
2- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 110.
3- ينظر عواطف يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر الحجاز خلال القرنين 7 و8، ص 244.

والعنب والرمان والسفرجل...إلى جميع البقول كالباذنجان واليقطين..."[1] ولاحظ أن مكة تشبه بلاد تالأندلس في كثرة خيراتها من فاكهة وغيرها.

ويسجل ابن جبير إعجابه لأنواع ألبانها فيقول: " وأنواع اللبن في نهاية من الطيب وكل ما يصنع منها من السمن، فإنه لا تكاد تميزه من العسل طيبا"[2]، فضلا عن ذكره لأنواع من الحلويات التي كان يصنعها من أنواع غريبة من العسل والسكر المعقود على صفات شتى"[3].

أما عن اللحوم، فقد تميزت مكة بأنواع خاصة وأهمها لحوم الضأن التي عدّها ابن جبير أطيب اللحوم على الإطلاق فقال عن اللحوم: " وأما لحوم ضأنها فهناك العجب العجيب، قد وقع القطع من كل من تطوق على الآفاق وضرب نواحي الأقطار أنها أطيب لحم يؤكل في الدنيا وما ذاك والله أعلم إلا لبركة مراعيها."[4]

ولم يتحدث ابن جبير عن الطعام في مصر والعراق والشام ما عدا ما ذكره في طريقه إلى بغداد حيث قال: " ووجد الحاج فيها مصنعا قد اجتمع فيه الماء...فلم يبق مضرب ولا خيمة ولا ظلالة إلا وعلى جانبها كبش أو كبشان حسب القدرة والوجد...وسواهم الاستظهار على الطريق السمن والعسل واللبن إلا من تحمل أو استعمل منها بقدر حاجته."[5] قد لاحظ ابن جبير انتشار النشاط الفلاحي بهذا المكان والاهتمام بتربية الحيوانات.

وحين كان أهل الكوفة يجلبون الطعام إلى الحجاج وصف ابن جبير هذه الأطعمة فقال عنها: "وبها يتلقى الحاج كثير من أهل الكوفة وهم مستجلبون إليهم الدقيق والخبز والتمر والأدم والفواكه الحاضرة في ذلك الوقت"[6].

أما في الشام، فقد وصف أطعمتها فقال: "وهي سواء كلها بشجر الزيتون والتين والفستق وأنواع الفواكه ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها..."[7]

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 97.
2- المصدر السابق ، ص 98.
3- المصدر نفسه، ص 98.
4- المصدر نفسه ، ص 99.
5- المصدر نفسه ، ص 183.
6- المصدر نفسه، ص 186.
7- المصدر نفسه، ص 229.

وبذلك تكون رحلة ابن جبير قد جسدت وصفاً حياً للحياة الاجتماعية للعالم الإسلامي في العصور الوسطى خاصة منطقة الحجاز، حيث رصد سلوك حياتهم اليومية، ووصف اختلاف عاداتهم وتقاليدهم التي انتقد بعضها، والبعض الآخر تعجب منها، والبعض الآخر استحسنها، كما أنه أشار إلى تنوع لباسهم وتعدد صفة أشربتهم وأطعمتهم، ووصف أيضا طريقة احتفالهم بالمناسبات الدينية في بلاد الحجاز خاصة التي كانت تتميز بخصوصية فيما يتعلق بهذه الاحتفالات التي كانت تقام بداية كل الشهور الهجرية، إذن، فرحلة ابن جبير سجل حافل بالمظاهر الحياة الاجتماعية زمن الرحلة.

ب- المظاهر الاقتصادية:

قدمت رحلة ابن جبير وصفاً للنشاط الاقتصادي خاصة في منطقة الحجاز لأنه أطال البقاء فيها، ونقل لنا الكثير من ملامح الحضارية الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة وثروة حيوانية وغيرها، لذلك تعد رحلته وثيقة مهمة لدراسة المظاهر الاقتصادية في مناطق عدة كالحجاز وبلاد الشام والعراق ومصر وغيرها من المناطق التي زارها، ومن أهم هذه الأنشطة:

1) الزراعة:

عرفت بلاد الحجاز نشاطاً زراعياً مكثفاً ومتنوعا اعتمدت فيه على المياه التي توفرها نجد في القرين بئر مياه عذبة وفي مكة المكرمة هناك سقاية للماء وفي بطن مر وخليص وبدر والصفراء[1].

وأرجع ابن جبير ازدهار هذه الزراعة إلى الأودية المحيطة بمكة المكرمة، وإلى وجود جالية مغربية بها قامت باستصلاح الأراضي من: " ذوي البصارة بالفلاحة والزراعة فأحدثوا فيها بساتين ومزارع فكانوا أحد الأسباب في خصب هذه الجهات وذلك بفضل الله عز وجل وكريم اعتنائه بحرمه الكريم، وبلده الأمين"[2]. واستنتج ابن جبير سبب ازدهار الزراعة بمكة المكرمة وذلك راجع إلى كثرة الأودية.

وقد تحدث لنا ابن جبير عن تنوع المنتوجات الزراعية في بلاد الحجاز تحت عنوان: "ذكر ما خص الله تعالى به مكة من الخيرات والبركات حيث قال: "هذه البلدة المباركة سبقت لها ولأهلها الدعوة الخليلية الإبراهيمية"[3].ثم يضيف قائلا: "فهي أكثر البلاد نعما وفواكه"[4]

وذلك مصداقا لقول الله عز وجل على لسان خليله صلى الله عليه وسلم:﴿فَٱجعَل أَفۡدَة مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهوِي إِلَيهِم وَٱرزُقهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُم يَشكُرُونَ ﴾[5]

وقد تعجب ابن جبير من ازدهار الغلات الزراعية كالتمر والرمان والعناب والتين والبطيخ والباذنجان وغيرها في هذه البلاد بسبب دراية أهلها بطرق الغرس والزرع.

1- ينظر عواطف يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر الحجاز خلال القرنين (7 و8هـ)، ص 245.
2- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 68.
3 - المصدر نفسه، ص 96.
4- المصدر نفسه، ص 97.
5- سورة إبراهيم، الآية 37.

كما أُعجب بطعم الفواكه ورائحتها حيث يقول: " ومن أعجب ما اخترناه من فواكهها البطيخ والسفرجل، وكل فواكهها عجب، لكن للبطيخ فيها خاصة من الفضل عجيبة، وذلك لأن رائحته من أعطر الروائح وأطيبها، يدخل به الداخل عليك فتجد رائحته العبقة قد سبقت إليك..."[1].

ويبين ابن جبير المزارع والأراضي التي تأخذ منها الفواكه والخضروات حيث يقول: "وهذه الفواكه تجلب إليها من الطائف، وهي على مسيرة ثلاثة أيام منها، على الرفق والتؤدة، ومن قرى حولها، وأقرب هذه المواضع يعرف بأدم، هو من مكة على مسيرة يوم أو أزيد قليلا، وهو من بطن الطائف، ويحتوي على قرى كثيرة، ومن بطن مر"[2].فضلا عن بساتين والمزارع المنتشرة في مكة المكرمة، وأنحائها وعن بطن مر " وهو واد خصيب كثير النخل ذو عين فوارة سيالة الماء تسقى منها أرض تلك الناحية وعلى هذا الوادي قطر متسع وقرى كثيرة وعيون، ومنه تجلب الفواكه إلى مكة"[3]. وبذلك يكون ابن جبير قد أورد من المعلومات حول بلاد الحجاز وأهم المحاصيل والمنتوجات التي كان يتم زراعتها والاستفادة منها.

أما عن مصر لم يذكر ابن جبير النشاط الزراعي إلا ما ذكره في منطقة أبي تيج فيقول: "بموضع بغربي النيل يعرف بدندرة وهي مدينة من مدن الصعيد كثير النخل مستحسنة المنظر مشتهر بطيب الرطب"[4].وبمكان آخر يعرف بدمنهور: وهو "بلد مسور في بسط من الأرض أفيح، متصل من الإسكندرية إلى مصر، والبسيط كله حرث يعمه النيل بفيضه".[5] فلاحظ أن نهر النيل هو سبب خصبة تربته وازدهار نشاطه الفلاحي.

كما أشار بموضع يُعرف "بمنفلوط" بجودة قمحه حيث: " يُجلب إلى مصر لطيبه ورزانة حبه، وقد اشتهر عندهم بذلك"[6]، فضلا عن مدينة أسيوط التي كثُرت بها بساتين النخيل بشكل عام.

وإذا ما انتقلنا إلى العراق، يروي لنا ابن جبير إعجابه بالنماء الزراعي بها، حيث يذكرُ عن الفرات خلال مروره بمدينة الحلة أنه" من أعذب المياه وأخفها،وهو نهر كبير زخار، تصعد فيه السفن وتنحدر، والطريق من الحلة إلى بغداد أحسن طريق وأجملها، في بسائط من الأرض

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 97
2- المصدر نفسه، ص 99
3- المصدر نفسه، ص 161.
4- المصدر نفسه، ص 30.
5- المصدر نفسه، ص 18.
6- المصدر نفسه، ص 35.

وعمائر،تتصل بها القرى يمينا وشمالا، ويشق هذه البسائط أغصان من ماء الفرات تتسرب بها وتسقيها، فمحرثها لا حد لاتساعه وانفساحه"[1]. وقد أشار إلى أن ماء الفرات سبب ازدهار زراعتها.

ولاحظ ابن جبير أيضا أن الطريق من المدينة المنورة إلى العراق تكثر بها مصانع الماء التي كانت من أسباب النمو الزراعي حيث يقول: " وهذه المصانع والبرك والآبار والمنازل التي هي من بغداد إلى مكة هي آثار زبيدة ابنة جعفر بن أبي جعفر المنصور زوج هارون الرشيد وابنة عمه، انتدبت لذلك مدة حياتها.[2]

وإلى جانب آخر، يُرجع ابن جبير الفضل في إقامة هذه المصانع والآبار والمنازل وغيرها إلى وفرة المياه وتنوع مصادرها المياه طيلة سيره إلى بغداد، قال يصف ذلك:"من جملة الدواعي لافتراقهم كثيرة القناطير المفترضة في طريقهم إلى بغداد، فلا يكاد تمشي ميلا إلا وتجد قنطرة على نهر متفرع من الفرات، فتلك الطريق أكثر الطرق سواقي وقناطير[3].

وفي طريقه إلى مدينة بغداد، لاحظ ابن جبير قرية تعرفُ بالقنطرة بها أشجارٌ من الفواكه وتدفق الماء في كل مكان حيث يقول: "...نزلنا بقرية تعرف بالقنطرة كثيرة الخصب، كبيرة الساحة، متدفقة جداول الماء، وارفة الظلال بشجيرات الفواكه، من أحسن القرى وأجملها، وبها قنطرة على فرع من فروع الفرات كبيرة محدودبة"[4]، كما عُرف عن هذه القرية "حصاد الشعير بهذه الجهات في هذا الوقت الذي هو نصف مايه[5]. وهذا يدل على أنه اهتم بذكر نشاط بعض القرى ولم يهتم فقط بالمدن.

ولفت انتباهه أيضا في طريقه من الحلة إلى بغداد "أحسن طريق وأجملها في بسائط من الأرض وعمائر...ويشق هذه البسائط أغصان من ماء الفرات تتشرب وتسقيها، فَمَحْرثُها لا حدّ لاتساعه وانفساحه، فللعين في الطريق مسرح انشراح"[6].

1- نوال عبد الرحمن شوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، ص 113.
2- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 185.
3- المصدر نفسه، ص191.
4- المصدر نفسه ، ص 191.
5- المصدر نفسه، ص 191.
6- المصدر نفسه ، ص 190.

ووصف ابن جبير استخدام أهالي بعض البلدان ريّ مزروعاتهم من العيون، من تلك البلدان"مدينة رأس العين اشتق اسمها من كثرة العيون التي تتوزع مياهها في جداول تنبسط في مروج خضراء، فكأنها سبائك اللجين الممدودة في بساط الزبرجد، تحف بها أشجار وبساتين قد انتظمت حافتيها إلى آخر انتهائها من عمارة بطحائها".[1]كذلك وَصَفَ البساتين الخضراء المثمرة في مدينة دنيصر وطريقة سقيها، فقال:"هي في بسيط من الأرض فسيح، وحولها بساتين الرياحين والخضر، تسقى بالسواقي...."[2] لاحظ ابن جبير أن طريقة سقي الأراضي تخالف من مكان إلى آخر وفصل في ذكره عدة مرات.

وفي مدينة نصيبين رأى ابن جبير ازدهار زراعتها فقال:"...يمتد أمامها وخلفها بسيط أخضر مد البصر، قد أجرى الله فيه مذانب من الماء تسقيه، وتطرد في نواحيه، ويحف بها عن يمين وشمال بساتين ملتفة الأشجار، يانعة الثمار، ينساب بين يديها نهر قد انعطف عليها انعطاف السوار، والحدائق تنتظم بحافتيه وتفيء ظلالها الوارفة عليه".[3] اذن فمدينة نصيبين لا تختلف عن غيرها في طريقة سقي أراضيها الزراعية إما من الأنهار أو العيون.

فضلا عن مدينة منبج التي: "...تحف بغربيها وبشرقيها بساتين ملتفة الأشجار، مختلفة الثمار، والماء يطرد فيها، ويتخلل جميع نواحيها..."[4]

وجاء وصفه للنماء الزراعي في مدينة بزاغة فقال: " ولهذه البلدة عين معينة يخترق ماؤها بسيط بطحاء ترف بساتينها خضرة ونضارة، وتريك برونقها الأنيق حسن الحضارة".[5] بالإضافة إلى تميز مدينة حلب بأنها أخصب بلاد الله وأكثرها رزقاً:" ....وهي سواد كلها بشجر الزيتون والتين والفستق وأنواع الفواكه ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين، وهي من أخصب بلاد الله وأكثرها رزقا"[6]. في حين رأى في مدينة حماة وفرة الخُضرة والبساتين وكثرة المياه فقال عنها: "مدينة حماة أنها انتظمت ببساتين تتهدل أغصانها عليه، وتلوح خضرتها عذرا بصفحتيها، يتسرب ظلالها وتنساب على سمت اعتدالها."[7] فالمدن التي ذكرها كبزاغة وحلب

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص217، 218.
2- المصدر نفسه ، ص 216.
3- المصدر نفسه ،ص 223.
4- المصدر نفسه، ص 223.
5- المصدر نفسه، ص 224.
6- المصدر نفسه، ص 225.
7- المصدر نفسه، ص 230.

وغيرها قد عرفت نشاطا فلاحيا الذي تمثل في أشجار الفواكه المختلفة لكثرة مياهها وقد وصفها بأجل الصفات فهي أخصب بلاد الله وأكثرها رزقا.

أما دمشق، فقد وصفها ابن جبير أنها جنة المشرق، وطبيعي أن يزدهر بها النشاط الفلاحي، وذلك راجع لكثرة الماء بها، فقد وصف "بساتينها بأنها محدقة إحداق الهالة بالقمر وقد أشار إلى كثرة الماء بها حتى سئمت أرضها كثرة الماء واشتاقت إلى الظماء"[1].أما عن مدينتي عكا وصور فلم يذكر نشاطا زراعيا محددّا بهذه الأمكنة فقال عنهما "لا بساتين حولهما، وإنما هما في بسيط من الأرض أفيح متصل بسفح البحر، والفواكه تجلب إليهما من بساتينهما التي بالقرب منهما"[2].لاحظ قلة النشاط الزراعي في هذه المناطق فهي تجارية بالدرجة الأولى وهذا ما أكده ابن جبير. وامتازت جزيرة صقلية ومدنها ولا سيما مدينة مسينة التي وصفها "بكثرة الخصب والرفاهة مشحونة بالأرزاق على اختلافها، مملوءة بأنواع الفواكه وأصنافها"[3].

إلى جانب مدن الصقلية الأخرى، هناك مدينة أطرابش التي ذكر بأنها على "حُرث عظيم، وبهذا الجبل الكروم والمزارع"[4]. فضلا عن مدينة باليرمو التي يروي ما شاهده من: "محارث ومزارع لم تر مثل تربتها طيبا وكرما واتساعا فشبهناها بقنباتية قرطبة أو هذه أطيب وأمتن."[5] لم تختلف جزيرة صقلية ومدنها عن مدينة دمشق بكثرة محاصيلها الزراعية لكثرة مياهها.

وبذلك يكون ابن جبير رصد لنا النماء الزراعي بالأماكن التي زارها وفصل في محصولاتها وفي تطورها ورجع أسباب ذلك لكثرة الموارد المائية خاصة بمدينة دمشق ومدن جزيرة صقلية وبعض مدن بالعراق.

2) الصناعة:

لم يشر ابن جبير إلى الجانب الصناعي بكثرة في منطقة الحجاز،لأنّ لنجاح الصناعة في أي مكان لابد من توفر مقوماتها المتمثلة في المواد الخام والأيدي العاملة، وفي بلاد الحجاز نلاحظ

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 234.
2- المصدر نفسه ، ص283.
3- المصدر نفسه ، ص 296.
4- المصدر نفسه ، ص 308 و309.
5- المصدر نفسه، ص 307.

أن المواد الخام المجلوبة إليها مثل الجواهر والياقوت وغيرها من الأحجار الكريمة[1]، لصناعة الحلي والمجوهرات، كذلك لاحظ ابن جبير صناعة دبس التمور في مكة المكرمة، حيث أشار إلى "جودة هذا التمر وعده بمنزلة التين الأخضر، وهو في نهاية الطيب واللذاذة لا يسأم التفكه به، ويخرج الناس إليه كخروجهم إلى الضيعة أو كخروج أهل المغرب لقراهم أيام نضج التين والعنب، وعند نضجه يبسط على الأرض قدر ما يجف قليلا، ثم يركم بعضه على بعض في السلال والظروف ثم يحفظ لوقت استخدامه"[2]. كما نجده يلاحظ استخراج بعض المعادن من"بحر عيذاب مغاص على اللؤلؤ في جزائر على مقربة منها...ويستخرج منه جوهر نفيس له قيمة سنية..."[3] ويعتبر استخراج الجواهر كاللؤلؤ من أهم الصناعات النفيسة وقد ذكر ابن جبير أن له قيمة سنية.

وأشار أيضا إلى انتشار صناعة السفن في تلك الفترة بعيذاب التي"تسمى بالجلاب ولا يستعمل فيها مسمار البتة إنما هي مخيطة بأمراس من القنبار، وهو قشر جوز النارجيل*...ويفتلون منه أمراسا يخيطون بها المراكب ويظلونها بدسر من عيدان النخل إذا فرغوا يدهن بالخروع أو بدهن القرش ليلين ويرطب"[4]. وقد لاحظ ابن جبير أن لهم طريقة خاصة في صنع هذه السفن التي كانت تستعمل زمن الرحلة. ومن الصناعات الأخرى التي يذكرها ابن جبير بحلب "صنعة إلى سماط* صنعة أخرى إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدينة وكلها مسقف بالخشب، فكأنها في ظلال وارفة..."[5].

وتشير روايات ابن جبير أن من بين النشاطات الصناعية في العراق استخراج المعادن ومن أهمها معدن القار الذي فصل في طريقة استغلاله واستخراجه فقال عنه: "مررنا بموضع يعرف بالقيارة من دجلة، وبالجانب الشرقي منها، وعن يمين الطريق إلى الموصل، فيه وهدة من الأرض سوداء كأنها سحابة قد أنبط الله فيها عيونا كبارا وصغارا تتبع بالقار وربما يقذف بعضها بحباب منه كأنها الغليتان، ويصنع له أحواض يجتمع فيها فتراه شبه الصلصال منبسطا على الأرض أسود أملس، سقي لا رطبا، عطر الرائحة، شديد التعلك، فيلصق بالأصابع لأول مباشرة من اللمس،

1- ينظر عواطف يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر الحجاز خلال القرنين 7و8هـ، ص248.
2- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 99
3- المصدر نفسه، ص 46.
*- النارجيل: جوز الهند.
4- المصدر السابق ، ص 47.
*- السماط: الصف، وشيء يبسط ليوضع عليه الطعام وجانب الطريق.
5- المصدر نفسه، ص 226، 227.

وحول تلك العيون بركة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق أسود تقذفه إلى جوانبها فيرسب قارا...فيصل لنا. إن النار تشعل فيه إذا أرادوا نقله فتنشق النار ورطوبته المائية تعقده، فيقطعونه قطرات ويحملونه..."[1] وعدّ الرحالة هذه المعادن من أهم المقومات لازدهار النشاط الصناعي في العراق. فضلا عن صناعة الثياب العتابية المصنوعة من القطن والحرير ذات الألوان المختلفة التي اشتهرت في الوطن العربي والإسلامي وكانت "تصنع في إحدى محلات مدينة بغداد"[2]. إلى جانب ذلك، ذكر صناعة بعض الأدوية والأغذية للمرضى بالبصرة حيث في : "الشارع ومحلة باب البصرة سوق المارستان، وهي مدينة صغيرة، فيها المارستان الشهير ببغداد، وهو على دجلة، وتتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس، ويطالعون أحوال المرضى به، ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه، ومن بين أيديهم قومة يتناولون طبخ الأدوية والأغذية..."[3] ذكر ابن جبير انتشار النشاط الصناعي للأدوية بشكل واسع زمن الرحلة نتيجة التطور الفكري والعلمي واهتمام الحكام بهذا الصناعة.

لهذا، فإن رحلة ابن جبير أشارت إلى المجال الصناعي الذي كان منتشرا في تلك الفترة وشهد تقدما كبيرا، وذلك لحاجة الناس إليه كصناعة السفن والثياب العتابية المصنوعة من القطن والحرير وغيرها من الصناعات التي عبرت عن مظاهر الحياة الاقتصادية التي توزعت على مختلف المناطق الجغرافية المشرقية.

3) التجارة:

أدى ازدهار النشاط الزراعي والصناعي إلى ازدهار النشاطات التجارية الذي بدا واضحا في رحلة ابن جبير التي عكست الكثير من المعالم الحضارية للتجارة في مختلف البلاد التي قصدها الرحالة. ومعلوم أن الحجاز اعتمدت على التجارة منذ القدم حيث كانوا يتاجرون داخل مكة وخارجها، واهتمت قريش اهتماما بالغا بالتجارة لأنهم كانوا يرحلون رحلتيْن في العام رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام ، كما ورد ذكرها في القرآن الكريم:﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ(1)إِۦلَٰفِهِم رِحلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ﴾[4].

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 207
2- المصدر نفسه، ص 209.
3- المصدر نفسه ، ص 201.
4- سورة قريش، الآية 1-2.

ومن ثم وُجدت الكثير من المراكز التجارية والأسواق في الحجاز منها في "مدينة جدة والحوراء، والمدينة المنورة ومكة المكرمة والدهناء وتبوك وغيرها من المدن التي اعتبرت مدن تجارية وقد تنوعت مبيعاتها وأوقاتها في مكة المكرمة يوجد سوق تجاري ما بين الصفا والمروة تباع فيه الأطعمة وسوق العطارين وسوق البزارين وسوق العبيد والجواري وغيرها"[1]. وقد ذكر ابن جبير المدن التجارية في الحجاز التي كان أغلبها يعتمد على النشاط التجاري.

ومن جانب آخر، أشار ابن جبير إلى نشاط الأسواق التجارية الداخلية في مكة المكرمة حيث يقول "وما بين الصفا والمروة مسيل هو اليوم سوق حفيلة بجميع الفواكه وغيرها من الحبوب وسائر المبيعات الطعامية، والساعون لا يكادون يخلصون من كثرة الزحام، وحوانيت الباعة يمينا وشمالا، وما للبلدة سوق منتظمة سواها إلا البزارين والعطارين فهم عند باب بني شيبة تحت السوق المذكورة وبمقربة تكاد تتصل بها"[2]. تلك الأسواق التي كانت مُخصصةً للفواكه: "تجلب إليها من الطائف، وهي على مسيرة ثلاثة أيام منها، على الرفق والتؤدة، ومن قرى حولها، وأقرب هذه المواضع يعرف بأدم، هو من مكة على مسيرة يوم أو أزيد"[3] قد فصل ابن جبير في ذكر الأماكن وحدد لكل مكان تجارة خاصة به.

ومن الأسواق الداخلية التي نَشَّطَت حركة التجارة ببلاد الحجاز أسواق موسمية قال عنها ابن جبير:" وفي أيام الموسم عاد المسجد الحرام سوقا عظيمة يباع فيه من الدقيق إلى العقيق، ومن البر إلى الدر إلى غير ذلك من السلع، وكان مبيع الدقيق بدار الندوة إلى جهة باب بني شيبة، ومعظم السوق في البلاط الآخذ من الغرب إلى الشمال ومن الشمال إلى الشرق"[4].

أما عن الأسواق الخارجية، ذكر ابن جبير استيرادها للمواد المستوردة من الهند كالمسك والكافور والعنبر والعقاقير الهندية، ومن اليمن الزبيب الأسود والأحمر واللوز وقصب السكر والعسل والحنطة واللوبيا حيث نجده يقول: "ولو لم يكن لها من المتاجر إلا أوان الموسم ففيه مجتمع أهل المشرق والمغرب، فيباع فيها في يوم واحد، فضلا عما يتبعه، من الذخائر النفيسة كالجواهر، والياقوت، وسائر الأحجار ومن أنواع الطيب: كالمسك والكافور، والعنبر والعود والعقاقير الهندية،

1- محمد بادشاه، الحجاز في أدب الرحلة العربية،ص 325.
2- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 85.
3- المصدر نفسه، ص 99.
4- المصدر نفسه ، ص 160.

إلى غير ذلك من جلب الهند والحبشة، إلى الأمتعة العراقية واليمانية، إلى غير ذلك من السلع الخرسانية، والبضائع المغربية، إلى ما لا ينحصر ولا ينضبط، ما لو فرق على البلاد كلها لأقام لها الأسواق النافقة ولعم جميعها بالمنفعة التجارية، كل ذلك في ثمانية أيام بعد الموسم، حاشا ما يطرأ بها مع طول الأيام من اليمن وسواها. فما على الأرض سلعة من السلع ولا ذخيرة من الذخائر إلا وهي موجودة فيها مدة الموسم فهذه بركة لا خفاء فيها بها وآية من آياتها التي خصها الله بها"[1]. فقد رصد ابن جبير المناطق التي تعامل معها الحجازيين كالهند والحبشة كما وصف كثرة السلع الوافدة إليها واستغرب أنها يقام لها موسم تجاري في مدة ثمانية أيام.

فضلا عن الواردات من اليمن، "على ما أخبرني به فقيه من أهل اليمن يعرف بابن أبي الصيف، فاشتق الناس لهم هذا الاسم المذكور من اسم بلادهم، وهم قبائل شتى كبجيلة، وسواها، يستعدون للوصول إلى هذه البلدة المباركة قبل حلولها بعشرة أيام، فيجمعون بين النية في العمرة وميزة البلد بضروب من الأطعمة كالحنطة وسائر الحبوب إلى اللوبياء إلى ما دونها، ويجلبون السمن والعسل والزبيب واللوز، فتجمع ميزتهم بين الطعام والإدام والفاكهة"[2]. لاحظ ابن جبير أن مكة رغم نشاطها الفلاحي إلا أن لها واردات في الطعام والإدام والفاكهة من بلاد اليمن.

أما النقود المستخدمة في الحجاز، فيظهر من كلام ابن جبير أنهم استخدموا كلاّ من الدينار والدرهم حيث يقول: " ومن العجب في أمر هؤلاء المائرين أنهم لا يبيعون من جميع من ذكرناه بدينار ولا بدرهم، إنما يبيعونه بالخرق والعباءات والشمل، فأهل مكة يعدون لهم من ذلك مع الأقنعة والملاحف المتان وما أشبه ذلك مما يليه الأعراب ويبايعونهم به ويشاورونهم"[3].

كما كان للتجارة في مصر نشاطاً تجارياً خاصاً في بعض المناطق كالإسكندرية التي " أصبحت في العصر الأيوبي سوقا هامة للتجارة العالمية، وجرت العادة بها بأن لا تبحر أي سفينة من السفن التجارية الإيطالية إلا إذا وقعت ما كان مقررا عليها من الرسوم، وكانت هذه الرسوم تصل إلى الخمس...وكان أمناء السلطان يقومون بتقييد جميع ما يدخل برا الإسكندرية من سلع أو مال، وذلك ليفرضوا عليهم ضريبة جمركية، وفي سبيل ذلك كانوا يقومون بتفتيش المسافرين"[4]، وقد

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 97.
2- المصدر نفسه ، ص 110.
3- المصدر نفسه ، ص 110-111.
4- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، جامعة الإسكندرية، دط، 1986، ص 258.

أبدى ابن جبير امتعاضه لهذا الإجراء، منتقدا إياه قائلا:" فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا أن طلع أمناء إلى المركب من قبل السلطان بها، لتقييد جميع ما جلب فيه، فاستحضر جميع ما كان من المسلمين واحدا واحدا...فوقع التفتيش لجميع الأسباب ما دق منها وما جل، واختلط بعضها ببعض، وأدخلت الأيدي إلى أوساطهم بحثا عما عسى أن يكون فيها، ثم استخلفوا بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا، وفي أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدي وتكاثر الزحام، ثم أطلقوا بعد موقف من الذل والخزي عظيم"[1]. قد كان يفرض على الحاج ضريبة بالإضافة إلى خضوعه للتفتيش وهذا ما ضيق على الحاج سفره وقد انتقد ذالك ابن جبير بشدة.

ويهتم ابن جبير بإلقاء الضوء على قوص أهم مركز تجاري نهري في مصر لوقوعها عند نهاية طريق القوافل الممتد ما بين عيذاب والنيل، "ولكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنود وتجار الحبشة"[2]، لأنها كما يقول ابن جبير " مخطر للجميع، ومحط للرجال، ومجتمع الرفاق، وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندريين ومن يتصل بهم، ومنها يفوزون بصحراء عيذاب"[3].

كذلك ذكره لمنفلوط والحركة التجارية الداخلية فيها: "فيه الأسواق وسائر ما يحتاج إليه من المرافق وهي بلدة في نهاية من الطيب ليس في الصعيد مثلها، وقمحها يجلب إلى مصر لطيبه ورزانة حبه، قد اشتهر عندهم بذلك، فالتجار يصعدون في المراكب لاستجلابه"[4]. فضلا عما بالجيزة من" أسواق عظيمة يجتمع إليها"[5]. أما عيذاب، فتعد الموضع الذي يجتمع فيه الحجاج والتجار، والتي منها يشدون الرحال للسفر. وعنها قال ابن جبير: " وسرنا في الصحراء نَبِيتُ منها حيث جن علينا الليل، والقوافل العيذابية والقوصية صادرة وواردة، والمفازة معمورة أمناً"[6]. تعتبر هذه الصحراء رغم قفرها مركزا تجاريا.

ولا ينسى ابن جبير أن يذكر هذه الصحراء ونشاطها التجاري الحافل حيث يقول:" ورمنا في هذه الطريق إحصاء القوافل الواردة والصادرة فما تمكن لنا ولا سيما القوافل العيذابية المتحملة

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 13.
2- المصدر نفسه، ص 14.
3- المصدر نفسه ، ص 40
4- المصدر نفسه، ص 35.
5- المصدر نفسه، ص 29.
6- االمصدر نفسه ، ص 41.

لسلع الهند الواصلة إلى اليمن، ثم من اليمن إلى عيذاب، وأكثر ما شاهدنا من ذلك أحمال الفلفل، فلقد خيل إلينا لكثرته أنه يوازي التراب قيمة، ومن عجيب ما شهدنا بهذه الصحراء أنك تلتقي بقاعة الطريق أحمال الفلفل والقرفة وسائرها من السلع مطروحة لا حارس لها تترك بهذه السبيل إما الإعياء الإبل الحاملة لها أو غير ذلك من الأعذار، وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات"[1]. ويعود لها هذا الفضل لكونها ملتقى مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها مراكب الحجاج الصادرة والواردة.

أما دمشق، فقد أشاد ابن جبير بها باعتبارها مركزاً تجارياً هاماً، فيذكر أسواقها الداخلية قائلا: "أسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد، وأحسنها انتظاما، وأبدعها وضعا، ولا سيما قيسرياتها، وهي مرتفعات كأنها الفناديق، مثقفة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب القصور. وكل قيسارية منفردة ....وأغلاقها الحديدية. ولها أيضا سوق يعرف بالسوق الكبير يتصل من باب الجابية إلى باب شرقي".[2] بالاضافة إلى ازدهار نشاطها الزراعي عرفت أيضا نشاطا تجاريا من خلال أسواقها الداخلية.

ويقدر ابن جبير التواصل التجاري الذي كان بين الدمشقيين ومملكة الصليبيين قائمة بقوله:"واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق، على بلاد الإفرنج، غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك. وتجار النصارى أيضا لا يُمنع أحد منهم ولا يعترض، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم...وتجار النصارى أيضا يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدنيا لمن غلب"[3]. ولعل لهذا الوصف شأن كبير لمعرفة الحالة الاقتصادية في دمشق والشام أيام صلاح الدين والحروب الصليبية، الذي يثبت أن الخلاف السياسي والديني بين المسلمين والصليبيين لم يمنعهم من التبادل التجاري، وأن دمشق كانت مركزا سياسيا وحربيا، وفي الوقت نفسه مركزا تجاريا مهما.

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 43.
2- المصدر نفسه ، ص 261.
3- المصدر نفسه ، ص 260.

ويصف ابن جبير ازدهار النشاط التجاري ببلاد الشام وتحديداً ببلدة بزاغة التي عُرِفتْ بها "سوق تجمع بين المرافق السفرية والمتاجر الحضرية"[1]. كما يثني على حلب وما بها من "أسواق كبيرة متصلة الانتظام مستطيلة، يخرج من سماط صنعة أخرى إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية"[2].ولاحظ ابن جبير أيضا أن"بغداد الشرقية حفيلة الأسواق عظيمة الترتيب تشتمل من الخلق على بشر لا يحصيهم إلا الله تعالى.ويوجد بها أربع أكبر المحلات منها المحلات العتابية تصنع بها الثياب ومدخلات حربية وغيرها"[3].فذكر ابن جبير انتشار صناعة الثياب والصناعة الحربية ببغداد.

أما مدينة الموصل بداخلها قيسارية للتجار كأنها خان عظيم...عليها أبواب الحديد وتطوف بها دكاكين وبيوت بعضها على بعض فتجلى في أعظم صورة"[4]. كما وصف شكل هذه الدكاكين والبيوت المحيطة بها.

ومن الموصل إلى دنيصر التي" ...لها أسواق حفيلة، والأرزاق الواسعة وهي مخطر لأهل بلاد الشام وديار بكر وآمد وبلاد الروم التي تلي طاعة للأمير مسعود وما يليها..."[5] في حين يذكر الرحالة التجارة في عكة واصفا التبادل التجاري القائم بين النصارى والمسلمين لذلك عدها ابن جبير "قاعدة مدن الإفرنج ومحط الجواري المنشآت في البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة...وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق"[6].لاحظ ابن جبير الانتشار الواسع للتجارة رغم اختلافهم الديني بين المسلمين والنصارى.

أما عن النشاط التجاري في جزيرة صقلية فيصف مدينة مسينة أنها "مدينة موسم تجار الكبار، ومقصد جواري البحر من جميع الآفاق كثيرة الإرفاق برخاء الأسعار...أسوارها نافقة حفيلة، وأرزاقها واسعة بإرغاد العيش كفيلة"[7]. فضلا عن تطور النشاط التجاري الذي عرفته مدينة بلارمو بفضل: "الأسواق معمورة بهم وهم التجار فيها..."[8]

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 226.
2- المصدر نفسه، ص 226.
3- المصدر نفسه، 201.
4- صلاح الدين المنجد، المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى، ص 117.
5- المصدر السابق، ص 210.
6- المصدر نفسه ، ص 216.
7- المصدر نفسه، ص 296..
8- المصدر نفسه، ص 305.

ويتضح مما سبق، أنّ رحلة ابن جبير صورت مظاهر حضارية اقتصادية هامّة متمثلة في الزراعة والصناعة والتجارة، كما أشار إلى النماء الزراعي في العراق ودمشق لكثرة الموارد المائية المعروفة بها، وأعجب أيضا بكثرة خيرات مكة حتى شبهها بالأندلس. أما فيما يتعلق بالجانب الصناعي، فقد رصد لنا اهتمام العراقيين بصناعة السفن واستخراج المعادن فضلا عن إعجابه بازدهار النشاط التجاري في الحجاز وما حفلت به من أسواق داخلية وخارجية. ويقف بشيء من الاستغراب من النشاط التجاري القائم بين النصارى والمسلمين بدمشق وعكا رغم التباين والاختلاف الديني والسياسي الذي كان بينهما.

توطئة عامة:

عكست رحلة ابن جبير عن تمظهرات دينية وإسلامية وعلمية تكشف عن شخصية ابن جبير النقية والمحبة للعلم والثقافة، من خلال كتاباته ومواقفه وأوصافه.

ومن أمثل تلك المواقف النابعة عن تأثره بالنزعة الدينية، انتقاده واستغرابه لفرقة من السودان التي وصفها "بأنها فرقة أضل من الأنعام سبيلا وأقل عقولا، لا دين لهم سوى كلمة التوحيد"[1]، إنه موقف يَنِمُّ عن غيرته على الدين والشعائر والقيم الإسلامية.

وقد أشاد ابن جبير بأعمال الشخصيات التي دافعت عن المدن الإسلامية مقابل الصليبيين، وأَعْلتْ كلمة الله ومنها شخصية صلاح الدين الأيوبي التي يقول عنها "ومآثر هذا السلطان ومقاصده في العدل ومقاماته في ...عن صورة الدين لا تحصى كثرة"[2]. كما اهتم بأعمال الشخصيات التي حافظت على الحدود والمعالم الإسلامية كشخصية نور الدين زنكي، وذكر أسماء الوعاظ والزهاد والعلماء المسلمين.

وما عُرف عن ابن جبير تحيّزه ودفاعه عن الدين الإسلامي، نراه من خلال العناوين التي أدرجها في رحلته كلها تحمل رموز دينية فيقول مثلا: "ذكر مشاهد أهل البيت (رضي الله عنهم)[3]"، "ذكر المسجد الحرام والبيت العتيق كرمه الله وشرفه[4]، "وذكر مكة شرفها الله تعالى"[5]، كذلك وصفه للمدن الإسلامية بجملة "حفظها الله" أو "أبقاها الله" أو "حرسها الله" ومثال ذلك قوله: "مدينة الكوفة حرسها الله"[6]، "ومدينة صور دمرها الله تعالى"[7]، فضلا عن اهتمامه بالأبنية والمعالم الإسلامية، التي قدسها وبجلها تبجيلا كبيرا حيث احتلت مساحة كبيرة في رحلته كالمساجد خاصة المسجد الحرام والجامع الأموي بدمشق والمسجد النبوي، بالإضافة إلى اهتمامه بالشعائر الدينية خاصة في مكة المكرمة كحديثه عن شهر رمضان وصلاة التراويح والوقوف بعرفة وصلاة العيد وغيرها من الفروض الدينية التي أسهب في شرحها، كما صور الاختلاف المذهبي في الحرم المكي حيث ذكر تعدد الأئمة تبعا لتعدد المذاهب في ذلك الوقت، وقد انفردت مكة المكرمة في هذا الأمر، حيث كان لكل مذهب من المذاهب السنية الأربعة إمام مقدم للصلاة بطائفته

1 - ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 8.
2 - المصدر نفسه، ص 18.
3- المصدر نفسه، ص 21.
4 - المصدر نفسه، ص 59.
5 - المصدر نفسه، ص 87.
6 - المصدر نفسه، ص 277.
7 - المصدر نفسه،ص 277.

بالمسجد الحرام، ولكن الأولوية كانت للإمام الشافعي لأنه من قبل الخليفة، فهو الذي يقيم الخطبة، ويبدأ الصلاة وأهل مكة على مذهبه، وقد قال ابن جبير في ذلك: "وللحرم أربعة أئمة سنية وإمام خامس لفرقة تسمى الزيدية، وأشراف أهل هذه البلدة على مذهبهم، وهم يزيدون في الآذان حي على خير العمل، إثر قول المؤذن "حي على الفلاح"، وهم روافض سبابون، والله من وراء حسابهم وجزائهم، ولا يجمعون مع الناس إنما يصلون ظاهرا أربعا ويصلون المغرب بعد فراغ الأئمة من صلاتها"[1]. فقد انتقد ابن جبير تصرفاتهم التي شوهت الدين الإسلامي وهذا ما عبر عنه في رحلته.

ومن بين المذاهب المقدمة، المذهب الشافعي الذي قال عنه: "فأول الأئمة السنة الشافعي –رحمه الله– وإنما قدمنا ذكره لأنه المقدم من الإمام العباسي وهو أول من يصلي، وصلاته خلف مقام إبراهيم –صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا الكريم– إلا صلاة المغرب فإن الأربعة الأئمة يصلونها في وقت واحد مجتمعين لضيق وقتها، يبدأ مؤذن الشافعي بالإقامة ثم يقيم مؤذنو سائر الأئمة، وربما دخل في هذه الصلاة على المصلين سهو وغفلة لاجتماع التكبير فيها من كل جهة، فربما ركع المالكي بركوع الشافعي أو الحنفي أو سلم أحدهم بغير سلام إمامه، فترى كل أذن مصغية لصوت إمامها أو صوت مؤذنه مخافة السهو، ومع هذا يحدث السهو على كثير من الناس"[2]. لاحظ ابن جبير تعدد المذاهب في الحرم هذا ما أدى إلى الخلط في الصلاة وضياع المصلي بين المذاهب.

وكان لكل إمام مكانه يصلي فيه وقد وصف هذا ابن جبير قائلا: "فالمالكي (رحمه الله) يصلي قبالة الركن اليماني، وله محراب حجر يشبه محاريب الطرق الموضوعة فيها، والحنفي (رحمه الله) صلاته قبالة الميزاب تحت حطيم مصنوع له...والحنبلي (رحمه الله) وصلاته مع صلاة المالكي في حين واحد، موضع صلاته يقابل ما بين الحجر الأسود والركن اليماني ويصلي الظهر والعصر قريبا من الحنفي في البلاط الآخر من الغرب إلى الشمال، والحنفي يصليها في البلاط الآخر من الغرب إلى الجنوب قبالة محرابه ولا حطيم له وللشافعي بإزاء المقام الحطيم حفيل"[3].وبذلك وصف لكل مذهب مكانه وقام بتحديده بدقة في الحرم.

1 - ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 78.
2 - المصدر نفسه، ص 78، 79.
3 - المصدر نفسه، ص 79.

وبذلك يكون ابن جبير وصف التعدد المذهبي ببلاد الحجاز وأن لكل مذهب مكانه الخاص به للصلاة، بالإضافة إلى ذلك ذكر ابن جبير المذاهب التي كانت منتشرة في المدينة المنورة، فقال عنها "إذ لم تستطع استيعاب كافة المذاهب دون التحيز لأحدها على الآخر، فلم يكن بالإمكان الجهر بقراءة كتب السنة بالمسجد النبوي، ولعل هذا يعود إلى اضطهاد السنة، وهذا بعكس الصورة التي كان عليها المسجد الحرام من تعدد المذاهب"[1].

وقد انتقد ابن جبير انتشار الشيعة في المدينة المنورة حيث أشار إلى "تصدر الشيعة في الإمامة والخطابة بالمسجد النبوي ووصفهم بأنهم على مذهب غير مرضي"[2]. إن تمتع ابن جبير بعاطفة دينية قوية لهذا استنكر بشدة انتشار الفرق الشيعية التي مست الدين الإسلامي.

وذكر ابن جبير أيضا المذاهب التي كانت منتشرة في دمشق منها المذهب المالكي الذي قال عنه: "وللمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي، يجتمع فيها الطلبة المغاربة ولهم إجراء معلوم"[3]، أشار أيضا إلى الحنفية فقال: "وبالجانب الغربي بإزاء الجدار مقصورة أخرى هي برسم الحنفية يجتمعون فيها للتدريس وبها يصلون"[4].

وأما عن وجود الشيعة وفرقها بدمشق، فقال: "وللشيعة في هذه البلاد أمور عجيبة، وهم أكثر من السنيين بها، وقد عمرو البلاد بمذاهبهم وهم فرق شتى، منهم الرافضة، وهم السبابون، ومنهم الإمامية والزيدية، وهم يقولون بالتفضيل خاصة، ومنهم الإسماعيلية، والنصيرية وهم كفرة فإنهم يزعمون الإلهية لعلي (رضي الله عنه)، كان أشبه بالنبي (صلى الله عليه وسلم) من الغراب بالغراب، وينسبون إلى الروح الأمين –عليه السلام– قولا تعالى الله عنه علوا كبيرا إلى فرق كثيرة يضيق عنهم الإحصاء، قد أضلهم الله وأضل بهم كثيرا من خلفه، نسأل الله العصمة في الدين، ونعوذ به من زيغ الملحدين، وسلط الله على هذه الرافضة طائفة تعرف بالنبوية، سنيون يدينون بالفتوة وأمور الرجولة كلها، وكل من ألحقوه بهم لخصلة يرونها فيه منها يحزمونه السراويل فيلحقونه بهم، ولا يرون أن يستعد أحد منهم في نازلة تتنزل به، لهم في ذلك مذاهب عجيبة وإذا أقسم أحدهم بالفتوة بر قسمه، وهم يقتلون هؤلاء الروافض أينما وجدوهم وشأنهم عجيب في الألفة والائتلاف"[5].

1- نوال عبد الرحمن شوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، ص 93، 94.
2- عواطف يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر الحجاز خلال القرنين 7و8هـ ، ص 263.
3 - ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 245.
4 - المصدر نفسه، ص 239.
5 - المصدر نفسه، ص 252.

ولاحظ ابن جبير تطرف بعض فرق الشيعة وانتشارها في دمشق، وتعجبه من الفتن الدينية التي زرعتها بين الناس في بلاد الشام.

وتعرض أيضا إلى وجود طائفة صوفية في دمشق فقال عنهم "هم الملوك بهذه البلاد لأنهم قد كفاهم الله مؤمن الدنيا وفضولها"[1]، أما في مصر، فقد أشار إلى انتشار المذهب السني بقوله:

"وفي أحد الجوامع الخطبة اليوم، يأخذ الخطيب فيها مأخذ السني يجمع فيها الدعاء للصحابة (رضي الله عنهم)"[2]، وفي جزيرة صقلية ذكر ابن جبير الاختلاف العقائدي القائم بين النصارى والمسلمين، فمثلا ذكر في مدينة مسينة انتشار عبدة الصلبان بها فقال: "هذه المدينة موسم التجار الكفار، ومقصد جواري البحر من جميع الأقطار، كثيرة الأرفاق برخاء الأسعار، مظلمة الآفاق بالكفر لا يقر فيها لمسلم قرار، مشحونة بعبدة الصلبان"[3].لاحظ عدم وجود المسلمين بهذا المكان فوصفه بالكفر وأنها مشحونة بعبدة الصلبان.

أما بمدينة شفلودي فذكر انتشار الإسلام بها فقال عنها: " هي مدينة ساحلية كثيرة الخصب، واسعة المرافق.....تسكنها طائفة من المسلمين"[4] رصد اهتمامها بالإسلام عكس مدينة مسينة.

فيما يتعلق **بالجانب العلمي والثقافي**،تمثل في اهتمام الرحالة بالمجالس والمدارس العلمية والتقائه بالعلماء، ففي الحجاز كان المسجد الحرام من أعظم المراكز العلمية بالحجاز على الإطلاق فهو مقر للتدريس وجامعة مفتوحة لطلب العلم لا فرق بين غنيهم وفقيرهم"[5]. وقد أشار ابن جبير إلى كثرة حلقات العلم بالمسجد الحرام لكنه لم يفصل في هذه الناحية بأكثر من قوله إنه" غاص بحلقات الدرس"[6]، وقوله أيضا: " والحرم محدق بحلقات المدرسين وأهل العلم"[7]. وهذا يدل على أن المساجد كانت تهتم بنشر العلم.

ومما ساعد على بروز المسجد الحرام كمركز علمي، توفره على الكتب اللازمة للتعليم، ومنها الكتب الخاصة بكل عالم يتولى التدريس في المسجد الحرام وقد أشار إلى ذلك ابن جبير بقوله: " وباب إبراهيم (صلى الله عليه وسلم)، هو في زاوية كبيرة متسعة فيها دار المكناسي الفقيه

1 - ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 256.
2 - المصدر نفسه ، ص 15.
3- المصدر نفسه، ص 296.
4- المصدر نفسه، ص 301.
5- عواطف يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر الحجاز خلال القرنين (7و8 هـ)، ص 260.
6- المصدر السابق، ص 68.
7- المصدر نفسه، ص 83.

الذي كان إمام المالكية في الحرم-رحمه الله- وفيها أيضا غرفة هي خزانة للكتب المحبسة على المالكية في الحرم"[1].

أما المدارس في مكة، فلم يذكر ابن جبير أنه رأى مدرسة بمكة.أما المدينة المنورة، أصبحت"مركزا ثانيا من المراكز العلمية"[2]، وأشار ابن جبير إلى أن "المسجد النبوي، كان يضم مكتبة كبيرة احتوت خزانتين كبيرتين من الكتب، وبعض المصاحف الموقوفة على المسجد"[3]. فالمساجد في تلك الفترة حملت لواء العلم والتدريس من بينها المسجد النبوي فقد ضم خزانتين من الكتب.

ومن المظاهر العلمية التي سجلها ابن جبير ما أورده عن لقائه بعلماء مكة المكرمة، حيث أشاد بدورهم في نقل العلوم، ومنهم:

1/ عمر بن عبد المجيد الميناشي؛ الذي تلقى العلم على كبار العلماء وسمع منهم الكثير، جاور بمكة وتولى الخطبة فيها، له عدة مؤلفات تميز بسعة العلم والورع والثقة لقيه ابن جبير ونهل من علمه الشيء الكثير وأشار إلى أنه له حماما بمكة ينسب إليه"[4].

2/ أحمد بن علي الفنكي؛ وصفه ابن جبير بالفقيه المحدث والزاهد الورع، وجمعت بينه وبين ابن جبير صداقة قوية على الرغم من عدم ترجمته له بدليل قوله "صاحبنا الفقيه الورع" كناية عن صلته الوثيقة به، فابن جبير لم يكن مهتما بإيراد تراجم مفصلة لأشياخه وتلمح في رحلته إشارة لأحد مؤلفات أبي جعفر في وصف المسجد الحرام فقد ذكر ابن جبير أنه عقب قياسه لذرع المسجد الحرام وجده مطابقا لما أورده أبو جعفر الفنكي"[5].

3/ ابن أبي الصيف الفقيه؛ لم ترد في رحلة ابن جبير "معلومات كافية عنه ولكن من الواضح أنه على درجة كبيرة من العلم بحيث يسمع ويناقش فيما يقول ومما يدل على ذلك سؤال ابن جبير عن أصل السر واليمنيين وإجابته له. أما في **المدينة المنورة**، فقد ذكر ابن جبير **صدر الدين الغجندي** الذي تلقى عنه ابن جبير ووصفه برئيس الشافعية بأصبهان ونعته في مكان آخر برئيس العلماء وأشار إلى إجادته في الحديث باللسان العربي والأعجمي كما وصف حاله التي

1- عواطف يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر الحجاز خلال القرنين (7و8 هـ)، ص 266، 267.
2 - نوال عبد الرحمان شوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع هجري، ص 93، 94
3- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 171.
4- المصدر نفسه ، ص 271.
5- المصدر نفسه، ص 123.

يغلب عليها الطابع الملوكي من حيث العُدة والعتاد وكثرة الأتباع والعبيد والخدم، عرف بالسماحة وطلاق الوجه والبشر عند لقاء زائريه كريما مهيبا عالما"[1].

أما دمشق فكانت مركزا علميا عظيما فوصف ابن جبير فيها حلقات العلم والقراءة في الجامع "ومن مفاخر هذا الجامع أنه لا تخلو القراءة منه صباحا ولا مساء، وفيه حلقات التدريس للطلبة والمدرسين فيها إجراء واسع. وللمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي يجتمع فيها الطلبة المغاربة، ولهم إجراء معلوم...وعند فراغ المجتمع الشيعي من القراءة صباحا يستند كل إنسان منهم إلى سارية ويجلس أمامه صبي يلقنه القرآن، وللصبيان على قراءتهم جراية معلومة...وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة...ومدرسة نور الدين من أحسن المدارس."[2]

صوّر هذا النص بعض النشاط العلمي الذي عُرفتْ عنه دمشق "أيام نور الدين وصلاح الدين...وكان العلم بمتناول الجميع، بل كان الناس يجرون ويدفعون إلى العلم لكثرة ما كان بدمشق من أوقاف أوقفت على طلبة العلم وعلى العلماء".[3] كان بالجامع الأموي عدة زوايا لتدريس الطلبة العلوم الدينية التي قال عنها: "وبالجامع المكرم عدة زوايا على هذا الترتيب يتخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد عن ازدحام الناس، وهي من جملة مرافق الطلبة"[4]. فقد انتشرت الزوايا لتدريس العلوم بشكل كبير في الجامع الأموي وهذا ما رصده ابن جبير.

وعرفت دمشق أيضا، انتشار عدة مذاهب التي كان لها علاقة بحلقات التدريس منها المالكية الذي قال عنه: " وللمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي، يجتمع فيها الطلبة المغاربة ولهم إجراء معلوم"[5]. وعلاوة على ذلك أشار ابن جبير إلى علماء الحنفية فقال: "وبالجانب الغربي بإزاء الجدار مقصورة أخرى هي برسم الحنفية يجتمعون فيها للتدريس وبها يصلون"[6].

ومما أورده ابن جبير عن بغداد كثرة مجالس العلم والوعظ فيها، حيث كانت منتشرة في ذلك الوقت بكثرة فيقول: " فأول من شاهدنا مجلسه منهم الإمام رضي الدين القزويني رئيس الشافعية، وفقيه المدرسة النظامية، والمشار إليه بالتقديم في العلوم الأصولية حضرنا مجلسه...فخطب خطبة سكون ووقار وتصرف في أفانين العلوم، من تفسير كتاب الله عز وجل،

1- عواطف يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر الحجاز خلال القرنين 7و8هـ ، ص 290.
2- صلاح الدين المنجد، المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى، ص 31، 32.
3- المرجع نفسه ، ص 32.
4- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص239.
5- المصدر نفسه، ص 245.
6- المصدر نفسه، ص 239.

وإيراد حديث رسوله –صلى الله عليه وسلم–"[1]. عرفت بغداد نشاط علمي واضح فقد كشف عنها الرحالة خلال رحلته وله مظاهر عدة من بينها كثرة المجالس الدينية والفكرية.

وقد ذكر أيضا مجالس دينية أخرى حضرها كان يترأسها رئيس الأئمة الشافعية الذي قال عنه: "وشهدنا له فيها مجلسا ثانيا...وحضر ذلك اليوم مجلسه سيد العلماء الخرسانية، ورئيس الأئمة الشافعية، ودخل المدرسة النظامية بهز عظيم وتطريف آماق...رئيس العلماء المذكور هو صدر الدين الغجندي المتقدم الذكر في هذا التقييد المشتهر المآثر والمكارم..."[2] فقد كان لهذه الرحلة دور كبير في لقاء العلماء في بغداد وهذا ما وصفه ابن جبير في كتاباته.

فقد حضر ابن جبير مجالس العلم والوعظ التي تعدد علماؤها وفقهاؤها ومذاهبها سواء كانوا من الشافعية أو الحنبلية، فقال عنهم: " ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت بعده مجلس الشيخ الفقيه الإمام الأوحد جمال الدين أبي الفضائل بن علي الجوزي...رئيس الحنبلية والمخصوص في العلوم بالرتب العلية، إمام الجماعة، وفارس حلبة هذه الصناعة، والمشهود له بالسبق الكريم في البلاغة والبراعة، مالك أزمة الكلام في النظم والنثر، والغائص في بحر فكره على نفائس الدر...ومن أبهر آياته، وأكبر معجزاته، أنه يصعد المنبر ويبتدئ القراءة بالقرآن...ثم إنه أتى بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ وآيات بينات"[3].

وينقل لنا إعجابه بمجالس العلم والوعظ ببغداد لجمال أسلوب علمائها، وبراعتهم في البلاغة والتعبير والإقناع فيقول: "وشاهدنا بعد ذلك مجالس لسواه من وُعاظ بغداد ممن تستغرب شأنه، بالإضافة إلى ما عهدناه من متكلمي الغرب، وكنا قد شهدنا بمكة والمدينة –شرفهما الله– مجالس من قد ذكرناه في هذا التقييد"[4].

ورَوَى ابن جبير أن النشاط العلمي الوفير الذي كان في مصر يعود الفضل فيه إلى صلاح الدين الأيوبي قائلا: " ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه، هو الذي وفر المدارس والمحارس الموضوعية فيه لأهل الطب، يغدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوي إليه ومدرسا يعلمه الفن الذي يريد تعلمه وإجراء يقوم به في جميع أحواله"[5].

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 196.
2- المصدر نفسه، ص 196.
3- المصدر نفسه ،ص 197.
4- المصدر نفسه، ص 200.
5- المصدر نفسه، ص 15

وبهذا، عكست الرحلة مظاهر دينية وعلمية هامة، ولعل ما تمتع به رحالتنا من عاطفة دينية، جعلت منه يهتم بكل ما يمس الجانب الديني والعلمي بالأماكن التي زارها فنقل الاختلاف العقائدي والمذهبي الذي كان في الحجاز ودمشق وجزيرة صقلية، كما أشار إلى مجالس الوعظ والعلم في المشرق خاصة المنتشرة بشكل ملحوظ في بغداد.

1- العمارة الدينية

سجلت العمارة الدينية عبر التاريخ تطوراً كبيرا، استعملها المسلمون للدلالة على هويتهم وانتسابهم الإسلامي، حيث انتشرت العمارة على اختلاف أنواعها بفضل الإسلام في الشام والجزيرة العربية ومصر وغيرها. وقد تعددت العمارة الدينية التي نقل لنا ابن جبير أوصافها، لعل من أبرزها:

أ- المساجد:

إنها من أهم المعالم التي تمثل الشخصية الإسلامية، والأكثر انتشاراً على امتداد الدولة الإسلامية. ولم تخلو أية رحلة من الرحلات العربية والعالمية من ذكر المساجد بوصفها جزءا من الحضارة ومن التاريخ الإسلامي، باعتبارها" أولى المنشآت العمرانية التي بناها المسلمون ومن هنا كان المسجد القاعدة الأساسية الأولى لنشأة فن العمارة الإسلامية"[1].

وللمساجد دورٌ كبيرٌ في الحضارة الإسلامية، فهي لم تخصص للعبادة فقط بل أدت دورا رياديا في تاريخ الإسلام، وظلت مركزاً للعبادة والتعليم والدعوة إلى نشر القيم الإسلامية، وغَرْس الآداب والأخلاق الحميدة،كما اعتبرت إشعاعا حضاريا خلال حقب زمنية متعاقبة، ومن المساجد العريقة التي زارها ابن جبير ووصفها وصفاً دقيقاً نذكر:

❖ **المسجد الحرام**: لم تُحظ بقعة في الأرض من التشريف والتكريم مثلما حظيت به البقعة التي يقوم فيها الحرم المكي الشريف وكعبته المعظمة،"وذكر الله تعالى المسجد الحرام بهذا الاسم في القرآن الكريم خمس عشرة مرة تناولت ما ينبغي لهذا المكان الطاهر من تكريم وإجلال، ووردت بعض من تاريخه وحددت ما يتوجب على المسلمين إتباعه إزاءه"[2].

وللمسجد الحرام تاريخ عريق، حيث"أول من رفع قواعد امتثال الأمر لله تعالى نبي الله إبراهيم وولده إسماعيل (عليهما السلام)، لذلك أولى ابن جبير اهتماما خاصا للمسجد الحرام على أن الجزء الأساسي في رحلته إنما خصه لوصف مكة والمسجد الحرام ومناسك الحج وزيارة المدينة المنورة، فقد استغرق هذا كله أكثر من ثلث الكتاب"[3].

وقد أقام ابن جبير في مكة والأراضي الشريفة ما يقارب ثمانية شهور، وأدى خلالها الحج ومناسكه حامدا الله على فضله. ومما قاله في ذلك: "فكانت مدة مقامنا بمكة -قدسها الله- من

1- سامي محمد المرسي، المساجد الكبرى في العالم الإسلامي، دار العالم العربي، القاهرة، ط1، 2013، ص 19.
2- ينظر إبراهيم العنقري، توسعة الحرمين الشريفين، المملكة العربية السعودية، دط، دت، ص 59.
3- ينظر زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص 62.

يوم وصولنا إليها وهو يوم الخميس الثالث عشر لربيع الآخر من سنة تسع وسبعين (وخمسمائة) إلى يوم إقلاعنا من الزاهر، وهو يوم الخميس الثاني والعشرين لذي الحجة من السنة -المذكورة- ثمانية أشهر وثلث شهر"[1] اهتم ابن جبير خلال إقامته بمكة المكرمة بالأماكن المقدسة فقد نالت وصفا جليلا وهذا ما نلمسه في تعابيره من أهمها المسجد الحرام فقد اهتم بكل تفاصيله.

❖ **شكل المسجد الحرام:** بدأ ابن جبير بوصف الشكل العام للمسجد الحرام إذ يذكر "أن طوله أربعمائة ذراع، وعرضه ثلاثمائة ذراع، ويحيط به من جهاته الأربع ثلاث بلاطات، على ثلاث سواري(أعمدة) من الرخام المنتظمة كأنها بلاطة واحدة، وما بين هذه البلاطات فضاء كبير، وعدد سواريه الرخامية أربعمائة وإحدى وسبعون سارية حاشا الجصية التي منها في دار الندوة والتي زيدت في المسجد الحرام ومن الجهة الشمالية وفضاؤها متسع يدخل من البلاط إليه"[2].ويضيف قائلا: "والمسجد الحرام يطيف به ثلاث بلاطات على ثلاث سوار...وعدد سواريه الرخامية التي عددتها بنفسي أربع مئة سارية...وفضاؤها متسع"[3].كما يذكر لنا معلومات تاريخية متعلقة بتوسيعات المهدي محمد بن أبي جعفر المنصور العباسي للمسجد الحرام وهي زيادة تعادل كل الزيادات السابقة تأخر المسعى فزاد في الجهة الشرقية والجهة الغربية والشمالية والجنوبية ونقل أساطين الرخام من مصر والشام[4]، ويقول في ذلك: "وللمهدي محمد بن أبي جعفر المنصور العباسي في توسعة المسجد الحرام والتألق في بنائه آثار كريمة، وجدت في الجهة التي من الغرب إلى الشمال مكتوبا في أعلى جدار البلاط، أمر عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين -أصلحه الله- بتوسعة المسجد الحرام، الحاج بيت الله وعماره، وفي سنة سبع وستين ومكة"[5]. فقد أشار ابن جبير إلى فضل الأمير المهدي في توسعت المسجد الحرام والتأنق في بنائه.

❖ **المآذن في المسجد الحرام:** تحدث ابن جبير عن المآذن باعتبارها أهم العناصر المعمارية الإسلامية التي تعطي للمسجد شخصيته المميزة، فيقول: " إنه كان للمسجد الحرام سبع منائر عدة منها خمس ثم قال: " وأخرى على باب الصفا وهي أصغرها وليس يصعد إليها لضيقه قال: وعلى باب إبراهيم صومعة"[6] كما ذكر ابن جبير أن "منارات المسجد ذات أشكال بديعة

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 161..
2- أحمد رجب محمد علي، المسجد الحرام بمكة المكرمة ورسومه في الفن الإسلامي، جامعة القاهرة، ط1، 1418هـ، 1996م، ص 68.
3- المصدر السابق، ص 67.
4-ينظر عواطف بنت محمد بن يوسف نواب.، تاريخ وعمارة الحرمين الشريفين، مكة المكرمة، دط، 1434هـ، ص 64.
5- المصدر السابق، ص68
6- ابن الضياء، تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام، مكة المكرمة، دط، دت، ص 96.

ارتفعت بمقدار النصف مركبة"[1]. وقد أشار كل من ابن بطوطة والعبدري إلى وجود خمسة مآذن منها واحد على باب الصفا والثانية على ركن باب بني شيبة والثالثة على باب دار الندوة والرابعة على ركن باب السدة وهو باب بني جمح والخامسة على ركن أجياد"[2].أما شكل هذه المآذن فيصفه لنا ابن جبير بأنها ظلت في المسجد الحرام في أواخر القرن السادس الهجري، بشكلها الأول التي بناه المهدي سنة (164هـ) عند زيارة ابن جبير للمسجد الحرام في أواخر القرن السادس الهجري وعلى هذا الأساس فهذه المآذن طبقا لوصفه الذي أسماه الصوامع تنقسم إلى قسمين السفلى مربع الشكل والقسم العلوي أسطواني يعلوه محل الصومعة، وهو مستدير الشكل ويحيط بالجزء المربع وكذا الجزء الأسطواني شباك من الخشب فريد الصنعة[3]. فقد دقق ابن جبير في وصف الشكل الخارجي والداخلي للمسجد خاصة ما يتعلق بالمآذن والمنارات.

❖ **أبواب المسجد الحرام**: أتيح ابن جبير فرصة التعرف على أبواب المسجد الحرام التسعة عشر المنفتحة على أبواب كثيرة منها:

- **باب الصفا**: ويفتح على خمسة أبواب.
- **باب الحلقتين** ويفتح على بابين.
- **باب العباس**(رضي الله عنه): يفتح على ثلاثة أبواب.
- **باب على** (رضي الله عنه): ويفتح على ثلاثة أبواب.
- **باب النبي** (صلى الله عليه وسلم): ويفتح على بابين.
- **باب صغير** بإزاء بني شيبة لا اسم له.
- **باب بني شيبة**: وهو يفتح على ثلاثة أبواب.
- **باب دار الندوة**: وهو يفتح على ثلاثة أبواب: اثنان منها في صدر الدار منتظمان والثالث في الركن الغربي من الدار.
- **باب السدة**: واحد، باب العمرة: واحد.
- **باب حزوزة** على بابين: باب إبراهيم (عليه السلام) واحد.
- **باب ينسب لحزوزة** على بابين، باب أجياد الكبير: على بابين.

1- أحمد السباعي، تأريخ مكة المكرمة،دط، 1999،ج1، ص 292.
2- العبدري، الرحلة المغربية، ص 176، ابن بطوطة، الرحلة، ص 139.
3- سامي محمد المرسي، المساجد الكبرى في العالم الإسلامي، ص 67.

- **باب ينسب لأجياد** على بابين"[1].

ثم زار ابن جبير أماكن أخرى بالمسجد الحرام التي تعد من أركان الحج منها:

❖ **الصفا**: التي وصف ابن جبير شكلها فقال أن"للصفا أربع عشرة درجة عليها ثلاثة أقواس تشبه الدرجة العلوية المصطبة، وقد أحدقت بها الدور"[2]، والصفا تقع في "جبل صغير، يقع أسفل جبل أبي قبيس في الجهة الجنوبية الشرقية من الكعبة"[3].ولاحظ الرحالة نقشا في السارية على باب الصفا فوصفه قائلا: "وألفيت منقوشا على سارية خارج باب الصفا يقابل السارية الواحدة من اللتين أقيمتا علما لطريق النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى الصفا داخل الحرم المتقدمي الذكر: " أمر عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين –أصلحه الله تعالى– بتوسعة المسجد الحرام لتكون الكعبة المشرفة في وسط المسجد في سنة سبع وستين"[4].

❖ **المروة**: وقد ذكر ابن جبير أنها تقع في "جبل صغير أسفل جبل أبي قبيس في الجهة الشمالية الشرقية من الكعبة"[5]، وقد وصف ابن جبير شكلها قائلا: "وأدراج المروة خمسة، وهي بقوس واحد كبير، وسعتها سعة الصفا يبع عشرة خطوة"[6].

❖ في حين اهتم ابن جبير بوصف **بئر زمزم**: لأهميتها الدينية فقال: " وقبة بئر زمزم تقابل الركن، ومنها إليه أربع وعشرون خطوة، والمقام المذكور الذي يصلي خلفه عن يمين القبة، ومن ركنها إليه عشر خطا، وداخلها مفروش بالرخام الأبيض الناصع البياض، وتنور البئر المباركة في وسطها مائل عن الوسط إلى جهة الجدار الذي يقابل البيت الكريم"[7]. فاهتم بوصف قبة بئر زمزم زمن الرحلة لقداستها وعظمتها عند المسلمين.

وفي مقام آخر، ذكر الرحالة موقع قباب أخرى فقال "تقع قبة الشراب المنسوبة للعباس خلف قبة زمزم، أما القبة اليهودية فتقع وراء قبة العباس بانحراف قليل وهاتان القبتان هما مخزنان لما أوقف على المسجد الحرام من مصاحف وكتب وشموع"[8].

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 82.
2- المصدر نفسه ، ص 83-84.
3- محمود محمد حمو، مكة المكرمة تاريخ ومعالم، ص 66.
4- المصدر السابق، ص 85، 86.
5- المرجع السابق، ص 67.
6- المصدر السابق، ص 84، 85.
7- المصدر نفسه، ص 66.
8- المصدر نفسه ، ص 66.

❖ أما عن **الحجر الأسود**:الذي يعد من الأماكن المباركة التي يسعى المسلم للتبرك بها، فقد ذكر ابن جبير أنه "حجر من الجنة نزل به الأمين جبريل (عليه السلام) على الخليل إبراهيم (عليه السلام) فوضعه في الركن الشرقي من الكعبة المشرفة ويرتفع على الأرض المطاف وهو محاط بإطار من الفضة الخالصة"[1]. ثم تناول الرحالة وصف الحجر الأسود، وموقعه من المسجد الحرام فقال: " أنه موجود في الكعبة في الركن الناظر إلى جهة الشرق، ويدخل في الجدار بمقدار ذراعين، وسعته ثلثا شبر، وطوله شبر وعقد، وهو من أربع قطع ملصقة مشدودة بعضها إلى بعض بصفيحة من فضة"[2]. ويضيف حديثه عن فضله في قوله: "وللحجر عند تقبيله لدونة ورطوبة يتنعم بها الفم حتى يود اللاثم ألا يقع فمه عنه، وذلك خاصة من خواص العناية الإلهية، قال ابن جبير "إنه يمين الله في أرضه نفعنا الله باستلامه ومصافحته، وأوفد عليه كل شيء إليه بمنه"[3]. إن للحجر الأسود قداسة عظيمة لذا سعى المسلمون للوصول إليه وتقبيله.

❖ ثم يذكر ابن جبير أهمية **الملتزم**: لدى المسلمين، محدّداً موضعه قائلا،:"وحدوده ما بين باب الكعبة والحجر الأسود وسمي بالملتزم لأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) حين فرغ من طوافه التزمه وألصق صدره ويده وخده إليه"، ويذكر فضله قائلا: " وباب البيت الكريم في الصفح الذي بين الركن العراقي وركن...الحجر الأسود وهو قريب من الحجر بعشرة أشبار محققة، وذلك الموضع الذي بينهما من صفح البيت يسمى الملتزم، وهو موضع استجابة الدعاء"[4]. يعتبر الملتزم مكان يستجاب فيه الدعاء وهذا ما ذكره رحالتنا.

❖ **مقام إبراهيم**؛ هو من المعالم المعمارية التي حظيت بالمشاهدة، حيث وصفه ابن جبير بأنه "حجر من الجنة نزل به الأمين جبريل (عليه السلام) على سيدنا إبراهيم ليقف عليه ويكمل بناء الكعبة المشرفة"[5].إضافة إلى ذلك وصف شكله وموقعه قائلا: "وهذا المقام الكريم الذي داخل هذا القبو هو مقام إبراهيم (صلى الله على نبينا وعليه)، وهو حجر مغشى بالفضة، وارتفاعه مقدار ثلاثة أشبار، وسعته مقدار شبرين... عاياه ويتركنا بلمسه وتقبيله وصب لنا في أثر القدمين المباركتين ماء زمزم فشربناه نفعنا الله به، وأثرهما بين وأثر الأصابع المكرمة المباركة"[6].ويردف

1- محمود محمد حمو، مكة المكرمة تاريخ ومعالم ، ص 48.
2- أحمد رجب محمد علي، المسجد الحرام بمكة المكرمة ورسومه في الفن الإسلامي، ص 68.
3- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 67.
4- المصدر السابق، ص62.
5- المصدر نفسه، ص62
6- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 62

قائلا بأن موضع "المقام يقابل ما بين الكعبة وركن العراقي ولكنه مائل إلى ناحية الباب"[1]. فقد حدد ابن جبير شكله وموقعه لعظمته لدى المسلمين.

❖ **الحجر**؛من المعالم التي حدد ابن جبير موقعها بدقة قائلا: "أنها ما بين الركن العراقي وأول جدار الحجر مدخل سعته أربع خطا وهي ست أذرع قام بقياسها وهو الموضع الذي تركته قريش من الكعبة ويقابله عند الركن الشامي مدخل آخر بنفس السعة وما بين المدخلين ست عشرة خطوة وهي ثمانية وأربعون شبر"ا[2].

❖ **الميزاب**؛ وقد فصل ابن جبير في ذكر شكله وموقعه فقال: "والميزاب في أعلى الصفح الذي يكون الحجر المذكور، وهو من صفر مذهب، قد خرج إلى الحجر بمقدار أربع أذرع، وسعته مقدار شبر، وهذا الموضع تحت الميزاب هو أيضا مظنة استجابة الدعوة بفضل الله تعالى، وتحت الميزاب في صحن الحجر بمقربة من جدار البيت الكريم قبر إسماعيل (صلى الله عليه وسلم)، وعلامته رخام خضرا، مستديرة".[3]

❖ **المطاف**؛ هو "الفناء المكشوف الذي يسير عليه الطائفون حول الكعبة"[4]،وقد حدد ابن جبير معالمه واصفاً شكله قائلا: "وموضع الطواف مفروش بحجارة مبسوطة كأنه الرخام حسبنا منها سُود وسمر وبيض قد ألصق بعضها ببعض"[5].

❖ **المنبر**؛هو الآخر، يصفه لنا ابن جبير ويذكر أنه على بكرات أربع، وأنه موجود إزاء المقام، مضيفا "وبإزاء المقام الكريم منبر الخطيب، وهو أيضا على بكرات أربع شبه التي ذكرناها"[6].

❖ **الكعبة المشرفة**؛ وهي من الأماكن المقدسة التي فَصَّل ابن جبير في وصفها، باعتبارها بيت الله تعالى، تقع وسط المسجد الحرام وهي مربعة الشكل، وتسمى الكعبة بيت الله بيت الحرام والبيت العتيق والقبلة، وقد جعل الله لها من الحرمة والتقديس ما لم يجعله بمكان غيرها، وعلى وجه الأمر أمر باستقبالها في الصلاة كما أمر بالطواف بها. فقال تعالى:﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾[7]. ويحدد ابن جبير شكلها قائلا: "البيت المكرم له أربعة أركان، وهو قريب من التربيع، وارتفاعه في الهواء من جانب باب الصفا تسعة وعشرون ذراعا، ومن باقي الجوانب ثمان وعشرون،

1- المصدر نفسه، 62.
2- المصدر نفسه، ص 64.
3- المصدر نفسه ، ص65.
4- محمود محمد حمو، مكة المكرمة تاريخ ومعالم، ص 68
5- المصدر السابق، ص 63.
6-المصدر نفسه، ص 72.
7- سورة الحج، الآية 29.

بسبب انصباب السطح إلى الميزاب[1]. ومن جانب آخر، اهتم ابن جبير بوصف بابها الكريم، وكسوتها، وما يوجد بداخلها حيث "ذكر أنه مرتفع عن الأرض بأحد عشر شبرا ونصف وهو من فضة مذهبة بديع الصنعة، رائق الصفة"[2].

ويعرج بعد ذلك على وصف داخل الكعبة فيقول: " وداخل البيت الكريم مفروش بالرخام المجزع، وحيطانه رخام كلها مجزع، فقد قام على ثلاثة أعمدة من السياج مفرطة الطول، وبين كل عمود وعمود أربع خطا...وداخل البيت كله من نصفه الأعلى مطلي بالفضة المذهبة المستحسنة"[3]. وكان مما تحدث عنه سقف البيت فقال عنه "وسقف البيت مجلل بكساء من الحرير الملون، وظاهر الكعبة كلها من الأربعة الجوانب مكسو بستور من الحرير الأخضر وسداها قطن وفي أعلاها"[4]. فهي من الأماكن المقدسة التي اهتم المسلمون بكسائها والحفاظ عليها وتفننوا في اختيار أنواع الكساء.

وفضلا عن ذلك ذكر ابن جبير النقش الذي كان موجودا في باب الكعبة فقال: " وفي باب الكعبة المقدسة نقش بالذهب رائق الخط بل الحروف غليظة يرتمي الأبصار برونقه وحسن مكتوب فيه "مما أمر بعلمه عبد الله وخليفته الإمام أبو عبد الله محمد المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين (صلى الله عليه وسلم) وعلى أئمة آياته الطاهرين، وخلد ميراث النبوة لديه، وجعلها كلمة باقية في عقبه إلى يوم الدين، في سنة خمسين وخمس مئة"[5].

❖ **كسوة الكعبة المشرفة؛** التي اهتم العرب منذ القدم بالحديث عنها، حيث"لما بعث النبي (صلى الله عليه وسلم) كانت الكعبة مكسوة وكانوا يتحرون إكسائهم يوم عاشوراء ثم بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقد تعدد كساء الكعبة من الديباج الأحمر والأبيض وغيرها[6].وعن كسوتها يقول ابن جبير: "وكسوة الكعبة المقدسة من الحرير الأخضر، حسبما ذكرناه، وهي أربع وثلاثون شقة، في الصفح الذي بين الركن اليماني والشامي منها تسع، وفي الصفح الذي يقابله بين الركن الأسود والعراقي تسع أيضا...قد وصلت كلها فجاءت كأنها ستر

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 59.
2- المصدر نفسه، ص 60.
3- المصدر نفسه ، ص 60.
4- المصدر نفسه، ص 60.
5- المصدر نفسه، ص 69.
6- ينظر الوصي لله بن محمد عباس المسجد الحرام تاريخه وأحكامه، ط2، 1428هـ، ص 418 و424.

واحد يعم الأربعة الجوانب".[1] وبذلك اهتم ابن جبير بكل ما يتعلق بالكعبة المشرفة موقعها وشكلها وكسائها وبابها وأعمدتها وغيرها.

❖ **المسجد النبوي:** من أهم المساجد التي اهتم ابن جبير بالحديث عنه حيث أفاض في وصفه، وقدم لنا معلومات كانت في غاية الدقة والأهمية. وكان له ذلك حين زيارته للمدينة المنورة ولقداسة المسجد النبوي وبركته فهو أحد المساجد الثلاثة التي لا يشد الرحال إلا إليها، حيث يضم هذا المسجد مصلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومنبر والروضة الشريفة...وبعد" التوسعات التي تمت على مر التاريخ الإسلامي ضَمَّ إليه الحجرة الشريفة التي دفن فيها النبي (صلى الله عليه وسلم) وصاحباه أبو بكر وعمر (رضي الله عنهما). كما شملت هذه التوسعات بقية حجرات أمهات المؤمنين وبيوت الصحابة (رضي الله عنهم) المجاورة للمسجد".[2]

وجاءت قداسة هذا المكان لأن "النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه (رضي الله عنهم) قاموا ببنائه، والصلاة فيه أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام"[3]، فهو من المساجد التي أسست على التقوى وقد ثبت ذلك في كتاب الله وسنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقد قال تعالى:﴿ لَّمَسجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقوَىٰ مِن أَوَّلِ يَومٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَال يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلمُطَّهِّرِينَ ﴾[4].وقد أرّخ ابن جبير حالة المسجد النبوي قبل حريقه سنة (654هـ/1356م) ووصف شكله في تلك الفترة، بقوله بأنه:"مسجد مستطيل الشكل يحيط به من جوانبه الأربعة بلاطات، أما وسطه فصحن مفروش بالرمل والحصى، وفي الجهة الشمالية منه حديثة...وفي جهة القبلة خمس بلاطات مستطيلة من الغرب إلى الشرق، والجهة الشمالية بها خمس بلاطات والجهة الشرقية بها ثلاث بلاطات والجهة الغربية بها أربع بلاطات"[5].

أما منبر الرسول عليه الصلاة والسلام الذي يُعدّ من أهم العناصر المعمارية بالمسجد النبوي، فقد ذكر ابن جبير أنه: "يقع بغربي المحراب النبوي"[6]، ووصفه ابن جبير وحدد ارتفاعه

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 69.
2- محمد إلياس عبد الغني، المساجد الأثرية في المدينة المنورة، المدينة المنورة، ط2، 1992، ص 16.
3- محمد إلياس عبد الغني، تاريخ المدينة المنورة (قسم المساجد)، ماجستير في الأدب الإسلامي، المملكة العربية السعودية، ط1، دت، ص 20.
4- سورة التوبة، الآية 108.
5- المصدر نفسه ، ص 168.
6- عبد القدوس الأنصاري، آثار المدينة المنورة، ط3، 1979م، ص 95.

وشكله قائلا "قدر قامة أو أكثر وسعته خمسة أشبار وطوله خمس خطوات وعدد درجه ثمانية وله باب على شكل الشباك مقفل يفتح يوم الجمعة وطوله أربعة أشبار ونصف، والمنبر مغطى بخشب الأينوس ومكان جلوس النبي (صلى الله عليه وسلم) ظاهر في أعلاه ولكنه غطي بلوح من الأينوس...واعتاد الناس إدخال أيديهم إليه للتبرك فيها"[1].

ومن جانب آخر، حد ابن جبير طول المسجد النبوي وما يجاوره من دور فقال: "وطول المسجد الكريم مئة خطوة وست وتسعون خطوة، وسعته مئة وست وعشرون خطوة، وعدد سواري مئتان وتسعون...والبلاط متصلة بالقبلة من الخمسة بلاطات المذكورة تحف بها مقصورة تكتنفه طولا من غرب إلى شرق، والمحراب فيها، يصلي الإمام في الروضة الصغيرة المذكورة إلى جانب الصندوق، وبينها وبين الروضة والقبر المقدس محمل كبير مدهون عليه مصحف كبير في غشاء مقفل عليه وهو أحد المصاحف الأربعة التي وجه بها عثمان بن عفان ويليهما في البلاط الثاني لجهة الشرق، وخارج المسجد دار أبي بكر الصديق (رضي الله عنه)، ودار عمر بن الخطاب ودار ابنه عبد الله (رضي الله عنهما)، وأمام الروضة المقدسة أيضا صندوق كبير هو لشمع والأنوار التي توقد أمام الروضة كل ليلة"[2].

ثم عرض لنا وصفا دقيقا لجدرانه والحجر الموجود بداخله وشكله قائلا:"وعلى رأس المحراب، الذي في جدار القبلة داخل المقصورة، حجر مربع أصفر قدر شبر في شبر، ظاهر البريق والبصيص، يقال إنه كان مرآة كسرى والله أعلم...ونصف جدار القبلة الأسفل رخام...والنصف الأعلى من الجدار منزل كله بفصوص من الذهب المعروفة بالفسيفساء...أما الجدار الناظر إلى الصحن من القبلة كذلك، والغربي والشرقي فهما أبيضان مزينان بأنواع كثيرة من الأصباغ فالمسجد المبارك يحتوي الخزينة الطاهرة المقدسة"[3].أما عن أبوابه فقد ذكر ابن جبير عددها فقال: "وللمسجد المبارك تسعة عشر بابا لم يبق منها مفتوحا سوى أربعة أبواب في الغرب: يعرف أحدهما بباب الرحمة، والثاني بباب الخشية، وفي الشرق اثنان: يعرف أحدهما بباب جبريل (عليه السلام)، والثاني بباب الرجاء، ويقابل باب جبريل (عليه السلام) دار عثمان (رضي الله عنه) وهي التي استشهد بها"[4]. من ناحية أخرى ذكر ابن جبير في كتابه صوامعه قائلا:"وللمسجد المبارك ثلاث

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 170.
2- المصدر نفسه ، ص 171.
3- المصدر نفسه ، ص 173.
4- المصدر نفسه، ص 172.

صوامع، إحداها في الركن الشرقي المتصلة بالقبلة الاثنتان في ركني الجهة الجوفية صغيرتان كأنهما على هيئة برجين والصومعة الأولى المذكورة على هيئة الصوامع"[1].

ومن أهم المظاهر الحضارية الأخرى ذات الصلة بالمدينة المنورة روضته الطاهرة –صلى الله عليه وسلم-: التي تعتبر من أهم الأماكن المقدسة التي اهتم الرحالة بوصفها والمراد بها "موضع في المسجد النبوي الشريف الواقع بين المنبر وحجرته (صلى الله عليه وسلم)"[2]، وقد ورد فضل هذا الموضع في الأحاديث النبوية الشريفة، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: "ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي"[3]. وما ذكره ابن جبير في موقعها وشكلها، قوله: "والروضة المقدسة مع آخر الجهة القبلية مما يلي الشرق، وانتظمت من بلاطاته مما يلي الصحن في السعة اثنين ونيفت إلى البلاط الثالث بمقدار أربعة أشبار ولها خمسة أركان بخمس صفحات، وشكلها شكل عجيب، لا يكاد يتأتى تصويره ولا تمثيله، والصفحات الأربع محرفة من القبلة تخريفا بديعا لا يتأتى لأحد معه استقبالها في صلاته لأنه ينحرفن القبلة"[4].

في حين وقف بعد ذلك ابن جبير على أن أطول جهاتها،"الجهة القبلية لأربعة وعشرين شبرا والجهة الشرقية ثلاثين شبرا وما بين الركن الشرقي إلى الركن الشمالي مسافة خمسة وثلاثين شبرا، ومن الركن الشمالي إلى الركن الغربي مسافة تسعة وثلاثين شبرا ومن الركن الغربي إلى الركن القبلي مسافة أربعة وعشرين شبرا وفي الجهة صندوق أو أينوس...وفي الجهة الواقعة بين الركن الشمالي والركن الغربي موضع عليه ستر يقال إنه مهبط جبريل (عليه السلام) وأضاف ابن جبير أن مجموع مسافات الروضة من جميع جهاتها مئتان واثنان وسبعون شبرا"[5]. أما عن الشكل الداخلي للروضة المكرمة فقال عنها: "وقد تزينت الروضة بالرخام الجميل المنظر بارتفاع الثلث أو أقل قليلا أما الثلث الثاني فمنه مقدار شبر قد علاه المسك والطيب المتراكم على طول الأزمنة ويليه شبابيك من الخشب متصلة بسقف المسجد حيث أن الروضة لا سقف لها ولكنها متصلة بسقف المسجد، ومن سقف المسجد إلى بداية الرخام الموجود بالروضة تنتهي السائر الموضوعة عليها وهي

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 183.
2 - محمد إلياس عبد الغني، المسجد النبوي، ص 114.
3- البخاري ومسلم ،الجامع بين الصحيحين، ص 265،266.
4- المصدر السابق ، ص 168.
5- المصدر نفسه ، ص 169.

لازوردية اللون جميلة النفس محاكة على هيئة مثمنات ومربعات، كما يوجد في الجهة القبلية أمام وجهة النبي (صلى الله عليه وسلم) مسمار من الفضة يقف الناس أمامه، وحدد ابن جبير رأس أبي بكر عند قدم النبي (صلى الله عليه وسلم) ورأس عمر بعد كتفي أبي بكر"[1]، وأضاف قوله: "أما هذه الصفحة المكرمة نحو العشرين قنديلا معلقة من الفضة وفيها اثنان من ذهب، وفي جوف الروضة المقدسة حوض صغير مرخم، في قبلته شكل محراب، قيل: إنه كان بيت فاطمة (رضي الله عنها) ويقال: هو قبرها وعن يمين الروضة المكرمة المنبر الكريم، ومنه إليها اثنتان وأربعون خطوة"[2].

ومن الأوصاف التي ذكرها ابن جبير في وصف المنبر وموقعه داخل المسجد قوله: "ويقع على المنبر على يمين الروضة بينهما اثنان وأربعون خطوة ومن جهة القبلة عمود يقال أنه بقية الجذع الذي حن للنبي (صلى الله عليه وسلم) وشاهد ابن جبير قطعة منه في وسط العمود ظاهرة يقوم الناس بتقبيلها والتبرك بلمسها ومسح خدودهم بها"[3]. وأشار إلى قداسة هذا المنبر باعتباره بقية الجذع الذي حن للنبي صلى الله عليه وسلم.

❖ **الجامع الأموي بدمشق:** وصف ابن جبير الجامع الأموي وصفا مدهشا،حيث لم يُغفل صغيرة ولا كبيرة إلا وذكرها، بدْءا بتأسيسه:"سنة (78هـ/806م) وهو من روائع العمارة الإسلامية في العصر الأموي، حيث جمع الخليفة الوليد بن عبد الملك لبنائه أمهر الصناع والمهندسين في العالم من فارس والهند وبلاد الروم والمغرب، وأنفق على عمارته خراج الشام سبع سنوات"[4].وقد أشار ابن جبير المبلغ الذي أنفقه الوليد في تشييده بقوله: "...وكان مبلغ النفقة فيه، حسبما ذكره ابن المعلى الأسدي في جزء وضعه في ذكر بنائه، مئة صندوق، وفي كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار، فكان مبلغ الجميع أحد عشر ألف ألف دينار ومئتي ألف دينار".[5]في حين جاء وصف ابن جبير للجامع وصفا مبهرا لعراقته، وباعتباره معلماً من معالم الحضارة الإسلامية الذي شيد في العصر الأموي فقال عنه: "هو من أشهر جوامع الإسلام حسنا، وإتقان بناء، وغرابة صنعة، واحتفال تنميق وتزيين، وشهرته المتعارفة في ذلك تغني عن استغراق الوصف فيه، ومن عجيب شأنه أنه لا تنسج به العنكبوت. ولا تدخله ولا تلم به الطير المعروفة بالخطاف

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ،ص170.
2- المصدر نفسه، ص 170.
3- المصدر نفسه ، ص 170.
4- عبد الله كامل موسى عبده، الأمويون وآثارهم المعمارية في الشام والعراق والحجاز واليمن ومصر وأفريقية، القاهرة، ط1، 1434هـ/2003م، ص 62.
5- المصدر السابق ، ص 235.

انتدب لبنائه الوليد بن عبد الملك (رحمه الله)، ووجه إلى ملك الروم بالقسطنطينية يأمره بإشخاص اثني عشر ألفا من الصناع من بلاده، وتقدم إليه بالوعيد في ذلك مما هو مذكور في كتب التاريخ، فشرع في بنائه، وبلغت الغايات في التأنق فيه..."[1].

علاوة على ذلك ذكر ابن جبير أسباب بناء الجامع الأموي مستندا على معلومات تاريخية فقال: "...والوليد هذا هو الذي أخذ نصف الكنيسة الباقية منه في أيدي النصارى وأدخلها فيه لأنه كان قسمين، قسم للمسلمين وهو الشرقي، وقسما للنصارى وهو الغربي، لأن أبا عبيدة بن الجراح (رضي الله عنه)، دخل البلد من الجهة الغربية، فانتهى إلى نصف الكنيسة، وقد وقع الصلح بينه وبين النصارى، ودخل خالد بن الوليد (رضي الله عنه) عنوة من الجانب الشرقي وانتهى إلى النصف الثاني وهو الشرقي، فاختاره المسلمون وصيره مسجدا، وبقي النصف المصالح عليه وهو الغربي كنيسة بأيدي النصارى، إلى أن عوضهم منه الوليد، فأبوا ذلك، فانتزعه منهم قهرا، وطلع لهدمه بنفسه...."[2]. وكانوا يزعمون أن الذي يهدم كنيستهم يجن، فبادر الوليد وقال: أن أول من يجن في الله، وبدأ الهدم بيده، فبادر المسلمون وأكملوا هدمهم"[3].ويؤكد هذا الأمر العديد من المصادر حيث نقل ابن عساكر أنه: "لما صارت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك عزم إلى أخذ بقية هذه الكنيسة وإضافتها إلى ما بأيدي المسلمين وجعل الجميع مسجدا واحدا وذلك لتأذي المسلمين بسماع قراء النصارى في الإنجيل ورفع أصواتهم في الصلاة فطلب النصارى وسألهم...فأبوا ذلك أشد الإباء...ثم أمر الوليد بالهدم فجاءت أساقفة النصارى وقساوستهم وقد ندموا فقالوا يا أمير المؤمنين إنا نجد في كتبنا أن من يهدم هذه الكنيسة يجن فقال أن أحب أن أجن في الله"[4].

ومن ثَمّ يُعدُّ هذا الجامع من الجوامع الجليلة ذات القيمة العالية والكبيرة بالنسبة المسلمين، وذلك لأسباب تبدو وجيهة من الناحية الدينية المحضة وذلك لأن "البقعة التي بني عليها هذا المسجد، ظهر فيها آثار لقبور الأنبياء ورجال صالحين، مما حدا بناة المسجد إلى اتخاذ أماكنها مشاهد، ترمز إلى شخصيات أصحابها، وينظر إليها نظرة احترام وتقدير كبيرتين، ومصداق ذلك

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ،ص 253.
2- المصدر نفسه ، ص 236.
3- عفيف بهنسي، الفن العربي الإسلامي في بداية تكوينه، دار الفكر، دمشق، ط2، 1996م، ص 236.
4- أبي البقاء عبد الله بن محمد البدري المصري الدمشقي، نزهة الأنام في محاسن الشام، بغداد، 1341هـ، ص 33 و34.

ما رُوِيَ عن زيد بن واقد قال: وكلني الوليد على العمال في بناء جامع دمشق، وجدنا فيه مغارة...وإذا فيها صندوق فإذا فيه سفط، وفي السفط رأس يحيى بن زكريا، فأمر بن الوليد فرد إلى المكان قال: اجعلوا العمود فوقه معبرا من الأعمدة، فجعلوا عليه عمود مسقط الرأس"[1].

ويُعَدُّ الجامع الأموي من الأماكن المقدسة والمباركة إذ ذكر ابن جبير أن "أول من وضع جداره القبلي هود النبي (صلى الله عليه وسلم)"[2]، فعن علي بن محمد الربعي المالكي قال: "حدثنا الوليد بن مسلم...فوجدوا في حائط المسجد القبلي لوحا من حجر فيه كتاب نقش...فلم يقدر على أن يستخرجه فدلوه على وهب بن منبه فبعث إليه، فلما قدم عليه أخبروه موضع ذلك الحجر الذي وجدوه في ذلك الحائط، ويقال إن ذلك الحائط من بناء هود (عليه السلام)"[3]، وفيه قبره...ويقال إنه "كتب في زمن سليمان بن داوود"[4].

ويخبرنا ابن جبير في مقام آخر أن الخضر كان يصلي في الجامع الأموي كل ليلة بعد إتمام بنائه،وذلك في مكان يقال له: "المأوى المبارك منها مغارة صغيرة في وسطها، وهي كالبيت الصغير بإزائها بيت يقال: "إنه مصلى الخضر (صلى الله عليه وسلم)، فيبادر الناس للصلاة بهذين الموضعين المباركين"[5]. كما يخبرنا"أبو القاسم تمام بن محمد بن عبد الله الحافظ حدثنا أحمد بن عبد الله حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الملك ابن المغيرة المقري حدثنا أبي عن أبية فقال: أن الوليد بن عبد الملك تقدم إلى القوام ليلة من الليالي فقال إني أريد أن أصلي الليلة في المسجد فلا تتركوا فيه أحدا حتى أصلي الليلة، ثم إنه أتى إلى باب الساعات، فاستفتح الباب ففتح له، فدخل من باب الساعات فإذا رجل فيما بين باب الساعات وباب الخضراء الذي يلي المقصورة قائما يصلي وهو أقرب إلى باب الخضر منه إلى باب الساعات، فقال للقوام، ألم آمركم أن لا تتركوا أحدا يصلي الليلة في المسجد فقال بعضهم يا أمير المؤمنين هذا الخضر يصلي في المسجد كل ليلة"[6].

وفي أرجاء هذا المسجد، يسجل ابن جبير ارتياحه لمساحته وعدد أبوابه قائلا: "ذرعه في الطول من الشرق والغرب مئتا خطوة وهما ثلاث مئة ذراع، وذرعه في السعة من القبلة إلى الجوف

1- علي أحمد، الأندلسيون في بلاد الشام (من نهاية القرن 5هـ حتى نهاية القرن 9هـ)، دمشق، دط، دت، ص 53.
2 - ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 236.
3- المصدر نفسه، ص 236.
4- أبي الحسين علي بن محمد الربيعي المالكي، فضائل الشام ودمشق، ص 34 و35.
5- المصدر السابق ، ص248.
6- أبي الحسين علي بن محمد الربيعي المالكي، فضائل الشام ودمشق، ص 36.

مئة خطوة وخمس وثلاثون خطوة، وهي مئتا ذراع...وبلاطته المتصلة بالقبلة ثلاثة مستطيلة من الشرق إلى الغرب، سعة كل بلاط منها ثماني عشرة خطوة...ومنها أربع وخمسون سارية، وثماني أرجل جصية تتخللها، واثنتان مرخمة ملصقة منها الجدار الذي يلي الصحن... مرصعة بفصوص من الرخام ملوكة، قد نظمت خواتيم، وصورت محاريب وأشكالا غريبة"[1].

وظلت معالم هذا المكان المبارك تدخل في دلالي ربّاني قيمتُه العظيمة إذ أنّ: "الرصاص المتصل بالمحراب وسطه سامية في الهواء، عظيمة الاستدارة، قد استقل بها هيكل عظيم هو غارب لها، يتصل من المحراب إلى الصحن، وتحته ثلاث قباب، قبة تتصل بالجدار الذي إلى الصحن، وقبة تتصل بالمحراب، وقبة تحت قبة الرصاص بينهما، والقبة الرصاصية قد أعضت الهواء وسطه، فإذا استقبلتها أبصرت منظرا رائعا، ومرأى هائلا، يشبه الناسبنسر طائر، كأنه القبة رأسه، والغارب...."[2] وفي ثنايا الحديث عن عدد شمسياته ذكر ابن جبير أنّ: "الجامع المكرم مائل إلى الجهة الشمالية من البلد، وعدد شمسياته الزجاجية المذهبة الملونة أربع وسبعون"[3].

وسجل أيضا أنّ عدد مقصوراته كبير ومرتبط بأحداث تاريخية قائلا:"وفي الجامع المكرم ثلاث مقصورات: مقصورة الصحابة (رضي الله عنهم)، وهي أول مقصورة وضعت في الإسلام، وضعها معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنهما)، وبإزاء محرابها عن يمين مستقبل القبلة باب الحديد...وطول المقصورة الصحابية المذكورة أربعة وأربعون شبرا وعرضها نصف الطول...وكانت مقصورة الصحابة أولا نصف الخط الإسلامي من الكنيسة وكان الجدار حيث أعيد المحراب في المقصورة المحدثة، فلما أعيدت الكنيسة كلها مسجد صارت مقصورة الصحابة طرفا من الجانب الشرقي، وأحدثت المقصورة الأخرى وسطا حيث كان جدار الجامع قبل الاتصال، وهذه المقصورة المحدثة أكبر من الصحابية"[4].

ثم أثار انتباه ابن جبير صوامعه الشامخة الثلاث:"واحدة في الجانب الغربي، وهي كالبرج المشيد، يحتوي على مساكن متسعة وزوايا فسيحة...راجعة كلها إلى أغلاق يسكنها أقوام من الغرباء أهل الخير. وثانية بالجانب الغربي...وثالثة بالجانب الشمالي على الباب المعروف بباب

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 237.
2- المصدر نفسه ، ص 237.
3- المصدر نفسه ، ص 237.
4- المصدر نفسه ، ص 240.

الناطقين".[1] وفي لحظة مقابلة، يجد ابن جبير نفسه مُنْجَذِباً إلى فضاء روحي آخر، وهو ذاك الصحن الذي يفضي إلى الوجهة الشمالية والشرقية من المسجد وفيه "باب كبير يفضي إلى مسجد كبير، في وسطه صحن، قد استدار فيه صهريج من الرخام الكبير"[2]. كما لاحظ أنه بالجانب الشرقي من الصحن "باب يفضي إلى مسجد من أحسن المساجد وأبدعها وضعا وأجملها بناء، يذكر الشيعة أنه مشهد لعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وهذا من أغرب مختلقاتهم، ومن العجيب أنه يقابله في الجهة الغربية في زاوية البلاط الشمالي من الصحن، موضع هو ملتقى آخر البلاط الشمالي مع أول البلاط الغربي...يزعم أكثر الناس أنه موضع لعائشة (رضي الله عنها)، وأنها كانت تُسمع الحديث فيه"[3].فقد ذكر المشهد الديني بالجانب الشرقي من الصحن

ومما زاد إعجاب الرحالة شكل **جداره**، فقد ذكر ابن جبير أنه "كان هذا الجامع المبارك، ظاهرا وباطنا، منزلا كله بالفصوص المذهبة مزخرفا بأبدع زخاريف لبناء المعجزة الصنعة...فأدركه الحريق مرتين وجدد"[4].ويحرص ابن جبير بعد ذلك على زيارة **محرابه**: الذي يجده من أهم المحاريب الإسلامية قائلا: "ومحرابه من أعجب المحاريب الإسلامية حسنا وغرابة صنعه، يتقد ذهب كله، وقد قامت في وسطه محاريب صغار متصلة بجدار تحفها سويريات مفتولات فتل الأسورة كأنها مخروطة...فشأن قبلة هذا الجامع المبارك مع ما يتصل من قباته الثلاث، وإشراق شمسياته المذهبة الملونة عليها"[5].فقد أعجب بجمال هذا المحراب وغرابة صنعه وهذا ماذكره في وصفه.

ويضيف لنا ابن جبير وساما آخر لهذا المكان الروحي قائلا: "...وفي الركن الشرقي من المقصورة الحديثة في المحراب خزانة كبيرة فيها مصحف من مصاحف عثمان بن عفان (رضي الله عنه)...وله أربعة أبواب "باب قبلي، ويعرف بباب الزيادة وله دهليز كبير متسع...وباب شرقي، وهو أعظم الأبواب، ويعرف بباب جيرون، وباب غربي، يعرف بباب البريد وباب شمالي يعرف بباب الناطقين"[6].

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 240.
2- المصدر نفسه، ص 240.
3- المصدر نفسه، ص 241.
4- المصدر نفسه ، ص 241.
5- المصدر نفسه ، ص 241.
6- المصدر نفسه، ص 242.

وعلى هذه الصور الرائعة، حرص ابن جبير على وصف أبواب المسجد من جهة الشرق والغرب والشمال، وما تميزت به من: "دهاليز متسعة...وأعظمها منظر الدهليز المتصل بباب جيرون...وفي وجه اليسار منه مشهد كبير حفيل كان فيه رأس الحسين بن علي (رضي الله عنهما) ثم نقل إلى القاهرة، وبإزائه مسجد صغير ينسب لعمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه)"[1]. مضيفا قوله: "وعن يمين المخارج من باب جيرون، في جدار البلاط الذي أمامه، غرفة ولها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صفر قد فتحت أبوابا صغار على عدد ساعات النهار..."[2].

خلاصة ما سبق، فإن المعالم الدينية المتمثلة في المسجد الحرام والمسجد النبوي والجامع الأموي بكل لواحقها حملت دلالات روحية عظيمة، صَعُب على ابن جبير الإلمام بوصفها كلها لظروف الإقامة التي ألزمته التنقل من مكان إلى آخر.

د- **جامع الكوفة**:وصف ابن جبير عدداً من الأبنية الإسلامية التي اشتهرت بها بلاد العراق ولاسيما جامعُ الكوفة الذي يُعدُّ من أهم الجوامع الإسلامية الجليلة التي لها تاريخ عريق حيث أمر الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أن يكون المسجد الجامع في الوسط منها، اختط سعد بن أبي وقاص المسجد، وجعله على هيئة مربعة تنقسم إلى صحن وظلة للقبة، وقد شيد المسجد بالقصب شأنه من ذلك شأن بقية عمائر الكوفة الدينية يشابه تخطيط مسجد الكوفة تخطيط مسجد البصرة عند إنشائه، والمسجد النبوي بالمدينة قبل تحويل القبلة[3].

وقد أسهب ابن جبير بذكر العديد من معالمه ولاسيما عمارة المسجد سنة (580 هـ) فقد قال عنه: "الجامع العتيق آخرها مما يلي شرف البلد، ولا عمارة تتصل به من جهة الشرق وهو جامع كبير، في الجانب القبلي منه، خمسة أبلطة، وفي سائر الجوانب بلاطان، وهذه البلاطات على أعمدة من السواري الموضوعة من صم الحجارة، المنحوتة قطعة على قطعة، مفرغة بالرصاص ولا قصي عليها، على الصفة التي ذكرناها في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهي في نهاية الطول، متصلة سقف المسجد، فتحار العيون في تفاوت ارتفاعها، فما رأى في الأرض مسجدا

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 242
2- المصدر نفسه، ص 243.
3- ينظر عبد الله كامل موسى عبده، الأمويون وآثارهم المعمارية في الشام والعراق والحجاز واليمن ومصر وأفريقية، ص 179.

أطول أعمدة منه ولا أعلى سقفا"[1].وقد لاحظ ابن جبير أن جامع الكوفة يشبه في تصميمه المسجد النبوي إلى حدّ كبير.

كما لم يفُتهُ وصف "المحراب عن يمين مستقبل القبلة، يقال إنه كان مصلى إبراهيم الخليل (صلى الله عليه وسلم) وعليه ستر أسود صونا له...فالناس يزدحمون على هذا الموضع المبارك للصلاة فيه، وعلى مقربة منه، مما يلي الجانب الأيمن من القبلة، محراب محلق عليه بأعواد السياج مرتفعة عن صحن البلاط كأنه مسجد صغير، وهو محراب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وفي ذلك الموضع ضربه الشقي للعين عبد الرحمن بن ملجم بالسيف، فالناس يصلون فيه باكين داعين...ومن آخر هذا البلاط القبلي، المتصل بآخر البلاط الغربي، شبه مسجد صغير محلق عليه أيضا بأعواد الساج، هو موضع مفار التنور، الذي كان آية لنوح (عليه السلام)، وفي ظهره، خارج المسجد بيته الذي كان فيه، وفي ظهره بيت آخر يقال إنه كان متعبد إدريس (صلى الله عليه وسلم) ويتصل بهما فضاء متصل بالجدار القبلي من المسجد يقال إنه منشأ السفينة، ومع آخر هذا الفضاء دار علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، والبيت الذي غسل فيه، ويتصل به بيت يقال إنه كان بيت ابنه نوح (عليه السلام). فقد أورد مجموعة من المعلومات التاريخية والدينية لهذا الجامع المكرم .

وهذه الآثار الكريمة تلقيناها من ألسنة أشياخ من أهل البلاد فأثبتناها حسبما نقلوها إلينا، والله أعلم بصحة ذلك"[2]. فضلا عن وصفه لما يجاور الجامع في الجهة الشرقية "بيت صغير يصعد إليه فيه قبر مسلم بن عقيل بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وفي جوفي الجامع على بعد منه يسير سقاية كبيرة من ماء الفرات فيها ثلاث أحواض كبار"[3].

كما تحدث عن تلك المشاهد التي دلت على عظمة الجامع قائلا: "وفي غربي المدينة على مقدار فرسخ منها المشهد الشهير الشأن المنسوب لعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وحيث بركت ناقته وهو محمول عليها...ويقال: إن قبره فيه والله أعلم بصحة ذلك".[4]وبذلك يعد مسجد الكوفة من أقدم المساجد الأثرية والتاريخية الإسلامية في العراق.

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 187، 188.
2- المصدر نفسه، ص 188.
3- المصدر نفسه،ص188، 189.
4- المصدر نفسه، ص189.

ويظهر مما سبق، فائدة الرحلة في توثيق معرفة ما لبلاد الحجاز والشام والعراق من عمارة دينية أثرت التراث العربي الإسلامي بمعلوماته التاريخية في المشرق العربي.

وقد عرفت رحلة ابن جبير توثيقا هاما لمساجد أخرى أسهمت في إثراء الرصيد الديني للعمارة الإسلامية في المشرق العربي. ومن هذه المساجد التي ذكرها ابن جبير في مصر **مسجد عمر بن العاص**:الذي اكتفى فيه بذكر ما ينفق من أجل مصالحه، ومرتبات قوامته، وسدنته، وأئمته والقراء فيه، "فهو يعد أول جامع أنشئ في مصر الإسلامية، شيده عمرو بن العاص بعد فراغه من فتح الإسكندرية"[1].

ثُمّ **مسجد ابن طولون** ذا الطابع الإسلامي والذي يعدّ من أكبر الجوامع الأثرية بمصر، وهو "الجامع القديم الذي احتفظ بشكله الأصلي، وذلك بعكس جامع عمرو بن العاص بالفسطاط الذي تغير شكله تماما ولم يبق منه سوى الأرض أو المكان الذي شيد فيه"[2]، كما أنه "ثالث المساجد الجامعة التي شيدت بمصر الإسلامية، وتوالت عليه أعمال الترميم والإصلاح فلا يزال هذا الجامع يحتفظ بأغلب عناصره المعمارية، منذ أن شيده أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية"[3]. وحدد ابن جبير موقع هذا الجامع قائلا: " وبين مصر والقاهرة والمسجد الكبير المنسوب إلى ابن العباس أحمد بن طولون، وهو من الجوامع العتيقة الأنيقة الصنعة الواسعة البنيان، جعله السلطان مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويحلقون فيه، وأجري عليهم الأرزاق في كل شهر، ومن أعجب ما حدثنا به أحد المتخصصين منهم أن السلطان جعل أحكامهم إليهم ولم يجعل يدا لأحد عليهم، فقدموا من أنفسهم حكما يمتثلون أمره ويتحاكمون في طوارئ أمورهم عنده، واستصحبوا الدعة والعافية، وتفرغوا لعبادة ربهم، ووجدوا من فضل السلطان أفضل معين على الخير الذي هم بسبيله"[4].

وفي مدينة مكة المكرمة، ذكر ابن جبير عند زيارته لها مجموعة من المساجد التي جرى المسلمون على تشييدها لأغراض الدين والدنيا.

1- أحمد عبد الرزاق أحمد، تاريخ وآثار مصر الإسلامية، دار الفكر العربي، دط، دت، ص 687.
2- عبد الله عطيه الحافظ، الآثار والفنون الإسلامية، كلية آداب، جامعة المنصورة ماجستير ودكتوراه في تاريخ الفن، ص 43.
3- أحمد عبد الرزاق أحمد، تاريخ وآثار مصر الإسلامية، ص 117.
4- ابن جبير، رحلة ابن جبير،ص26، 27.

ومن هذه المساجد، **مسجد فوق جبل أبي قبيس** الذي قال ابن جبير عن موضعه: وعلى "الحرم الشريف جبل أبي قبيس، وهو في الجهة الشرقية، يقابل ركن الحجر الأسود، وفي أعلاه رباط مبارك فيه مسجد وعليه سطح مشرف على البلدة الطيبة"[1].ثمّ **مسجد الجن** الذي"يقع على يمين المستقبل لمقبرة المعلاه في واديين جبلين"[2]. و**مسجد على طريق التنعيم** الذي يبعد عن مكة المكرمة بنحو ميل بجانبه حجر على الطريق كالمصطبة فوقه حجر آخر مسند عليه قبة أثر نقش ويقال إن موضع المسجد هو موضع جلوس النبي (صلى الله عليه وسلم) عند عودته من العمرة مستريحا فاتخذه الناس مزارا يغدون إليه ويتمسحون به لذلك"[3].

بالإضافة إلى **المسجد المنسوب لأبي بكر الصديق** (رضي الله عنه) الذي يقول عنه "وبجهة المسفل، وهو آخر البلد، نسجد منسوب لأبي بكر الصديق (رضي الله عنه)، يحف به بستان حسن فيه النخيل والرمان...وأمام المسجد بيت صغير فيه محراب، يقال إنه كان مختبئا له – رضي الله عنه– من المشركين الطالبين له[4].أما **المسجد المنسوب لعلي بن أبي طالب** فقد ذكر ابن جبير أنه يقع في دار بمقربة من جبل أبي قبيس وبه نقش مكتوب عليه " هذا المسجد هو مولد علي بن أبي طالب (رضوان الله عليه) وفيه تربى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكان دارا لأبي طالب عم النبي (صلى الله عليه وسلم) وكافله[5]. فهذه المساجد كانت تقريبا منسوبة إلى الصحابة رضوان الله عليهم.

وخلال إقامته بمكة، لم يفُتهُ وصف مساجد ذات خصوصيات دينية عظيمة مثل **مسجد البيعة أو العقبة** الذي يقع على يسار الذاهب لمنى، وهذا المسجد يفضي إلى جمرة العقبة وهي علم منصوب مماثل لأعلام الحرم[6].و**مسجد الخيف** الذي ذكر أنه يقع في آخر منى وهو متسع الساحة كأكبر ما يكون من الجوامع، والصومعة وسط رحبة المسجد، وله في القبلة أربعة بلاطات يشملها سقف واحد[7].و**مسجد المزدلفة** الموجود بوسط المزدلفة وعليه قبة وتظهر أنواره ليلا من بعيد ويبدوا أن المسجد مرتفع عن الأرض فابن جبير أشار إلى صعود الحجيج إليه من جهتين بها

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 85.
2- المصدر نفسه، ص 88
3- المصدر نفسه، ص 88.
4- المصدر نفسه، ص 93.
5- المصدر نفسه ، ص 90.
6- المصدر نفسه ، ص 90.
7- المصدر نفسه،ص 137.

درج[1].و**المسجد بأعلى جبل الرحمة** الذي تعلوه قبة تُنسب إلى أم سلمة (رضي الله عنهما) ولا يعرف صحة ذلك، وفي وسط القبة مسجد يتزاحم الناس للصلاة فيه، وحول ذلك المسجد المكرم سطح محدق به فسيح الساحة جميل المنظر، يشرف منه على بسيط عرفات، وفي جهة القبلة منه جدار، وقد نصبت فيه محاريب يصلي الناس فيه[2].

وأخيرا **مسجد إبراهيم (عليه السلام)** الذي يقع بمقربة من العلمين حد عرفة عن يسار المستقبل للقبلة مسجدان الأول صغير والثاني قديم كبير لم يبق من بنائه إلا جدار قبلته وينسب هذا المسجد إلى إبراهيم (عليه السلام)[3].

أما عن المساجد بالمدينة المنورة، فقد وقف ابن جبير على **مسجد حمزة (رضي الله عنه)** وهو مسجد شهير يقع بقبلي الجبل المذكور، والجبل حوفي المدينة، وهو على مقدار ثلاثة أميال، وعلى قبره (رضي الله عنه) مسجد مبني، والقبر برحبه جوفي المسجد، والشهداء –رضي الله عنهم– بإزائه....[4]كما اهتم بوصف **مسجد قباء** حيث أورد بأنه مسجد مربع الشكل له مئذنة طويلة، بيضاء تظهر من بعيد وهو حديث البناء وفي وسطه روضة صغيرة هي مكان مبرك الناقة بالنبي (صلى الله عليه وسلم) ويحرص الناس على الصلاة فيه[5].فضلا عن ذلك أشار ابن جبير إلى كل من **مسجد علي بن أبي طالب** (رضي الله عنه) ومسجد **سلمان الفارس** (رضي الله عنه) ومسج **الفتح** دون وصف دقيق[6]. فالمساجد بالمدينة المنورة تقريبا كلها لها خصوصياتها الدينية.

وأثناء ارتحاله إلى **العراق**، ذكر ابن جبير مساجد أخرى بالإضافة إلى مسجد الكوفة، وهناك من وصفها، وهناك من أشار إليها.وقد ذكر في طريق من الحلة إلى بغداد مسجد جامع كبير جديد[7].أما في **بغداد** فقد أشار أن بها مساجد شرقية وغربية فلا يأخذها التقدير فضلا عن الإحصاء.[8]

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 150.
2- المصدر نفسه، ص 151.
3- المصدر نفسه، ص 89.
4- المصدر نفسه ، ص173.
5- المصدر نفسه ، ص 167..
6- المصدر نفسه، ص 402.
7- المصدر نفسه، ص 193.
8- المصدر نفسه، ص 205.

كما نجده يقول واصفا **مدينة الموصل**: وللمدينة جامعان، أحدهما جديد، والآخر من عد بني أمية، وفي صحن هذا الجامع قبة، داخلها سارية رخام قائمة، قد خلخل جيدها بخمسة خلاخل مفتولة فتل السوار من جرم رخامها، وفي أعلاها خصة رخام مثمنة يخرج عليها أنبوب من الماء خروج انزعاج وشدة، فيرتفع في الهواء، أزيد من القامة، كأنه قضيب من البلور معتدل ثم ينعكس إلى أسفل القبة، ويجمع في هذين الجامعين القديم والحديث، ويجمع أيضا في جامع الربض[1].في حين أشار أن **بمدينة نصيبين** بها جامع مكرم به سرب يخترق صحنه، وينصب في صهريجين، أحدهما وسط الصحن، والآخر عند الباب الشرقي منه، ويضفي إلى سقايتين حول الجامع[2].ثم يصف **مدينة رأس العين** التي لها جامعان قديم وحديث، فالقديم بموضع هذه العيون، وتنفجر أمامه عين معينة هي دون اللتين ذكرناهما، وهو من بنيان عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه)، لكنه قد أثر القدم فيه حتى آذن بتداعيه، والجامع الآخر داخل البلد، وفيه يجمع أهله، فكان مقامنا بها ذلك اليوم، نزهة لم تختلس في سفرنا كله مثلها[3]. يصعب تحديد كل المساجد التي أحصاها ابن جبير فهي كثيرة لا تعد ولا تحصى.

وإلى جانب هذه المشاهد، نجد لمساجد بلاد **الشام** حضورا ظاهرا في هذه الرحلة حيثاهتم ابن جبير بوصف الجامع المكرم بدمشق، وبالإضافة إلى ذلك ذكر مساجد أخرى هناك من خصها بالوصف وهناك من أشار إليها فقط ومنها بمدينة حران لها جامع مكرم سُقف بجوائز الخشب والحنايا، وخشبه عظام طوال لسعة البلاط، وسعته خمس عشرة خطوة، وهو خمسة أبلطة، وما رأينا جامعا أوسع حنايا منه، وجداره المتصل بالصحن، الذي عليه المدخل إليه مفتح كله أبواب، عددها تسعة عشر بابا، تسعة يمينا، وتسعة شمالا، والتاسع عشر منها باب عظيم وسط هذه الأبواب، يمسك قوسه من أعلى الجدار إلى أسفله، بحن المنظر، جميل الوضع، كأنه باب من أبواب المدن الكبرى، ولهذه الأبواب كلها أغلاق من الخشب البديع الصنعة والنقش تنطبق عليها شبه أبواب مجالس القصور، فشاهدنا من حسن بناء هذا الجامع[4]، فضلا عن حسن ترتيب أسواقه المتصلة به مرأى عجيب قلما يوجد في المدن مثل انتظامه.

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص211.
2- المصدر نفسه، ص 214.
3- المصدر نفسه ، ص219.
4- المصدر نفسه ، ص221.

ويقف ابن جبير في موضع آخر، ليقدم للقارئ أوصاف جامع **بمدينة حلب** الذي وهو من أحسن الجوامع وأجملها، قد أطاف بصحنه الواسع بلاط متسع مفتح كله، أبواب قصرية الحسن إلى الصحن، عددها ينيف على الخمسين بابا فيستوقف الأبصار حسن منظرها، وفي صحنه بئران معينان، والبلاط القبلي لا مقصورة فيه فجاء ظاهر الاتساع رائق الانشراح، وقد استفرغت الصنعة القرنصية جهدها في منبره، فما رأى في بلد من البلاد منبرا على شكله وغرابة صنعته، واتصلت الصنعة الخشبية منه إلى المحراب فتجللت صفحاته كلها حسنا على تلك الصفة الغريبة، وارتفع كالتاج العظيم على المحراب وعلا حتى اتصل بسمك السقف، وقد قوس أعلاه، وشرف بالشرف الخشبية القرنصية، وهو مرصع كله بالعاج والآينوس، واتصال الترصيع من المنبر إلى المحراب مع ما يليهما من جدار القبلة دون أن يتبين بينهما انفصال، فتجلى العيون منه أبدع منظر يكون في الدنيا، وحسن هذا الجامع المكرم أكثر من أن يوصف[1].

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 227.

ب- **الكنائس**: إنّ الكنائس مظهر حضاري دينية له حضوره القوي في البلاد العربية، وقد عُرفت بطرازها المعماري الذي يشير إلى وجود تعايش بين المسلمين والنصارى.

ومما ذكره ابن جبير لما زار دمشق أنّ "في داخل البلد كنيسة عند الروم شأن عظيم، تعرف بكنيسة مريم، ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها، وهي حفيلة البناء، تتضمن من التصاوير أمرا عجيبا تبهت الأفكار، وتستوقف الأبصار، ومرآها عجيب وهي بأيدي الروم، ولا اعتراض عليهم فيها[1].ومن ذلك أيضا ما نقله عن **حضرة صقلية** وما بها من كنائس قد صيغ من الذهب والفضة صلبانها[2]. فقد انبهر ابن جبير في طريقة بنائها والتأنق في شكلها.

ويتناوب وصف الكنائس لدى ابن جبير وطريقة تشييد كنيسة أنطاكي حيث يقول: ومن أعجب ما شاهدناه بها من أمور الكفران كنيسة تعرف بكنيسة الأنطاكي، أبصرنا يوم الميلاد، وهو يوم عيد لهم عظيم، وقد احتفلوا لها رجالا ونساء، فأبصرنا من بنيانها مرأى يعجز الوصف عنه، ويقع القطع بأنها أعجب مصانع الدنيا المزخرفة جدرها الداخلة ذهب كلها، وفيها من ألواح الرخام الملون ما لم ير مثله قط، قد رُصعت كلها بفصوص الذهب وكللت بأشجار الفصوص الخضر ونُظن أعلاها بالشمسيات المذهبات من الزجاج، فتخطف الأبصار بساطع شعاعها وتُحدث في النفوس فتنة نعوذ بالله منها، وأعلمنا أن بانيها الذي نسب إليه أنفق فيها قناطير من الذهب[3]، ويضيف: ولهذه الكنيسة صومعة قد قامت على أعمدة سوار من الرخام

ملونة وعلة قبته على أخرى سوار كلها فتعرف بصومعة السواري، وهي من أعجب ما يبصر من البنيان، شرفها الله من قريب بالأذان، بلطفه وكريم صنعه[4].

يتضح مما سبق أن العمارة الدينية احتلت مساحة كبيرة من وصف ابن جبير خاصة القسم الذي تعلق بالمساجد العريقة مثل المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف والجامع الأموي وجامع الكوفة وغيرها. وقد جاء وصفه لها دقيقا، مُفعما بالبساطة والصدق، تبين فيه المظاهر العمرانية العلمية والدينية التي ظلّت وما تزال تحكي قصة أمجادها وتاريخها الطويل في منطقة المشرق العربي.

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 255.
2- المصدر نفسه، ص 305.
3 -المصدر نفسه، ص 306، 307.
4- المصدر نفسه،ص 306، 307.

2- العمارة المدنية

تعددتْ المظاهر الحضارية المعمارية التي اهتم ابن جبير بوصفها في رحلته، حيث قدم لنا وصفا دقيقاً للمدارس والمستشفيات والقبور وغيرها من أشكال العمارة المدنية التي زارها وأبدى إعجابه بها وبعمارتها، ومنها:

أ- القبور والمشاهد

❖ **في مصر:**

شاهد ابن جبير وهو بمصر قرافة القاهرة التي عدّها من عجائب الدنيا "لما تحتوي عليه من مشاهد الأنبياء صلوات الله عليهم، وأهل البيت رضوان الله عليهم، والصحابة والتابعين والعلماء والأولياء وذكر عددا كبيرا من القبور والمشاهد وبات فيها ليلة"[1]. كما اهتم ابن جبير بزيارة المشاهد لقداستها وبركتها، ومنها **مشاهد أهل البيت (رضي الله عنهم)**التي قال عنها: " مشهد علي بن الحسين بن علي (رضي الله عنهم)، ومشهدان لابني جعفر بن محمد الصادق (رضي الله عنه) ومشهد القاسم بن محمد بن جعفر الصادق بن محمد بن علي زين العابدين المذكور رضي الله عنهم،...ومشهد جعفر بن محمد من ذرية علي بن الحسين (رضي الله عنهم)".[2]

ولم يكتفِ ابن جبير بذكر مَشَاهد التابعين والصالحين الذين وثّقَ أسماءهم في رحلته، وإنما عَدَّدَ أيضا **ذكرمشاهد الشريفات العلويات (رضي الله عنهن)**مثل: "مشهد السيدة أم كلثوم ابنة القاسم بن محمد بن جعفر (رضي الله عنهم)، ومشهد السيدة زينب ابنة يحي بن علي بن الحسين (رضي الله عنهم)، ومشهد السيدة أم كلثوم ابنة محمد بن جعفر الصادق (رضي الله عنهم)...وهذا ذكر ما حصله العيان، من هذه المشاهد العلوية وهي أكثر من ذلك..."[3].

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 20.
2- المصدر نفسه، ص 21.
3- المصدر نفسه، ص 21.

كما وقف على **مشاهد بعض أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم)** واصفا ومُعدّداً إيّاها بقوله: "مشهد معاذ بن جبل (رضي الله عنه)، مشهد عقبة بن عامر الجهني...مشهد محمد بن أبي بكر الصديق (رضي الله عنه)...وغيرها من المشاهد".[1]

❖ في بلاد الشام:

حينما زار ابن جبير بلاد الشام، وقف واصفاً قبور الأنبياء والصحابة والصالحين بالأماكن التي زارها تقديسا لأصحابها حيث ذكر أن "خارج مدينة دمشق توجدالجبانة العتيقة، وهي مدفن الأنبياء والصالحين، وبركتها شهيرة...والقبور محيطة بها، وهي لا تخلوا من الماء حتى عادة قرارة له"[2]. في حين وصف "غربي البلد جبانة كبيرة تعرف بقبور الشهداء، فيها كثير من الصحابة والتابعين والأئمة الصالحين، (رضي الله عنهم)، فالمشهور بها من قبور الصحابة (رضي الله عنهم) قبر أبي الدرداء، وقبر زوجته أم الدرداء، رضي الله عنهما"[3].فذكر مشاهد وقبور الصحابة والتابعيين والشهداء لدورهم في الدعوة الإسلامية لأثرهم الكبير الذي خلد ذكراهم.

❖ في بلاد الحجاز

نزل ابن جبير ببلاد الحجاز التي عُرفت بكثرة المشاهد وقبور الأنبياء والصحابة والتابعين، وقد وصف بعضها وصفا دقيقا فقال عنها: "فأولها مشهد رأس يحي بن زكريا (عليه السلام)، وهو مدفون بالجامع المكرم في البلاط القبلي قبالة الركن الأيمن من المقصورة الصحابية... وعلى مقربة منه إلى جبل قاسيون، مدفن سبعين ألف نبي، وقيل: سبعون ألف شهيد، وأن الأنبياء المدفونين به سبع مئة نبي، والله أعلم"[4].

أما في مكة المكرمة يقف ابن جبير واصفا: "جبانة وهي مدفن جماعة من الصحابة والتابعين والأولياء الصالحين قد اندثرت مشاهدهم المباركة وذهبت عن أهل البلد أسماؤهم"[5]. ومما جذبه فيها أيضا مقبرة البقيع التي تُعد من أهم المقابر التي دفن بها عدد كبير من صحابة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأزواجه وأبنائه حيث يقول عنها:"مقبرة بالمدينة دفن بها عشرة آلاف من

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 22.
2- المصدر نفسه ، ص 247
3- المصدر نفسه، ص 251.
4- المصدر نفسه، ص 246 و247.
5- المصر نفسه، ص 87.

أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ودفن بها أزواج النبي (صلى الله عليه وسلم)، وبناته وعدد كبير من التابعين وأتباعهم"[1].فضلا عن وصفه لبقيع غرقد الذي يقول عنه"وبقيع غرقد شرقي المدينة، يخرج إليه على باب يعرف بباب البقيع، وأول ما تلقى عن يسارك عند خروجك، من الباب المذكور، مشهد صفية عمة النبي (صلى الله عليه وسلم) ..."[2]إلاّ أنّ مشاهد البقيع أكثر من أن تحصى لأنه مدفن الجمهور الأعظم من الصحابة المهاجرين والأنصار (رضي الله عنهم أجمعين)، وعلى قبر فاطمة المذكور مكتوب "ما ضم قبر أحد كفاطمة بنت أسد " رضي الله عنهما..."[3].

وبهذا، يكون ابن جبير قد أسهم هو أيضا في الكشف عن قبور الأنبياء والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد التي حوتها المناطق المزارة، وجاءت أوصافه تقديساً لمكانة هؤلاء الرجال ولدورهم في الدعوة المحمدية.

ب- المدارس والمستشفيات والحمامات:

اهتم العرب والمسلمين في العصور الوسطى بتشييد واسع للمدارس والمستشفيات والحمامات وذلك لأهمية هذه المعالم في ازدهار الحضارة، خاصة المدارس التي كانت تُعد منارة للعلم، ولتدريس مختلف العلوم، فضلا عن المستشفيات التي اشتهر بها العرب قبل غيرهم من الأمم التي كان يطلق عليها اسم المارستانات في تلك الفترة.

ولمعرفة أكثر لهذه المظاهر الحضارية العمرانية، نقف مع ابن جبير في وصفه لها.

❖ بمصر:

صرّح ابن جبير أن صلاح الدين الأيوبي أنشأ بالإسكندرية المدارس والمحارس وذلك في قوله: "ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه: المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطب والتعبد...واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء المغاربة الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات

1- محمد إلياس عبد الغني، بيوت الصحابة (رضي الله عنهم) هو المسجد النبوي الشريف دراسة عن الحجرات الشريفة وصفة بيوت بعض الصحابة (رضي الله عنهم)، ماجستير في الأدب الإسلامي، المدينة المنورة، دط، 1417هـ، ص 165.
2 - ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 173.
3-المصدر نفسه، ص 173.

يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم، ووكل بهم أطباء يفتقدون أحوالهم..."[1] وبالتالي فصلاح الدين الأيوبي لم يهتم فقط بحروبه ضد الصليبيين بل اهتم أيضا بتشييد العمارة المدنية المذكورة لأهميتها في حياة الناس.

كما ذكر ابن جبير المستشفى الذي أقامه صلاح الدين بالقاهرة وهو من مفاخر السلطان المارستان،"وهو قصر من القصور الرائقة حسنا واتساعا، وضع لديه خزائن العقاقير ومكنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها، ووضعت في مقاصير ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجيع كاملة الكسى، وبين يدي ذلك القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم، وبإزاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المرضى، ولهن أيضا من يكفلهن، ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصر عليها شبابيك الحديد اتخذت محابس للمجانين"[2].

❖ الحجاز:

لم يعرض ابن جبير لمدارس أو مستشفيات بالحجاز، وإنما جاء ذكره لحلقات التدريس والعلم التي كانت تقام بالمسجد الحرام، وذكره حمامان بمكة المكرمة: حيث يقول "ولهذه البلدة المباركة حمامان: أحدهما يُنسب للفقيه الميناشي، أخذ الأشياخ المحلقين بالحرم المكي، والثاني، وهو الأكبر، يُنسب لجمال الدين، وكان هذا الرجل كصفته جمال الدين رحمه الله"[3].

❖ العراق:

أشار ابن جبير للمدارس والمستشفيات بمدينة بغداد ولا سيما ما أصاب الجانب الغربي وسور الكرخ، من ضرر " فأما الجانب الغربي فقد عمه الخراب واستولى عليه،...لكنه مع استيلاء الخراب عليه يحتوي على سبع عشرة محلة، كل محلة منها مدينة مستقلة، وفي كل واحدة منها الحمامات والثلاثة والثمانية منها..."[4]كما ذكر طريقة تشييد حمامات المدينة التي لا تعد ولا تحصى، حيث يروي لنا أنّ:"أحد أشياخ البلد أنها بين الشرقية والغربية نحو ألفين حمام، وأكثرها

1-ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 15
2- المصدر نفسه،ص 26.
3- المصدر نسه، ص 102.
4- صالح أحمد العلي، بغداد مدينة السلام (الجانب الغربي)، بغداد، دط، 1985، ص 67.

مطلية بالقار مسطحة به فيخل للناظر أنه رخام أسود صقيل، وحمامات هذه الجهات أكثرها على هذه الصفة لكثرة القار عندهم، لأن شأنه عجيب، يُجلب من عين بين البصرة والكوفة، وقد أنبط الله ماء هذه العين ليتولد منه القار، فهو يصير في جوانبها كالصلصال، فيحرق ويجلب وقد انعقد، فسبحان خالق ما يشاء لا إله سواه..."[1] كما تعجب ابن جبير لكثرة استخدامهم لمعدن القار لتشييد الحمامات وهذا ما أشار إليه في رحلته.

فضلا عن ذلك أشار إلى الانتشار الواسع الذي عرفته المدارس ببغداد، فقال: "أما المدارس بها نحو الثلاثين، وهي كلها بالشرقية، وما منها مدرسة إلا وهي يقصر القصر البديع عنها، وأعظمها وأشهرها النظامية، وهي التي ابتناها نظام الملك، وجددت سنة أربع وخمس مئة، ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات محبسة تتصير إلى الفقهاء المدرسين بها، ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم، ولهذه البلاد في أمر هذه المدارس والمارستانات شرف عظيم وفخر مخلد، فرحم الله واضعها الأول ورحم من تبع ذلك السنن الصالح".[2]وبذلك يكون حكام بغداد قد أولوا اهتماما كبيرا بالعمارة المدنية ويظهر ذلك من خلال تشييد المدارس والحمامات وغيرها.

❖ الشام:

أشار ابن جبير إلى انتشار المدارس والمستشفيات بدمشق كما أنه قام بوصفها بقوله:"بدمشق نحو عشرين مدرسة، وبها مارستانان قديم وحديث، والحديث أحفلهما وأكبرهما، وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر دينارا، وله قومة بأيديهم الأزمة المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك، والأطباء يبكرون إليه في كل يوم ويتفقدون المرضى ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية...والمارستان الآخر على هذا الرسم، لكن الاحتفال في الجديد أكثر..."[3] كما أورد لنا المدارس والمارستان التي شيدها نور الدين الزنكي حيث كان له الفضل الكبير في العمارة المدنية فقال عنه:"وهذه المارستان مفخر عظيم من مفاخر الإسلام، والمدارس كذلك، ومن أحسن مدارس الدنيا منظرا مدرسة نور الدين–رحمه الله–

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 204. 205.
2- المصدر نفسه، ص 205.
3- المصدر نفسه، ص 255.

وبها قبره نوره الله، وهي قصر من القصور الأنيقة، ينصب فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة"[1].

لقد عُرفت دمشق بكثرة حماماتها ووفرتها، وفي ذلك يقول ابن جبير: "أما عن حمامتها فإن بها قرب مئة حمام وفي أرباضها، وفيها نحو أربعين دار للوضوء يجري الماء فيها كلها، وليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب، لأن المرافق بها كثيرة"[2].

ج- المنارات والأهرامات:

ولما كانت المنارات والأهرامات من المظاهر الأساسية للحضارة الإنسانية عامة، والإسلامية خاصة، جاء وصف ابن جبير للمنارات باعتبارها واحدة من أعاجيب الدنيا السبع في العصور الوسطى ومن بين تلك المنارات التي وصفها:

❖ منار الإسكندرية:

تعد من أهم المنارات التي عُرفت في العصور الوسطى حيث حُظيت بنصيب كبير من الاهتمام والزيارات، "لكنها أخذت تفقد مكانها تدريجيا بعد أن أقيم على مثالها منارات أخرى في مناطق مختلفة من العالم، فقد رأى بطليموس أن ينشئ عند مدخل هذا الميناء منارا ضخما لهداية السفن عن طريق إشعال في قمته وعهد بطليموس بإقامة هذا المنار...إلى المهندس سوسترانوس الذي شرع في تأسيسه"[3].وعُرفت أيضا بطريقة مميزة في البناء "فهذه المنارة التي ليس على قرار الأرض مثلها بنيانا ولا أوثق منها عقدا أحجارها من صميم الكدان، وقد أفرغ الرصاص في أصولها فبعضها مرتبط ببعض معقود لا ينفك التئامها والبحر يصطدم أحجارها"[4].

كما نقل لنا ابن جبير فضل هذه المنارة على المسافرين وإعجابه بطريقة تشييدها فقال عنها: "وما أعظم ما شاهدناه من عجائبها المنار الذي قد وضعه الله عز وجل على يدي من سخر لذلك آية للمتوسمين وهداية للمسافرين، لولاه ما اهتدوا في البحر إلى بر إسكندرية، يظهر على أزيد من سبعين ميلا، وميناه في غاية العتاقة والوثاقة طولا وعرضا، يزاحم الجو سموا وارتفاعا،

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 256.
2- المصدر نفسه ، ص 261.
3- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ص28، 31(بتصرف).
4- أبي عبد الله محمد بن محمد الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص 319 (المجلد الأول).

يقصر عنه الوصف ويحسر دونه الطريق، الخبر عنه يضيق والمشاهدة له تتسع ذرعا أحد جوانبه الأربعة فألفينا فيه نيفا وخمسين باعا، وذكر أن في طوله أزيد من مئة وخمسين قامة، وأما داخله فمرأى هائل، اتساع معارج ومداخل وكثرة مساكن"[1].

❖ منارة دمشق:

أولى ابن جبير كذلك وصف منارة دمشق وربطها بالجانب الديني جانبا مهما من وصفه حيث قال: "لهذه البلدة أبواب...، وفيه منارة بيضاء يقال: إن عيسى (عليه السلام)، ينزل فيها، لما جاء في الأثر أنه ينزل بالمنارة البيضاء شرقي دمشق".[2]

❖ أهرامات مصر:

شدّ إعجاب ابن جبير بالأهرامات القديمة في مصر التي وصفها بأنها "المعجزة البناء الغريبة المنظر، المربعة الشكل، كأنها القباب المضروبة قد قامت في جو السماء، قد أقيمت من الصخور العظام المنحوتة، وركبت تركيبا هائلا، بديع الإلصاق، دون أن يتخللها ما يعين على إلصاقها...وربما أمكن الصعود إليها على خطر ومشقة...لو رام أهل الأرض نقض بنائها، ثم يسوق ملاحظة تدل على أنهم كانوا لا يعرفون في أيامه أصحابها فقال: للناس في أمرها اختلاف، ومنهم من يجعلها قبور لعاد ونبيه، ومنهم من يزعم غير ذلك، وبالجملة لا يعلم شأنها إلا الله عز وجل".[3] ولجمالها الفني وحسن موقعها تبقى الأهرامات من المظاهر الحضارية التي نالت إعجاب كل من زارها أو مرّ بها.

د- القصور:

لعل عمارة القصور وتشييدها جزءٌ لا يتجزأ من العمارة الإسلامية، وقد وقف ابن جبير على أنواعها وأشكالها المختلفة بالوصف الدقيق ومن أمثلة ذلك:

القصر الأبيض الموجود بمدينة مسينة الذي اعتبره ابن جبير ملكا للملك غليام فقال في ذلك: "ولهذا الملك القصور المشيدة والبساتين الأنيقة، ولا سيما بحضرة ملكة المدينة المذكورة، وله

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 15.
2- المصدر نفسه ، ص 255.
3- صلاح الدين المنجد، المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى، ص 68 و69.

بمسينة قصر أبيض كالحمامة مطل على ساحل البحر، وهو كثير الاتخاذ للفتيان والجواري، وليس في ملوك النصارى أترف في الملك ولا أنعم ولا أرفه منه..."[1]واعتبر القصر الأبيض من أعظم القصور وأفخمها،ثم يصف لنا **في مدينة ثرمة** من جزيرة صقلية ما عرف عنْ "قصر سعد وهو يقع على ساحل البحر مشيد البناء عتيق قديم الوضع من عهد ملكة المسلمين للجزيرة، لم يزل ولا يزال –بفضل الله– مسكنا للعباد منهم، وحوله قبور كثيرة للمسلمين...وهو موصوف بالفضل والبركة مقصود من كل مكان، وبإزائه عين تعرف بعين المجنونة، وله باب وثيق من الحديد، وداخله مساكن...وفي أعلاه مسجد من أحسن مساجد الدنيا بهاء، مستطيل ذو ...مستطيلة".[2]وبنحو الميل إلى جهة المدينة ليصف لنا، "قصرا آخر يعرف بقصر جعفر، وداخله سقاية تفور بماء عذب".[3]

كما شاهد ابن جبير بدمشق موضعاً يعرف بالقصر، وهو صرح عظيم مستقل في الهواء، في أعلاه مساكن لم ير أجمل إشراقا منها، وهو من البلد بنصف الميل، له بستان عظيم يتصل به، وكان متنزها لأحد ملوك الأتراك، وهو القصر الذي وهبه نور الدين الزنكي لطائفة صوفية بعدما أعاثوا فيه الفساد كذلك ذكر في طريقه من الكوفة إلى بغداد شاهد في قرية معمورة فقال: "قصر مشيد من قصور الأعراب ومصنعان للماء وآبار"[4].وبذلك يكون ابن جبير قد اهتم بوصف الشكل الداخلي للقصور كما أشار إلى عراقتها التاريخية وذلك من خلال ذكر من شيدها كقصر ملك غليام وقصر في مدينة ثرمة وغيرها .

هـ- **الدور**:تعتبر هي الأخرى من المظاهر الحضارية التي شيدت في بداية ظهور الإسلام اهتماماً كبيرا من قبل الباحثين والرحالة، وقد وقف ابن جبير على بعضٍ منها لأهميتها وقد أورد لنا ابن جبير طائفة من المعلومات الدقيقة عن الدور التي كان لها تاريخ إسلامي حافل ومنها: دار السيدة خديجة رضي الله عنها وهي: "الدار التي تسمى أيضا "قبة الوحي، وبها كان ابتناء النبي (صلى الله عليه وسلم) لها، وقبة صغيرة أيضا في الدار المذكورة فيها كان مولد فاطمة الزهراء (رضي الله عنها)، وفيه أيضا ولدت سيدي شباب أهل الجنة: الحسن والحسين، رضي الله عنهما، وهذه

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 298.
2- المصدر نفسه، ص 303.
3- المصدر نفسه، ص 303.
4- المصدر نفسه، ص 185.

المواضع المقدسة المذكورة مغلقة مصونة قد بنيت بناء يليق بمثلها"[1].كما ربط هذه الدور بأحداث إسلامية خاصة في فترة نزول الوحي على الرسول –صلى الله عليه وسلم–، مثل ما نُقِل عن **دار الخيزران**:"التي كان النبي (صلى الله عليه وسلم)، يعبد الله فيها سرا مع الطائفة الكريمة المبادرة للإسلام من أصحابه –رضي الله عنهم– حتى نشر الله الإسلام منها على يدي الفاروق عمر ابن الخطاب –رضي الله عنه–"[2]. وأورد ابن جبير أيضا مسجد النبي الذي كان دارا لعبد الله بن عبد المطلب ومولد النبي –صلى الله عليه وسلم– فقال: "وفي يوم الاثنين الثالث عشر منه دخلنا مولد النبي –صلى الله عليه وسلم– وهو مسجد حفيل البنيان، وكان دارا لعبد الله بن عبد المطلب أبي النبي –صلى الله عليه وسلم– وقد تقدم ذكره، ومولده –صلى الله عليه وسلم– .....ومسحنا الخدود في ذلك الموضع المقدس الذي هو مسقط الأكرم مولود على الأرض وممس لأطهر سلالة وأشرف–صلى الله عليه وسلم– ونفعنا ببركته مشاهده مولده الكريم"[3] فلهده الدور دور ريادي في بدايات ظهور الإسلام ولهذا ركز ابن جبير على وصفها.

وذكر أيضا دورا أخرى لصحابة الرسول –صلى الله عليه وسلم– منها مسكن بلال (رضي الله عنه) الذي يصفه بقوله: "دخلنا دار الخيزران التي كان منشأ الإسلام، وهي بإزاء الصفا يلاصقها بيت صغير عن يمين الداخل إليها كان مسكن بلال (رضي الله عنه)".[4] وقدم لنا صوراً دقيقة عن دورٍ أخرى كان لها أثر كبير في تاريخ الإسلام منها قوله عن: "الدار المكرمة دار صغيرة بجدها الداخل إلى الحلق المذكورة عن يساره...وعن يمين الداخل الدار المباركة باب يدخل منه إلى قبة كبيرة بديعة البناء فيها مقعد النبي –صلى الله عليه وسلم–، والصخرة التي كان إليها مستنده، وعن يمينه موضع أبي بكر الصديق، وعن يمين أبي بكر موضع علي بن أبي طالب، والصخرة التي كان إليها مستنده هي داخلة في الجدار كشبه المحراب وفي هذه الدار كان إسلام عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ومنها ظهر الإسلام على يديه وأعزه الله به ونفعنا الله ببركة هذه المشاهد المكرمة والآثار المعظمة"[5]

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص 91.
2- المصدر نفسه ، ص 92.
3 - المصدر نفسه ، ص 141.
4 - المصدر نفسه، ص 145.
5 - المصدر نفسه، ص 145.

وعدّت أيضا بجبل الرحمة دار أخرى تنسب إلى آدم (عليه السلام) فقال: "وفي أسفل هذا الجبل المقدس، عن يسار المستقبل للقبلة فيه دار عتيقة البنيان في أعلاها غرف لها طيقان تنسب إلى آدم (عليه السلام)".[1]

ثم اهتم بوصف دار أبي بكر (رضي الله عنه) وذكر كراماتها الموجودة بها وهي: التي يقابلها جدار فيه حجر مبارك يتبرك الناس بلمسه يُقال: إنه كان يسلم على النبي (صلى الله عليه وسلم)، متى اجتاز عليه، وذُكر أنه جاء يوما (صلى الله عليه وسلم)، إلى دار أبي بكر رضي الله عنه، فنادى به ولم يكن حاضرا فأنطق الله عز وجل الحجر المذكور، وقال: يا رسول الله ليس بحاضر، وكانت إحدى آياته المعجزات. صلى الله عليه وسلم"[2]. وكان لهذه الدور التي وصفها ابن جبير في بلاد الحجاز دور كبير في نشر الدعوة المحمدية كدار خديجة (رضي الله عنها) ودار خيزران وغيرها من الدور.

أما ببغداد والشام، فقد أشار إلى ديار منسوبة إلى الخلفاء منها **دار الخلافة**: وهي "تقع منها في نحو الربع أو أزيد، لأن جميع العباسيين في تلك الديار معتقلون اعتقالا جميلا لا يخرجون ولا يظهرون، ولهم المرتبات القائمة بهم، وللخليفة من تلك الديار جزء كبير، قد اتخذ فيها المناظر المشرفة والقصور الرائقة والبساتين الأنيقة...وله قيم على جميع الديار العباسية، وأمين على سائر الحرم الباقيات من عهد جده وأبيه على جميع من تضمنه الحرمة الخلافية، يعرف بالصاحب لجد الدين أستاذ الدار، هذا لقبه، ويُدعى له إثر الدعاء للخليفة، وهو قلما يظهر للعامة اشتغالا بما هو بسبيله من أمور تلك الديار وحراستها"[3].كذلك ذكر الدار المنسوبة لعمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) بالشام قائلا: "وهي اليوم خانقة الصوفية، وهي في الدهليز الذي في الباب الشمالي المعروف بباب الناطقين، وقد تقدم للتنبيه عليها قبل هذا، حديث عجيب، وذلك أن الذي اشتراها وبناها وجعل بها الأوقاف الواسعة وأمر بأن يُدفن فيها وأن يختم القرآن على قبره كل جمعة..."[4]

1 - ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص152.
2- المصدر نفسه ، ص 92.
3- المصدر نفسه ، ص 203.
4- المصدر نفسه، ص 262.

نلاحظ مما سبق اهتمام ابن جبير بوصف مظاهر العمارة المدنية المتمثلة في المدارس والمارستانات والحمامات التي كانت منتشرة خاصة في مصر وبلاد الشام وبغداد، وفضل كل من صلاح الدين الأيوبي ونور الدين الزنكي في تشييدها. كما وصف أماكن العبادة والإقامة والمعاناة التي كان لها أثر في تاريخ الدعوة الإسلامية، ناهيك عن مجموعة من القصور التي كانت وما تزال لها أهمية ومكانة في نفوس المسلمين.

3- **العمارة الحربية:** ومن أهم المظاهر التي لفتت انتباه ابن جبير العمارة الحربية والعسكرية التي عرفت انتشارا واسعا في المشرق،وخاصة في ظل الحروب الصليبية التي عرفتها المنطقة ،وقد نقل لنا ابن جبير أوصافها وربطها بأحداث السياسية آنذاك ومن تلك العمارات:

❖ **القلاع:** التي تعد القلاع من أهم المنشآت الحربية التي أشار إليها ابن جبير في رحلته ومنها:

قلعة الجبل التي تعد من أبرز ما خلفه الأيوبيون من منشآت في القاهرة.إذ فما زالت شاهدة صدق على عظمة هذه الدولة إلى اليوم، وإن الناظر إليها ليدرك مدى عناية الأيوبيين بالمنشآت والقلاع الحربية التي كانت منتشرة في بلادهم، وتعتبر قلعة الجبل مظهرا من مظاهر العمارة الحربية ومقرا لحكومة صلاح الدين الأيوبي، ومعقلا لجيشه ،وحصنا من حصونه للإشراف على دولته.

وتقع هذه القلعة،"تقع على قطعة من الجبل، وهي تتصل بجبل المقطم وتشرف على القاهرة ومصر والنيل والقرافة، مما دفع صلاح الدين إلى بناء القلعة رغبته في أن تكون حصنا يدافع به عن أسرته من غارات الصليبيين أو من بقايا الفاطميين على حد سواء، ولعله من الواضح الآن أن صلاح الدين قد بدأ في تشييد قلعة القاهرة فوق المقطم سنة (576هـ/1176م) وجلب لها أحجار البناء من بعض الأهرامات"[1].وينقل لنا ابن جبير زمن إنشاء الأيوبيين لهذه القلعة ،فيقول:

"شهد بناء القلعة، ولاحظ الذين سخروا في هذا البنيان وتولوه هم العلوج الأسارى من الروم أولئك الذين أسرهم صلاح الدين من الصليبيين، وهو يوضح أن عددهم كثير لا يحصى كثرة، ويؤكد بلفظة "لا سبيل" أن أحدا غيرهم لا يستطيع القيام بهذا البنيان، فهو ينفي أن يقوم

1- حسن الباشا وعبد الرحمن فهمي وآخرون، (القاهرة، تاريخها، فنونها، آثارها)، جامعة القاهرة، كلية الآداب، دط، دت، ص 479، 480، 481 (بتصرف).

بالبناء أهل البلاد".[1]ومن الأمور التي أثارت اندهاش ابن جبير ذاك "الخندق الذي حفر بجانب القلعة فقد أحاط صلاح الدين قلعة القاهرة بخندق عظيم عميق يفصل به القلعة عن الجبل المقطم، وقد شاهد ابن جبير هذا الخندق سنة (579هـ/1183م) أثناء حفر أسرى الصليبيين له في الصخر بالمعاول واعتبره من العجائب الباقية"[2].قد اهتم صلاح الدين بتشييد القلاع والخنادق وذلك بسبب الحروب الصليبية.

وقد زار ابن جبير قلاعا أخرى ففي مدينة تكريت، أشار ابن جبير أن بها "قلعة حصينة على الشط في قصبتها المنيعة، ويطيف بالبلد سور قد أثر الوهن فيه"[3].أما في بزاغة، ذكر ابن جبير أن "في أعلاها قلعة كبيرة حصينة، رامها أحد ملوك الزمن فقاضته باستصعابها"[4].ومن القلاع التي أعجب ابن جبير بطريقة بنائها وبعراقتها قلعة بمدينة حلب"قلعة شهيرة الامتناع، بائنة الارتفاع، معدومة الشبه والنظير في القلاع، تنزهت حصانه أن ترام أو تستطاع، قاعدة كبيرة ومائدة من الأرض مستديرة، منحوتة الأرجاء، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء، فسبحان من أحكم تقديرها وتدبيرها، وأبدع كيف شاء تصويرها وتدويرها، عتيقة في الأزل حديثة وإن لم تزل..."[5]

كذلك أشار بمدينة حمص فيها"قلعة حصينة منيعة، عاصية غير مطيعة، قد تميزت وانحازت بموضعها عنها...وأسوار هذه المدينة غاية في العتاقة والوثاقة، مرصوص بناؤها بالحجارة الصم السود، وأبوابها أبواب حديد، سامية الإشراف، هائلة المنظر، رائعة الإطلال والأناقة، تكشها الأبراج المشيدة الحصينة"[6].

وفضلا عن ذلك ذكر بجزيرة صقلية مجموعة قلاع حربية منها في مدينة بانيس التي لها "قلعة يستدير بها تحت السور نهر ويفضي إلى أحد أبواب المدينة، وله مصب تحت أرجاء"[7]. فالقلاع الحربية من أهم المظاهر الحربية التي عرفت انتشارا زمن الرحلة.

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 25.
2- حسن الباشا وعبد الرحمن فهمي وآخرون، القاهرة تاريخها، فنونها، آثارها، ص 484.
3- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 208.
4- المصدر نفسه، ص 224.
5- المصدر نفسه، ص 225.
6-المصدر نفسه، ص 232.
7- المصدر نفسه ، ص 273.

إضافة إلى قلعة بمدينة شفلودي"قلعة لم يُر أمنع منها اتخذوها عُدة لأسطول يفجؤهم من جهة البحر من جهة المسلمين"[1].أما مدينة ترمة فيها"قلعة سامية منيعة"[2].وقد وصف ابن جبير شكل هذه القلاع رابطا إياها بالجانب الحربي الذي تتمتع به من حصانة ووثاقة كقلعة الجبل وغيرها من القلاع .

❖ الأسوار والأبواب:

إن الأسوار والأبواب ظاهرة تتصف بها العمارة الحربية العربية ،وقد نقل لنا ابن جبير أوصاف العديد منها وجود سور بجدة فقال عنه: "وأثر سورها المحدق بها باق إلى اليوم"[3].

وفي مكة المكرمة" ثلاثة أبواب، أول بابها المعلى، ومنه يخرج إلى الجبانة المباركة، وهي بالموضع الذي يعرف بالحجون، وعن يسار المار إليها جبل أعلاه ثنية عليها علم شبيه البرج، يُخرج منها إلى طريق العمرة، وتلك الثنية تعرف بكداء"[4]وذكر أيضا بالمدينة المنورة فقال: "وللمدينة المكرمة أربعة أبواب، وهي تحت سورين، في كل سور باب يقابله آخر، الواحد منها كله حديد، ويعرف باسم باب الحديد، ويليه باب الشريعة ثم باب القبلة، وهو مغلق، ثم باب البقيع"[5].أما في مدينة الحلة فقد أشار ابن جبير أن بها "سورا لم يبق منه إلا حلق من جدار ترابي مستدير بها"[6].في حين عرفت مدينة بغداد بكثرة أبوابها منها"بالشرقية أربعة أبواب: فأولها، وهو في أعلى الشط، باب السلطان، ثم باب الظفرية، ثم يليه باب الحلبة، ثم باب البصلية، هذه الأبواب التي هي السور المحيط بها من أعلى الشط إلى أسفله"[7].فالمدن قديما قد كان لها طريقة في البناء والتشييد فاهتموا ببناء الأبواب والخنادق والقلاع وذلك لمواجهة الحروب وهذا ما ذكره ابن جبير.

وذكر بمدينة الموصل أن بها سورا عتيقا عظيما"كادت أبراجها تلتقي انتظاما...مستديرة بجداره المطيق بالبلد كله،...وللمقابلة في هذه البيوت حرز ووقاية. وهي من المرافق الحربية، وفي أعلى البلد قلعة عظيمة قد رُص بناؤها رصا، ينتظمها سور عتيق البنية مشيد البروج...ودجلة

1- ابن جبير ،رحلة ابن جبير ، ص 301.
2- المصدر نفسه، ص 302.
3- المصدر نفسه ،ص53
4- المصدر نفسه ، ص 87.
5- المصدر نفسه، ص 175.
6- المصدر نفسه ، ص 189.
7- المصدر نفسه ، ص 205.

شرقي البلد، وهي متصلة بالسور، وأبراجه في مائها"[1].فضلا عن منبج التي تضم"سورا عتيقا ممتد الغاية والانتهاء"[2].

ومن أهم المدن التي يمكن أن يشار إليها بانتشار الأبواب فيها ،مدينة دمشق التي لها:"لهذه البلدة ثمانية أبواب: باب شرقي، وهو شرقي وفيه منارة بيضاء...ويلي هذا الباب باب توما، وهو أيضا في حيز الشرق، ثم باب السلامة، ثم باب الفراديس، وهو شمالي، ثم باب الفرج، ثم باب النصر، وهو غربي، ثم باب الجابية كذلك، ثم باب الصغير، وهو بين الغرب والقبلة"[3].

وشهرة مدينة صور التي تعد من المدن العسكرية والحربية في زمن الحروب الصليبية حيث وصفها ابن جبير بأنها "يُضرب بها المثل في الحصانة، أما مناعتها فأعجب ما يُحدث به، وذلك أنها راجعة إلى بابين: أحدهما في البر والآخر في البحر...له ثلاثة أبواب أو أربعة...وأما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين إلى ميناء ليس في البلاد البحرية أعجب وضعا منها، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة الجوانب ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص فالسفن تدخل تحت السور وترسو فيها، وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج"[4].وقد كان للأسوار والأبواب دور كبير في حماية المدن خاصة في تلك الفترة ،فقد اهتم الحكام بتشييدها وهذا أشار إليه ابن جبير في رحلته.

❖ الحصون:

ومن المظاهر التي حققت السيادة العربية، ودعمت قوتها العسكرية الحصون المحيطة بالمدن الهامة و أبراج المراقبة ونقل لنا ابن جبير خلال رحلته الحصون الموجودة بالحجاز مثل الحصن الذي شيده"الأمير مكثر بن عيسى فوق جبل أبي قبيس للتحصن فيه ولكن هدمه أمير الحاج العراقي إذ اعتبر بناء شيء لهذا خروجا عن أوامر الخليفة"[5].أما الحصون الموجودة بطرف الحجاز،أشار ابن جبير إلى "وجود بعسقان حصن قديم ذي أبراج ولكنه لقدمه وخرابه غير مأهول، وبخليص حصنان أحدهما ذو عمارة جديدة مبني على ربوة والآخر منهم يقع أسفل منه.أما الصفراء فقد أشار

1- ابن جبير ،رحلة ابن جبير ، ص 210.
2- المصدر نفسه، ص 223.
3- المصدر نفسه، ص 255.
4- المصدر نفسه ، ص 277 و278.
5- ينظر عواطف يوسف نواب، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية مصدر من مصادر الحجاز خلال القرن (7 و8هـ)، ص 421.

الرحالة إلى وجود حصون كثيرة بها منها حصنان يسميان التوأمين وآخر يعرف بالحسنية ورابع يعرف بالجديد وغيرها حصون كثيرة"[1].ورد ذكر حصونا قديمة بالمدينة المنورة منها "حصن متهدم على حافة الخندق سماه ابن جبير بحصن العزاب ونسبوا بناءه لعمر بن الخطاب الذي قام بإسكان عزاب المدينة فيه"[2].علاوة على الخندق الموجودة آثاره بالمدينة بالجهة الغربية"[3].

وقد تعددت الحصون التي أقامها العرب في مدن مختلفة مثل الذي وصفه ابن جبير بالقاهرة فقال عنه: "وشاهدنا أيضا بنيانا في القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين المنعة يريد السلطان أن يتخذه موضع سكناه ويحد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة والمسخرون في هذا البنيان والمتولون لجميع امتهاناته ومؤونته العظيمة كثير الرخام ونحت الصخور العظام وحفر الخندق المحدق بسور الحصن المذكور وهو خندق ينقر بالمعاول نقرا في الصخر عجب من العجائب الباقية الآثار"[4].وفي صقلية، شاهد ابن جبير عند مغادرة صقلية "حصون ومعاقل في قنن الجبال مشرقة"[5]،لعبت دورا في حماية الجزيرة وتحصين دفاعاتها .

وخلاصة ذلك كله،شهدت العمارة الحربية مظاهر حضارية راقية بما فيها من تقدير وازدهار ،سجلت لنا تاريخ المدن والحصون والأسوار والأبواب ،وأعطتنا صورة صامتة عن بلاد المشرق زمن الحروب الصليبية ،في أبنيتها وهندستها ،ساهمت بإضفاء طابع جمالي لعمارتها.

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص166.
2- المصدر نفسه، ص 176
3-المصدر نفسه ، ص، 175.
4- المصدر نفسه ، ص 25.
5- المصدر نفسه، ص 300.

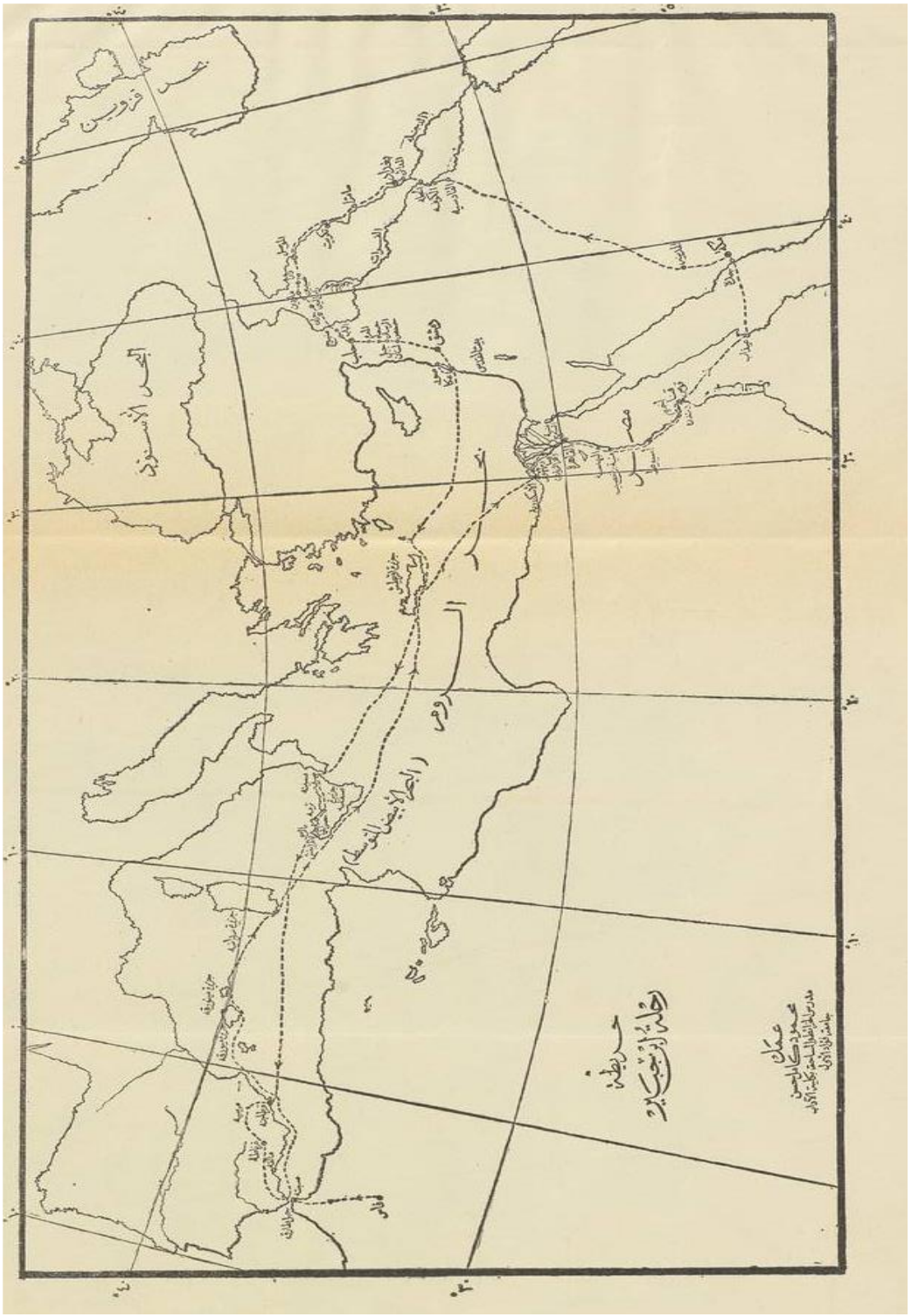

خريطة نقلا : من كتاب رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة، دكتور محمد مصطفى زيادة، القاهرة، دط، 1939، ص23

الخاتمة

الخاتمة:

لقد كانت رحلة ابن جبير بمثابة أوديسة أدب الرحلة لأنها رسمت لوحة رائعة للمظاهر الحضارية المختلفة في العصور الوسطى التي أصبحت في وقتنا الحالي مرجعاً أساسياً لمختلف العلوم (علم الاجتماع، التاريخ، الجغرافيا...) وبعد هذه الجولة الممتعة مع الرحالة الأندلسي، توصلتُ إلى النتائج التالية:

1- المظاهر الاجتماعية؛ عرض ابن جبير في مدونته أبرز أنماط السلوك الحياتية في البلدان التي قصدها التي عكست صورة واضحة عن أحوال الشعوب واختلاف عاداتها وتقاليدها. ولم يكن ابن جبير راصدا لهذه المظاهر فقط بل كان يبدي مواقفه إما بالإعجاب أو بالانتقاد لبعض العادات والبدع خاصة التي كانت تخالف أو توافق الدين الإسلامي. أما الاحتفالات فقد ذكر معظمها في بلاد الحجاز التي كان طابعها دينيّاً، في حين حديثهُ عن اللباس والطعام جاء مختلفا من مكان إلى آخر، ومن طبقة إلى أخرى، لاحظ ابن جبير أن لباس الخطيب مثلا لم يتغير لونه حيث تميز بالسواد في كل المناطق التي زارها.

2- المظاهر الاقتصادية؛ رصد ابن جبير أهم الأنشطة الاقتصادية التي كانت تُمارس في العصور الوسطى، وهي مختلفة من صناعة وزراعة وتجارة. وذكر أن النشاط التجاري كان هو الرائد في الحركة الاقتصادية خاصة في بلاد الحجاز التي عَرفت ازدهاراً للنشاط التجاري داخليا وخارجيا. أما في العراق فقد أشار إلى ازدهار نشاطها الصناعي من خلال استخراج معادن القار، في حين عُرفت دمشق ومناطق أخرى كحلب وغيرها بازدهار نشاطها الفلاحي لوفرة المياه بها، كما عرفت مناطق أخرى كعيذاب بصناعة السفن .

3- المظاهر الدينية والعلمية؛ تميز ابن جبير بعاطفة دينية واضحة انعكست من خلال كتاباته، فلم يكن حياديا فيما يتعلق بالجانب الديني بل كان منحازا للمسلمين في آرائه ويظهر ذلك من خلال انتقاده لبعض المدن التي كانت تحت حكم الصليبيين وغيرها كذلك أبدى سخطه من بعض الفرق الشيعية التي كانت منتشرة في دمشق لأنها شوهت الدين الإسلامي. كما وقف على تعدد المذاهب في المسجد الحرام حيث كان لكل واحد ركن خاص به في تلك الفترة. أما عن المظاهر العلمية فقد تطرق ابن جبير إلى ذكر المدارس الموجودة في الأماكن التي زارها مع العلم أن المساجد كانت تؤدي دورا علميا كبيرا زمن الرحلة، وهذا ما أشار إليه ابن جبير في حديثه مثلا عن

المسجد الحرام الذي كان يغص بحلقات التدريس، أيضا ذكره للعلماء الذين التقى بهم في رحلته، فضلا عن إشارته إلى المجالس العلمية المنتشرة بكثرة في مدينة بغداد.

✓ العمارة الدينية؛ ركز ابن جبير في حديثه عن العمارة الدينية على المساجد خاصة في بلاد الحجاز التي قضى بها فترة طويلة وكان أهم المساجد المقدسة التي وصفها المسجد الحرام الذي ذكر موضعه وشكله، وأبوابه، وأركانه، وما يجاوره، كما وصف الكعبة المشرفة التي تتوسطه وذكر شكلها وكسوتها في تلك الفترة. أما ثاني المساجد الذي لا يقل أهمية عن المسجد الحرام هو المسجد النبوي، فقد أفاض ابن جبير في وصفه، وذكر موضعه، وشكله، ومنبره، وصومعته وغيرها. كما وصف روضته الشريفة بأجل الأوصاف. ثم تنقل ابن جبير إلى الكوفة وذكر مسجدها الشهير لبركته وقداسته، وذكر ما يوجد فيه من مشاهد مباركة. ثم انتقل إلى دمشق واصفا أهم المساجد التاريخية والأثرية الإسلامية كالمسجد الأموي الذي أعجب ابن جبير من طريقة تشييده، فذكر شكله، ومساحته، وأبوابه، وصوامعه وغيرها. فضلا عن إشارته إلى مجموعة كبيرة من المساجد في الإسكندرية وحلب والموصل وغيرها وحتى مدن من جزيرة صقلية. أما الكنائس، فقد ذكر ابن جبير مجموعة منها في جزيرة صقلية لأهميتها، التي اهتم بوصف شكلها وموضعها.

✓ أما العمارة المدنية التي تمثلت في الدور و الأضرحة والقصور والمنارات، فقد ركز ابن جبير في حديثه عنها إلى وجود عدد كبير من الدور في بلاد الحجاز، وقد وصفها لقداستها وأهميتها في نشر الدعوة الإسلامية كدار مولد النبي –صلى الله عليه وسلم– ودار خديجة (رضي الله عنها) ودار أبو بكر الصديق (رضي الله عنه)، وربطها بأحداث إسلامية كبيرة. أما القصور فقد ذكر مجموعة منها القصر الملكي بصقلية للملك غليام، كما أشار إلى مجموعة منارات أهمها منارة الإسكندرية.

✓ العمارة الحربية؛ وتمثلت في القلاع والحصون والأسوار والأبواب. وقد ذكر ابن جبير أهم القلاع كقلعة الجبل في القاهرة التي شيدها صلاح الدين الأيوبي، ومجموعة من الحصون في عكا وصور وغيرهما من المناطق التي اهتم أهلها بتحصين بلادهم من الحروب خاصة في زمن الحروب الصليبية.

المصادر والمراجع

- ✓ القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

أ- المصدر

1) أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير،رحلة ابن جبير دار صادر، بيروت، دط، دت.

ب- المراجع العربية:

1. إبراهيم العنقري، توسعة الحرمين الشريفين، المملكة العربية السعودية، دط، دت.
2. ابن الضياء، تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام، مكة المكرمة، دط، دت.
3. ابن بطوطة، رحلة "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق لجنة الأدباء، مصر، 1377هـ/1958م.
4. ابن رشيد الفهري السبتي، ملء العيبة بما جمع بطون الغيبة في الواجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، الدار التونسية، 1402هـ/1982م.
5. أبو حامد الأندلسي الغرناطي، تحفة الألباب وتحقيق الإعجاب، تحقيق إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب-الجزائر، 1989.
6. أبو الحسن علي بن محمد الربعي المالكي، فضائل الشام ودمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق، دط، 1950.
7. أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، جامعة القاهرة، دط، دت.
8. أبو عبد الله محمد البدري الحصري الدمشقي، نزهة الأنام في محاسن الشام، القاهرة، دط، 1341.
9. أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، ديوان الإمام الشافعي، جمع وإعداد الطالب طه ناجي، دار الكتاب الحديث-القاهرة، ط1، سنة 1423هـ/2002م.
10. أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسيني الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، دط، القاهرة، 1428هـ-2008م. المجلد الأول
11. أحمد السباعي، تاريخ مكة، دط، المملكة العربية السعودية، 1993، ج1.
12. أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، ط1، سنة 1419هـ-1998م.

13. أحمد أمين، فجر الإسلام، الرغاية-الجزائر، الطبعة الثانية، 1994.

14. أحمد بن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من أعلام مدينة فاس، دار المنصور-الرباط، 1973.

15. أحمد رجب محمد علي، المسجد الحرام، مكة المكرمة ورسومه في الفن الإسلامي، جامعة القاهرة، ط1، 1418هـ- 1996م.

16. أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون،دار البيان العربي، جامعة عين شمس، جدة، دط، دت.

17. أحمد عبد الرزاق أحمد، تاريخ وآثار مصر الإسلامية، دط، دار الفكر العربي، القاهرة، 1999م.

18. أسماء أبو بكر محمد، ابن بطوطة (الرحل والرحلة)، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، دط، دت.

19. اسمنت غنيم، الدولة الأيوبية والصليبيون، جامعة الإسكندرية، دط، 1975.

20. الإصطخري، المسالك والممالك، مدينة ليدن المحروسة، مطبعة بريل، 1927م.

21. باديس فاغولي، الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، عمان، الأردن، ط1، سنة 2008.

22. الباز العريني، الشرق الأدنى في العصور الوسطى الأيوبيون، دار النهضة-القاهرة، دط، دت.

23. البخاري ومسلم، الجامع بين الصحيحين، دار القلم، دمشق.

24. بشير رمضان التيليسي، جمال هشام، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، بنغازي-ليبيا، دط، 2001.

25. جورج غريب، أدب الرحلة، بيروت-لبنان، دط، دت.

26. جورجي زيدان، تاريخ الأدب العربي، دار الهلال-مصر، دط، 1798.

27. حسان حلاق، مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة، دار النهضة-بيروت، ط1، 1996.

28. حسن الباشا وعبد الرحمن فهمي وآخرون، القاهرة تاريخها فنونها آثارها، جامعة القاهرة، كلية الآداب، دط، دت.

29. حسن البصري، فضائل مكة والسكن فيها، تحقيق بسامي مكي الغاني، الكويت، دط، 1950.

30. حسن الشاهدي، أدب الرحلة في المغرب في العصر المريني، منشورات عكاظ، دط، دت، الجزء الأول.

31. حسني محمود حسن، أدب الرحلة عند العرب، بيروت-لبنان، دط، 1403هـ/1984م.

32. حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، دط، 1990.

33. حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، جامعة مدريد، ط2، 1976م- 1376هـ.

34. حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي دار الجيل-بيروت، دط، دت.

35. زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، بيروت-لبنان، دط، 1401هـ/1981م.

36. سامي محمد المرسي، المساجد الكبرى في العالم الإسلامي، دار العالم العربي، القاهرة، ط1، 2013م.

37. سيد حامد النساج، مشوار كتب الرحلة (قديما وحديثا)، مكتبة غريب، دط، دت.

38. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، جامعة الإسكندرية، دط، 1985.

39. شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، نصر-القاهرة، الجزء الثالث، دط، دت.

40. شمس الدين أبي عبد الله المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار صادر، بيروت، دط، دت.

41. شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، دط، بيروت، المجلد الثاني.

42. شوقي أبو خليل، الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، دار الفكر المعاصر-بيروت، ط1، 1994.

43. شوقي ضيف، الرحلات، دار المعارف، القاهرة، ط4، دت.

44. شوقي ضيف، الفن ومذاهبه، دار المعارف، القاهرة، دط، دت، الجزء الثامن.

45. صالح أحمد علي، بغداد مدينة السلام(الجانب الغربي)، بغداد، دط، 1985.

46. صفي الرحمن المبارك الكفوري، تاريخ المدينة المنورة، دار السلام، الرياض، ط1، 2002.

47. صفي الرحمن المبارك الكفوري، تاريخ مكة المكرمة، الرياض، 2002.

48. صلاح الدين المنجد، المشرق في نظر المغاربة والأندلسيون في القرون الوسطى، دار الكتاب، بيروت، ط1، 1963.

49. عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي، الرحلة في الإسلام أنواعها وآدابها، مكتبة الدار العربية-القاهرة، ط1، 1416هـ -1969م.

50. عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق عبد السلام الشدادي، بيت الفنون والآداب،ج2،دط، دت.

51. عبد الرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر-دمشق، ط2، 1980.

52. عبد العزيز بن عبد الله، الرحلات من المغرب وإليه عبر التاريخ، دار نشر المعرفة، الرباط- المغرب، ط1، 2001م.

53. عبد العزيز طريح شرف، الموجز في تاريخ الكشف الجغرافي، الإسكندرية، دط، 1993.

54. عبد القدوس الأنصاري، آثار المدينة المنورة، ط3، 1973.

55. عبد الله عنان، تراجم إسلامية شرقية وأندلسية-القاهرة، ط2، 1970.

56. عبد الله كامل موسى عبده، الأمويون وآثارهم المعمارية في الشام والعراق والحجاز واليمن ومصر وإفريقية، القاهرة، ط1، 1443هـ/2003م.

57. عبد الله ناصح علوان، صلاح الدين الأيوبي (بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين 532هـ-589هـ)، دار السلام، دط، دت.

58. العبدري، رحلة العبدري، تحقيق علي إبراهيم الكردي، دار سعد الدين،ط2، 2005م/ 1426هـ.

59. عفيف بهنسي، الفن العربي الإسلامي في بداية تكونه، دار الفكر، دمشق، ط2، 1996م.

60. علي إبراهيم الكردي، الرحل في المغرب والأندلس، وزارة الثقافة-دمشق، 2013.

61. علي أحمد، الأندلسيون في بلاد الشام(من نهاية القرن 5هـ حتى نهاية القرن 9هـ)، دمشق، دط، دت.

62. علي محمد الصلابي، صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير المقدس، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1429هـ، 2008م.

63. علي محمد محمد الصلابي، صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي (عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج)، دار البيارق، الأردن، ط1، 1418هـ-1998م.

64. عمر بن عبد العزيز السين، بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية (للأسطورة والرمز) بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، سنة 2009.

65. عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين- بيروت، ط1، 1982.

66. عواطف بنت محمد بن يوسف نواب، مقرر تاريخ وعمارة الحرمين الشريفين، مكة المكرمة، دط، 1433هـ.

67. عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين (7و8) (دراسة تحليلية مقارنة)، الرياض، دط، 1996.

68. فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، القاهرة، ط1، 2002م.

69. قدري حافظ طوقان، علماء العرب وما أعطوه للحضارة، دار الكتاب العربي، بيروت، دط، دت.

70. لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، دار الأمل للدراسات، ج2، دط، دت.

71. محمد ابن الحسن ابن زبالة، أخبار المدينة، مملكة العربية السعودية، ج1، 2003م.

72. محمد الهادي القرقوطي، جهاد الموحدين في بلد الأندلس، دار هومة، 1233هـ.

73. محمد إلياس عبد الغني، المساجد الأثرية في المدينة المنورة، المدينة المنورة، ط2، 1992م.

74. محمد بن إبراهيم بن صالح الحسين، جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى خلال عصري المرابطين والموحدين، السعودية، ط1، 1998م.

75. محمد بن أحمد ابن شقرون، مظاهر الثقافة المغربية، (دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني)، الدار البيضاء-المغرب، سنة 1406هـ، 1985م.

76. محمد بن أحمد الحضيكي السوسي، الرحلة الحجازية، الرباط-المغرب، ط1، 2011.

77. محمد بن شريفة، تراجم مغربية من مصادر مشرقية، مطبعة النجاح-الدار البيضاء، ط1، 1982.

78. محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصل والصلة، تحقيق محمد بن شرينة، دار الثقافة- بيروت، ج1.

79. محمد جابر الأنصاري، التفاعل الثقافي بين المغرب والمشرق في آثار ابن سعيد المغربي ورحلاته المشرقية وتحولات عصره، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1992.

80. محمد رجب البيومي، الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثر، د.ط، سنة 1980.

81. محمد رضوان الداية، في الأدب الأندلسي، دار الفكر المعاصر، بيروت-لبنان، ط1، 2000.

82. محمد سعيد الدغلي، كتاب الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب العربي وفي الأدب الأندلسي، دار أسامة، ط1، 1984م.

83. محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الأموية، دار النفائس، طبعة السابعة، 2010م.

84. محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة العباسية، دار النفائس، ط7، 2009م.

85. محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ط2، 1990.

86. محمد لبيب البتنوني، الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي ثالث خديوي، مصر، ط2، 1329م.

87. محمد مصطفى، رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة، دط، القاهرة، 1939.

88. محمد منوني، حضارة الموحدين، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1989م.

89. محمد مؤنس عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، كلية الآداب-جامعة عين الشمس، ط1، 1995.

90. محمد مؤنس عوض، رحاب الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، القاهرة، دط، 2014م.

91. محمود محمود حمو، مكة المكرمة تاريخ ومعالم، مكة المكرمة، ط5، 1432هـ.

92. ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن 4هـ، كلية الآداب-جامعة القاهرة، ط1، 1415هـ -1995م

93. نبيلة حسن محمد، تاريخ الدولة العباسية، دط، جامعة الإسكندرية، 1993.

94. نعمان محمود جبران، تاريخ الجزيرة العربية، في العصور الوسطى الإسلامية والوسطى، الأردن، دط، دت.

95. نقولا زيادة، جغرافية الرحلات عند العرب، بيروت، ط1، سنة1980م.

96. نوال عبد الرحمن الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية (حتى نهاية القرن التاسع الهجري)، المكتبة الوطنية-عمان، ط1، 1428-2008م.

97. يحي بوعزيز، موجز تاريخ الجزائر، دار البصائر، الجزء1، 2009.

ج- المراجع المترجمة:

98. أغناطيوس يوليا نوفتش كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، جامعة الدول العربية، 1957م.

99. آنخل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسن مؤنس، مكتبة الثقافة-القاهرة، دط، دت.

100. زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، تحقيق فؤاد حنين علي، دار البعث-قسنطينة، دط، 1984.

101. م.ق.مينورسكي، الجغرافيون والرحالة المسلمون، ترجمة عبد الرحمن حميدة، دار الفكر-دمشق، دط، 1985.

د- الرسائل الجامعية:

1. إسماعيل زردومي، فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، أطروحة دكتوراه، إشراف عبد الله العشي، مكتبة الأدب بجامعة الحاج الأخضر باتنة، 1426هـ، 2005م.

2. بلال سالم الهروط، صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية، أطروحة دكتوراه، إشراف د فايز القيسي، كلية الآداب بمؤتة-الأردن، سنة 2008، ص15

3. عبد الله عطية الحافظ، الآثار والفنون الإسلامية، ماجستير ودكتوراه في تاريخ الفن، كلية الآداب، جامعة منصورة، دط، دت.

4. محمد إلياس عبد الغني، بيوت الصحابة (رضي الله عنهم) حول المسجد النبوي، ماجستير في الأدب الإسلامي، المدينة المنورة، ط2، 1417هـ.

5. محمد إلياس عبد الغني، تاريخ المدينة المنورة(قسم المساجد)، ماجستير في الأدب الإسلامي، المملكة العربية السعودية، ط1، دت.

6. محمد إلياس عبد الغني، تاريخ المسجد النبوي، ماجستير في الأدب الإسلامي، ط1، 1416هـ.

هـ- الموسوعات:

1. اميل بديع يعقوب، موسوعة الأدب والأدباء العرب في روائهم العصر الأندلسي، بيروت، ط1، 2006، ص47.

2. بطرس البستاني، دائرة المعارف، مطبعة المعارف -بيروت، دط، 1884، ص524.

3. ج.س كولان، كتاب الأندلس (دائرة المعارف الإسلامية)، دار الكتاب اللبناني- بيروت، ط1، 1980، ص136.

4. جابر الجيلي، موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، دار الجيل- بيروت، ط1، 2005، مجلد الخامس، ص123

5. جعفر الدجيلي، موسوعة النجف الأشرف، دار الأضواء-بيروت، 1414هـ - 1993م، الجزء الرابع، ص14.

6. رحاب حضر عكاوي، موسوعة عباقرة الإسلام في الطب والجغرافية والتاريخ والفلسفة، دار الفكر العربي-بيروت، الطبعة الأولى، 1993، الجزء الثاني.

7. عبد الحكيم العفيفي، موسوعة (1000) مدينة إسلامية، مكتبة الإسكندرية، دط، دت.

8. علي محمد الصلابي، موسوعة الحروب الصليبية الدولة الزنكية، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ط1، 1428هـ/2007م.

و- المجلات:

1. رضوان الأهدب، الرحلات الحجازية (رحلة أبي عبد الله الحضيكي نموذجا)، مجلة قضايا التجديد في العلوم الإنسانية والإسلامية بالكلية متعددة الاختصاصات،العدد الرابع،الناظور-المغرب، ديسمبر ،2019

2. فتيحة الحاج بن فطيمة، القيمة التاريخية لكتب الرحلة (رحلة ابن جبير والطهطاوي موذجا)، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية، العدد الأول، جامعة يحي الفارس المدية – الجزائر، يناير ،2019

3. كاظم موسى الطائي، رحلة ابن جبير (جدلية الأدب والمكان)، مجلة عصور الجديدة، العدد الخامس ،جامعة وهران (1) أحمد بن بلة، 2012

فهرس الموضوعات

شكر وعرفان	
إهداء	
مقدمة	أ - د
مدخل: أدب الرحلة	2 - 18
1-بدايات الرحلة	2
2-بواعث الرحلة	5
3-أهمية الرحلة	12
4-تدوين الرحلة	15
5-الرحلات الأندلسية	16
6-أدب الرحلة	18
الفصل الأول: مسار الرحلة	22 - 36
1-حياة ابن جبير	22
2-رحلاته	30
3-حالة المغرب والمشرق الإسلامي زمن الرحلة	34
4-مسار الرحلة	36
الفصل الثاني: الحضور الجغرافي والبشري لرحلة ابن جبير	51 - 77
1) الحضور الجغرافي	51
أ- الحجاز	51
ب- الشام وحواضرها	62
ج- مصر	66
د- العراق	68
هـ-جزر صقلية	71
2) الحضور البشري	72
أ- صلاح الدين الأيوبي	72
ب- المهدي محمد بن أبي جعفر المنصور	74

ج- الوليد بن عبد الملك	76
د- نور الدين محمود زنكي	76
هـ-الملك غليام	77
الفصل الثالث المظاهر الحضارية في رحلة ابن جبير	156 - 81
أ- **المظاهر الاجتماعية**	81
1-طبقات المجتمع	81
2-العادات والتقاليد	84
3-الاحتفالات	91
4-الأعياد	93
5-اللباس	95
6-الأطعمة والأشربة	98
ب- **المظاهرالاقتصادية**	101
1-الزراعة	101
2-الصناعة	105
3-التجارة	107
ج-**المظاهر الدينية والعلمية**	114
❖ **توطئة عامة**	114
1. العمارة الدينية	122
أ- المساجد	122
ب- الكنائس	144
2. **العمارة المدنية**	145
أ- القبور والمشاهد	145
ب- المدارس والمستشفيات والحمامات	147
ج- المنارات والأهرامات	150
د- القصور	151
هـ- الدور	152

3. **العمارة الحربية**	155
أ- القلاع	155
ب- الأسوار والأبواب	157
ج- الحصون	158
الخاتمة	158
المصادر والمراجع	161
فهرس الموضوعات	173

الملخص

يرصد هذا البحث الأماكن التي زارها ابن جبير في رحلته إلى الشرق في النصف الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي والتي أولاها اهتماما بالغا في مدوناته ومشاهداته. فضلاً عن الإحاطة بكل المظاهر الحضارية المختلفة خاصة في تلك الفترة من تاريخ الحضارة الإسلامية،والتعرض للمشاهد المقدسة، والحياة الاقتصادية من زراعة وتجارة وصناعة، وصور من الحياة الدينية والاجتماعية من مساجد ودور العبادة والأسواق في بلاد الشرق العربي. كما رصد أيضًا صورًا من مظاهر العمران الاجتماعي والديني في البلدان التي زارها، حيث استرعى انتباهه فيها مدى اختلاف المذاهب والمعتقدات والعمارة المدنية والحربية.

الكلمات المفتاحية:المظاهر الحضارية، أدب الرحلة،ابن جبير، العمران الاجتماعي والديني.

Abstract :

This research records the places visited by Ibn Jubayr on his journey to the East in the second half of the sixth century AH / twelfth century AD, which he paid great attention to in his blogs and observations. In addition to covering all the different manifestations of civilization, especially in that period of the history of Islamic civilization, and exposure to the sacred scenes, and the economic life of agriculture, trade and industry, and pictures of religious and social life from mosques, places of worship and markets in the countries of the Arab East. He also monitored images of social and religious urbanization in the countries he visited, in which he drew his attention to the extent of different sects, beliefs, civil and military architecture.

Keywords: Civilizational aspects, travel literature, Ibn Jubayr, social and religious architecture.

Résumé:

Cette recherche recense les lieuxvisités par Ibn Jubayrlors de son voyage versl'Est dans la secondemoitié du VIe siècle AH / XIIe siècle après JC, auxquels il accordaunegrande attention dans ses blogs et ses observations. En plus de couvrir toutes les différentes manifestations de la civilisation, en particulier dans cettepériode de l'histoire de la civilization islamique, et l'exposition aux scènessacrées, et la vie économique de l'agriculture, du commerce et de l'industrie, et des images de la vie religieuse et sociale des mosquées, lieux de culte et marchés dans les pays de l'Orientarabe. Il a égalementsuivi des images d'urbanisationsociale et religieuse dans les pays qu'il a visités, dans lesquels il a attiré son attention sur l'étendue des différentessectes, croyances, architectures civiles et militaires.

Mots-clés : manifestations civilisationnelles, littérature de voyage, Ibn Jubayr, urbanisationsociale et religieuse.